كتاب الجمهورية

نعم.. مصر هى بيت أبى

محمد جبريل

صالح

كتاب الجمهورية

فبـــراير ٢٠١٢

www.gombook.net.eg

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير

خــالد بكـــير

نعم

مصر هى بيت أبى

محمـــــد جبـــريل

دار
الجمهورية
للصحافة

١١١ ـــ ١١٥ ش رمسيس
ت : ٢٥٧٨٣٣٣٣

أعضاء مجلس التحرير

محمد فودة
ناجى قمحة
محمد جبريل
عثمان الدلنجاوى
مصطفى القاضى
محمد إسماعيل

فبراير ٢٠١٢

أسعار البيع فى الخارج

سوريا	٣٠٠ ل.س
لبنان	١٢٠٠ ل.ل
الأردن	٤٫٥ دينار
الكويت	٣ دنانير
السعودية	٣٠ ريالاً
البحرين	٣ دنانير
قطر	٣٠ ريالاً
الإمارات	٣٠ درهماً
سلطنة عُمان	٣ ريالات
تونس	٦ دنانير
المغرب	٩٠ درهماً
اليمن	٩٠٠ ريالاً
فلسطين	٦ دولارات
لندن	٦ جك
أمريكا	١٥ دولاراً
استراليا	١٥دولاراً استرالياً
سويسرا	١٥فرنكاً سويسرياً

الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية
١٨٠ جنيهًا
الدول العربية ٩٠ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا
١١٥ دولارا أمريكيًا
أمريكا وكندا
١٣٥ دولارا أمريكيًا
باقى دول العالم
١٧٥ دولارا أمريكيًا

إذا وجدت أى مشكلة
فى الحصول على
«كتاب الجمهورية»
وإذا كان لديك أى مقترحات أو
ملاحظات
فلا تتردد فى الاتصال على أرقام :
٢٥٧٨١٠١٠ ٢٥٧٨٣٣٣٣
http://www.eltahrir.net

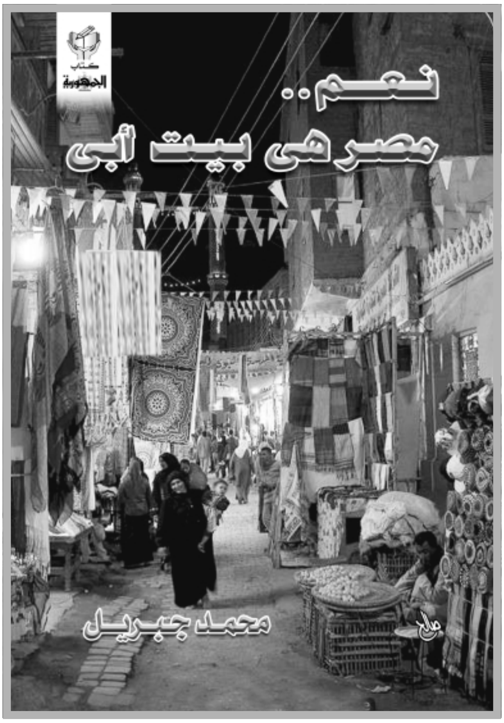

تصميم الغلاف الفنان : صالح صالح

سكرتير التحرير
سيد عبد الحفيظ

حقوق النشر محفوظة لـ (كتاب الجمهورية)

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن سلسلة (كتاب الجمهورية)، بل هى مسئولية أصحابها.
ولا يجوز نهائياً نشر أو اقتباس أو اختزال أو نقل أى جزء من الكتاب دون الحصول على إذن من الناشر.

نعم

مصــر هى بيت أبــى

محمـــــد جبــــريل

هذا الكتاب، يضم دراسات، نشرت
فى العقد الأول من القرن الحادى
والعشرين، ناقشت هموماً ومشكلات
قومية معاصرة، وحاولت أن تستشرف
أفقاً حقيقياً للمستقبل.

نعم..

مصر هي بيت أبي!

ونحن صغار، كنا نردد نشيداً مطلعه:

مصر العزيزة لى وطن.. وهى الحمى وهى السكن

والحق أن مصر التى نحبها ليست فى المطلق، إنها ليست مجرد اسم ذى حروف ثلاثة، نحبها لأن الواجب يقتضى ذلك، مصر طفولة ونشأة ودراسة ومعالم حياة، واضحة أو تعانى الظلال، مصر هى تاريخ المقريزى وابن عبدالحكم وابن تغرى بردى وابن إياس والجبرتى والرافعى وسليم حسن، ونضال محمد كريم وعمر مكرم وعبدالله النديم، وملاحظات الطهطاوى، وزعامة عرابى، وخطب مصطفى كامل، وقيادة سعد زغلول، وأبوة النحاس، وعملقة عبدالناصر، وتحدى نبوية موسى وهدى شعراوى وصفية زغلول، وتعاليم الأفغانى، واجتهادات محمد عبده، وريادة توفيق الحكيم، ومواقف العقاد، واستنارة طه حسين، وأفكار سلامة موسى، وتميز المازنى وأحمد أمين والزيات، ومستقبلية أحمد بهاء الدين وسيد عويس، ورحلات حسين فوزى فى الزمان والمكان، وأبحاث مشرّفة وعلى إبراهيم ومحفوظ وسليمان عزمى والباز وعبدالمحسن صالح وزويل، وروايات نجيب محفوظ وعادل كامل والسحار ومكاوى، وقصص إدريس والبدوى والشارونى وحقى وفياض، وقصائد شوقى وحافظ وعبدالصبور وحجازى ودنقل وأبوسنة، وصوت أم كلثوم، وأداء عبدالحليم حافظ، وأستاذية عبدالوهاب، وألحان سيد درويش وداود حسنى والقصبجى وزكريا والسنباطى والأطرش والموجى وبليغ وسلطان، وشدو ليلى مراد وشادية ونجاة وقنديل وكارم والبليدى والسروجى والكحلاوى وعبدالمطلب وفايزة وأنغام والحجار والحلو

وشاكر، ولوحات عياد ومحمود سعيد وصبرى وندا وسيف وأدهم وانلى والنجدى وعبدالحفيظ وسرى وأفلاطون ودسوقى وبقشيش، وتماثيل السجينى وصلاح عبدالكريم وأحمد عثمان وعبدالحى، وأفلام كريم وسليم وذو الفقار وأبوسيف وبركات والشيخ والإمام وحسين كمال والطيب، ومسرحيات بديع وأمين صدقى ونعمان عاشور ووهبة ودياب ورومان وفرج، ونجومية الريحانى وفاطمة اليوسف وفاطمة رشدى وفاتن وماجدة وسناء جميل وعماد حمدى وسرحان والشناوى وسميحة أيوب ومحمود مرسى وياسين وحسين فهمى والشريف وعبلة كامل، وصلاة الجمعة وليلة الرؤية وليالى رمضان والأعياد وزيارة المقابر والسهرات الدينية، والسير فى الميادين والشوارع والأزقة، والسهر على الجسر أو على شاطئ الترعة، وحاملات الجرار، وليالى الحصاد، وتاكسى الأرياف، وجلسات القهاوى والندوات والكازينوهات الليلية، والدخول فى دردشة مع ركاب قطار، ويوم الدراسة الأول، وأيام الإجازة، وألعاب الطفولة: النحلة والبلى وعنكب يا عنكب والاستغماية والأولى والمراجيح والأراجوز وخيال الظل وصندوق الدنيا والحاوى والحلابسة، والحب الطفولى لبنت الجيران، والبدل والجلابيب وملاءات اللف واللاسات والطرابيش والطواقى والأقدام الحافية، والنهر والبحر والوادى والبحيرات والجبل والسواقى والنخيل والمصاطب والأجران والساحات وأبراج الحمام، والجوامع والمساجد والزوايا وأضرحة الأولياء وحلقات الذكر والموالد والجلوة ومواكب الطرق الصوفية، وتلاوات القرآن والأذان لرفعت وعلى محمود وشعيشع والمنشاوى ومصطفى إسماعيل وعبدالباسط، والتسابيح والصلاة خير من النوم وصياح الديكة فى اقتراب الفجر، والشحاذون والمساليب والمجاذيب والذين على باب الله وطالبو الستر والبرء والشفاعة والمدد، والمعتقدات والعادات والتقاليد، وطقوس الأفراح والمآتم والسبوع والختان والصباحية والأحجبة والتفاؤل والتشاؤم، وهتاف باعة الصحف واللبن والفول السودانى والترمس والعرقسوس، وأسواق القرى فى امتداد أيام الأسبوع، والنداءات والدعوات والابتهالات والشتائم والخناقات وبيع المحصول والفصال وبسم الله الرحمن الرحيم ومبارك عليك..

باختصار، فإن مصر ليست فى الاسم، نحبها لأن المفروض أن نحبها، حتى حب الوطن لا يعرف الفرض، فلماذا إذن تتفاوت أمزجة الناس ومشاعرهم وتصرفاتهم إزاء وطنهم بين المثالية والواجب والانتهازية؟.. ومثلما أفرزت "القاهرة الجديدة" ـ رواية نجيب محفوظ ـ محجوب عبدالدايم الذى توعد القاهرة فى موقف مشابه لبطل رواية بلزاك الشهيرة "الأب جوريو"، وسار فى رحلة الوصولية إلى نهايتها، فإن الرواية نفسها هى التى قدمت مأمون الإخوانى، وعلى طه اليسارى، وبدير الذى يؤمن بالليبرالية، حب الوطن ـ مثل حبنا للبشر والأشياء ـ يستند إلى دعامات ومواقف وذكريات، كان المصرى مرتبطاً بأرضه، قرارياً، وكان القسم إذا انتقل المرء من قرية إلى المدينة، أو من المدينة إلى مدينة أخرى: وحياة غربتى!.. ويظل ذلك قسمه حتى تنتهى تلك الغربة، لكنه الآن يهاجر، يغادر بلده وأهله وأصدقاءه، يخرج إلى المجهول، ويجازف بالمغامرة، يحيا ما لم يألفه، ويخالط ناساً غير ناسه، بعد أن كان إيمانه أن المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين، وأن الإنسان يجرى جرى الوحوش، فلا يلقى إلا ما قسم الله له، هو الآن يسعى فى مناكبها، ويأكل من رزق الله.

هل يعنى ذلك أن المصرى فقد انتماءه؟

عندما يغيب المصرى عن وطنه، فإن الحنين الذى يدفعه لتعجل العودة، أبعد ما يكون عن الأوتوماتيكية، فهو ليس مدفوعاً إلى الوطن بزر أو آلة توجيه، لكن صورة ما خلفه من حياة فى موطنه ـ مدينة أو حى أو قرية ـ تنثال إلى ذهنه ووجدانه بجزئياتها وتفصيلاتها الدقيقة: لحظة وداع مؤثرة، شارع خلفى مارس فيه شقاوة الطفولة، جلسة مسائية على شاطئ ترعة، أصدقاء الطفولة والشباب، لحظة التعرف إلى الجنس للمرة الأولى، قراءة سيرة بطل شعبى، أيام المذاكرة تحت أعمدة النور فى الطريق الزراعى..

من ذلك كله، يتخلق "الحنين" الذى يجعل المصرى ـ ذلك الذى دفعته الظروف القاسية لأن يغادر المثل "البطيخة ماتكبرش إلا فى لبشتها"، ويغادر الأهل والوطن إلى ظروف مادية أكثر يسراً ـ يحرص على قراءة ما يصادفه من الصحف المصرية، يتابع أخبار مصر فى القنوات الفضائية، أو فى موجات الراديو التى تعانى الرداءة والتشويش، وفى

أفلام الفيديو التى تهزه بلهجتها المصرية، وما قد تعبره من أماكن، يصيح فى شوق: هذا هو ميدان التحرير.. هذا الطريق يفضى إلى المنصورة.. السيدة زينب.. ميدان الحسين.. شاطئ الإسكندرية.. وتتناثر التعليقات والذكريات والحكايات، شعور متمايز يشمل النفس، يدفعها إلى الزيادة والاستزادة. مجرد ذكر الاسم يملأ النفس بمشاعر دافئة، تغيب المنغصات والمشكلات وعوامل النفى الاختيارى، تختفى الظلال والمناطق الداكنة..

وهذا هو الإحساس بالانتماء.

الانتماء يبين عن نفسه فى مجرد حرص الفرد على أن يكون فرداً فى أسرة، عضواً فى عائلة، منتسباً فى جماعة..

فى أثناء عملى فى منطقة الخليج، أشفقت على صديق لا يحسن التصرف فى أموره الخاصة من مأكل وملبس وغيرها، سألته:

ـ لماذا لا تتزوج؟

ـ كيف؟..

ـ ابحث عن فتاة مناسبة، وتزوجها!

ـ أبى لن يوافق على زواجى من غير عائلتى.

ـ لكنك تخطو إلى الثلاثين..

قال فى استسلام:

ـ ولو!.. زواجى من فتاة غريبة عن العائلة، معناه أن أبى لن يسمح بدخولى بيته، إن لم يكن البلدة كلها!..

☆☆☆

التكافل الاجتماعى تعبير يستخدمه الآخرون، لكنه حقيقة فى مصر، فرضته ـ منذ البداية ـ مواجهة أخطار النهر، ثم أصبح ـ بالتركيبة الاجتماعية ـ بعداً ثابتاً فى حياة المجتمع المصرى، بدءاً من مركزية الحكم، فنظام العائلة، فتوقير الأكبر سواءٌ كان مسئولاً حكومياً، أو عميداً للعائلة، أو أباً للأسرة (المشاركة فى الأفراح والمآسى).

أما الثلاجة التى تمتلكها الأسرة فى القرية، فإن مختزن مائها يروى أسراً مجاورة لا يوجد عندها ثلاجة، وجهاز التليفزيون يجلس إليه فى المساء - دون محاسبة - أطفال الأسر المجاورة.. إلخ..

★★★

يحدد أستاذنا زكى نجيب محمود الولاء للوطن بأنه "دمج الذات الفردية فى ذات أوسع منها وأشمل، ليصبح الفرد بهذا الدمج جزءاً من أسرة، أو من جماعة، أو من أمة، أو من الانسانية كلها" (الأهرام ١٩٨٣/٤/١٧)، والانتماء - على مستوى الوطن - ليس مجرد ميلاد، أو نشأة، أو محل إقامة، إنما هو أن أشعر بالزهو لكل ما تحياه مصر من انتصارات وإضافات وإنجازات إيجابية، وأن أشعر بالخذلان لكل ما تواجهه مصر من هزائم.

أنا أحب فريقاً بذاته لكرة القدم، أو كرة السلة، لكننى أشجع أى فريق مصرى إذا كان خصمه فريقاً أجنبياً، وأتمنى له الفوز، النادى المصرى هنا يمثل اللعبة فى مصر كلها، يمثل مصر كلها، حين ينتصر، فإن الانتصار يعلن بأن فريقاً مصرياً قد فاز..

والعكس - بالطبع - صحيح!

تغيظنى الفرحة التى يعلنها مشجعو هذا الفريق أو ذاك، لأنه هُزم من فريق أجنبى، هذه فرحة لا منتمية، يغيب عنها الوعى بمعنى الوطن، وانتماء الجميع - أفرادا وجماعات - إلى هذا الوطن..

تصور لو أن أفراد كتيبة ما قابلوا بالشماتة هزيمة كتيبة أخرى لأنها هزمت فى معركة، بينما انتصروا هم فى معركة مماثلة!

إن الهم واحد، والجميع فى إطار واحد، فى خندق واحد، والنتائج - سلباً وإيجاباً - يتلقاها الجميع، أو يدفع ثمنها الجميع.

وحين أصبح فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل فرحاً مصرياً، عكس ذلك أصالة الانتماء فى حياتنا، هزنى "البورتريه" الساذج لنجيب محفوظ، رسمه فنان مجهول الاسم، ووضعه على الرصيف المقابل لجامعة الأزهر، وكتب تحته: أبناء الجمالية يهنئون ابن الحى الكاتب الكبير نجيب محفوظ على فوزه بجائزة نوبل العالمية.

منتهى الإحساس بالانتماء كما ترى!..

وتروى الأستاذة صافيناز كاظم عن فترات سجنها السياسى فى سجن القناطر، إنها استمعت إلى قول العديد من فتيات قسم الدعارة، فى معرض الحديث عن المرأة المصرية: لما واحد أجنبى يقول: المصرية كذا، كنا نقول له: اخرس.. إحنا مش المصرية.. إحنا سواقط هربنا من أهلنا.. المصرية أنت تتوضّى بتراب رجليها (المصور ١٩٨٣/٦/٣)، ونتذكر خروج المومسات فى أحداث ثورة ١٩١٩، يشاركن - دون تدبر للعواقب! - فى المناداة بعودة سعد ورفاقه!

✯✯✯

فى إقامتى الطويلة بمنطقة الخليج، كانت ملاحظتى الرئيسة أن النظرة إلى المصريين على أنهم مجموع وليسوا أفراداً، الوافد المصرى الذى يرتكب فعلاً مشيناً - وما أكثر، للأسف، أفعالنا المشينة خارج بلادنا! - يتحدثون عنه باعتباره مصرياً، لا يقولون فلان المدرس المصرى، أو الطبيب المصرى، أو المهندس المصرى، أو الموظف المصرى، إنما يكتفون بالقول: مصرى!.. النظرة إلى الأمور والتصرفات والمواقف، فى منطقة الخليج، تمليها اعتبارات قبلية، أبوية، الفرد عندهم ينتمى إلى قبيلة، أو إلى مضرب، أو إلى بلدة، أو إلى مشيخة، والمواطن الوافد ينتمى إلى بلده، وليس إلى اسم، أو إلى وظيفة.

✯✯✯

المشكلة الأساسية التى يعانيها مجتمعنا هى عدم الشعور بالانتماء، عدم الإحساس بالجماعية، نحن - أنا وأنت وآخرون - نشكل مجتمعاً، قوامه أفراد، أحد وزراء التموين تمنى - يوماً - لو أن كل مواطن أنقص ملعقة سكر من كوب الشاى، تصرف فردى يوفر للجماعة مئات الأطنان من السكر الذى نستورده بالعملة الصعبة، ظلت الأمنية فى إطار الصفة، فلم تتحقق، لأن الشعور بالجماعية غائب، مفتقد.

أتذكر حكاية السلطان الذى وضع برميلاً كبيراً فى وسط المدينة، وطلب من كل مواطن أن يضع فى البرميل كوباً من الزيت، ولما أتى الصباح، تبين السلطان ما فى البرميل، فوجئ بالمياه تملؤه، قال كل مواطن لنفسه: لو أنى وضعت بدلاً من كوب الزيت كوباً من الماء، فلن يتأثر البرميل، أقدم الآخرون على التصرف ذاته، فغمرت المياه البرميل!

التحذيرات تتعالى: حاذر على نقطة الماء.. حافظ على نظافة مدينتك.. لا تقطف الأزهار.. لا تقطع الأشجار.. تحذيرات كثيرة، نتفهم بواعثها، نقدرها، لكن التفكير الفردى الذى يملى تصرفاً فردياً، يكتفى بالتفهم والتقدير، وتظل أفكارنا وتصرفاتنا خارج محيط الجماعة، حتى لو كان اقتناعنا بالجماعة مؤكداً، هل يؤثر تصرفى الصغير، أو إهمالى، فيما تطلبه الجماعة؟

وعندما أحصل على فرصة غيرى فى طابور السينما أو تذاكر القطار، ألقى بالأوساخ فى الطريق، أقذف بالسيجارة من نافذة السيارة، أحاول الحصول على مكسب لا أستحقه، بل وأحاول حجبه عمن يستحقه، ألقى بعبء عملى على المتسامح أو الأضعف.. إذا أنا فعلت شيئاً من ذلك، أو كله، فأنا أفقد الانتماء، أو الضمير الاجتماعى بتعبير آخر.

الصفة نفسها تنطبق على سائق التاكسى الذى يحصل منك على الأجرة كاملة، ويحشر معك ركاباً آخرين، ولا يصل بك إلى المكان الذى تقصده، يقف حيث يشاء، ويشير إليك: خطوتين وتوصل مطرح ما أنت عاوز!.. وسائق الأتوبيس الذى يركن السيارة، وينزل متمهلاً يعد لنفسه الطعام والشاى، لا أحد يفكر فى مناقشته، فالإجابة الجاهزة دوماً: اللى مش عاجبه يركب تاكسى!..

لقد أهملنا الحلول الجماعية، نلجأ إلى حل المشكلات العامة بحلول فردية، الأزمة الاقتصادية ـ مثلاً ـ حلها فى قبول الرشوة، أو الاتجار فى أى شىء، حتى الممنوعات، بدءاً بالسلع المهربة وانتهاء بالمخدرات.. أزمة الإسكان حلها فى تبوير الأرض، وتجريفها، وبناء المساكن فوقها.. أزمة المواصلات حلها فى شراء السيارات الخاصة، لتعانى المدن ـ القاهرة بالذات ـ من زحام على زحام..

مع ذلك، فنحن لا نخطئ، أو بتعبير أدق: لا نعترف بالخطأ، الخطأ دائماً مسئولية الآخرين، إنهم هم الذين وراء كذا وكذا مما فعلناه بأيدينا، أو نامت عنه أعيننا، أو أهملت سماعه آذاننا.

وحين كتبت قصتى "العودة" كانت اللغة الغريبة التى ليست العربية ولا الفرنسية ولا الإنجليزية، تمثل ـ فى تقديرى ـ غياب الانتماء، البعض ينظر إلى حياة الجماعة باعتبارها غابة، وإلى الآخرين باعتبارهم فرص ربح وخسارة..

من يقدم على تبوير الأرض الزراعية، يدرك جيداً خطر ذلك على جودة الأرض، والتأثير المستقبلى على التنمية الزراعية.. ومن يبنى فوق الأرض الزراعية - أكثر من ٩٦٪ من أرض مصر صحراء! - يدرك جناية ذلك على مجموع مساحة الأرض الصالحة للزراعة..

وقد أصبح التلوث مشكلة مصرية: الدخان والعادم والصخب والزعيق والصراخ والزحام.

قالت زوجتى للطبيب: إنها لا تشكو من أى قلق أو عارض صحى، قال: يكفى أن تحاولى عبور الشارع لتشعرى بما هو أكثر من القلق والعصبية!..

والأمثلة كثيرة، ولن يقضى عليها سوى الشعور بالانتماء، القوانين كثيرة، لكن: من ينفذ؟.. لو توافر الشعور بالانتماء، لأحس كل مواطن بمصريته، يقال عن الذى يخلص فى عمله: كأنه بيت أبيه!.. مصر هى بيت أبينا جميعاً، فلماذا لا ينطبق هذا المثل عليها؟.. استباحة بيت الأب - بالطبع - غير واردة، نحن نحرص عليه، فلماذا لا نحرص على مصر؟

☆☆☆

أذكر فى سنوات إشرافى على جريدة "الوطن" العمانية، أن أحد وزراء التربية والتعليم المصريين زار عمان، وأجرى محادثات مع المسئولين هناك، وتعرف - بالطبع - إلى المظاهر التربوية والتعليمية، وفى نهاية الزيارة، التقى الرجل بالمدرسين المصريين الذين كانت الحركة التعليمية تقوم - أساساً - على مجهوداتهم، وقال الرجل متمنياً: لو أنكم تبذلون الجهد نفسه فى مصر!

والحق أن الانضباط الذى يتحرك من خلاله المواطن المصرى - إذا التحق بالعمل فى منظمة أو دولة أجنبية - ظاهرة تحير حتى هؤلاء المواطنين أنفسهم: هل هو المرتب الأفضل؟.. أم هو المناخ الأنسب؟.. أم هو الخوف من الفصل الذى لا تمنعه ضمانات؟..

المؤكد أن العمل فى المنظمة أو الدولة الأجنبية يوفر للمواطن المصرى احتياجات قد يعانى افتقادها فى بلاده، المرتب الجيد، والمسكن المناسب، ووسيلة الانتقال التى تريحه من عناء المواصلات، أشير إلى قول موشى دايان:

على المصريين أن ينظموا أولاً صعودهم إلى وسائل النقل العامة، ونزولهم منها، قبل أن يفكروا فى الانتصار على إسرائيل!

لكن النظر إلى المشكلة من هذه الزاوية وحدها، ينطوى - لا شك - على سذاجة مؤكدة، ثمة مواطنون أتيحت لهم كل المقومات التى تجعل من انصرافهم إلى العمل الجاد أمراً بدهياً، مع ذلك فإنهم لا يفعلون ذلك.

المناخ العام الذى يسود المجتمع، لابد أن يعكس تأثيراته على تصرفات الأفراد، المواطن المصرى الذى يعمل فى منظمة أو دولة أجنبية لا يعنيه إلا أنه "أجير" يتقاضى مقابلاً لعمله، أما فى مجتمعه، فلابد أن يزعجه حصول الآخرين - من مواطنيه - على فرص يتصور أنها حق له!

الانتماء هو أن يحس الإنسان بحريته فى أن يقول ما يشاء، بصرف النظر عن اقتراب رأيه من الصواب أو الخطأ..

أن يجد أمامه، وحوله، القدوة الحسنة..

أن يشترك فى صنع القرار..

أن يشترك - بالانتخابات الحقيقية التى لا تلجأ إلى التزوير - فى أمور بلاده السياسية.

أن يشعر بأن النظرة إليه فيها احترام، واعتراف بذكائه..

عندما يشعر المواطن المصرى بالانتماء، فإنه سيدفع الضرائب، ويؤدى - بإتقان - ما يطلب منه، ويعتنى بالبيئة، ويتعاطف مع الآخرين، ولعلى أتأمل قول فرانسيس بيكون" يجب أن يكون لى - كمواطن - دور فى صنع القرار، وأن يكون لى نصيب من الكعكة، لا يأكلها الآخرون وحدهم، وأن تظلنى مظلة العدالة الاجتماعية.. وفيما عدا ذلك أصبح غريباً فى وطنى، بل ومدمراً لكل ما حولى".

قمة إحساسى بالألم والمرارة، حين أشعر أنى لا أحيا فى الوطن الذى أحبه، استولى عليه آخرون، حولوه مؤسسة خاصة، شقة مفروشة، فندقًا.. المسميات كثيرة، لكن المعنى المحدد هو أن وطنى لم يعد وطنى، أتحرك فيه كالغريب، أتعامل مع قياداته والمسئولين عن أموره لا باعتبارهم مواطنين مثلى، وإنما باعتبارهم أصحاب الوطن، وأتذكر مقولة أبوحيان التوحيدى:

"وأغـرب الغـرباء من صـار غـريبـاً فى وطنه". وأتـذكـر المثل العـربى القـديم، وأعمل به مضطراً: "إذا كنت فى دارهم، فدارهم"!.. وأتذكر المثل العامى ـ وإن حاولت الفلفصة من تطبيقه فى كل الأحوال ـ: "أربط الحمار مطرح ما يطلب صاحبه"!.. وصاحب الحمار، الوطن، هو ذلك الذى لا رابطة من أى نوع بينى وبينه!.

الأخطر أن الناس ألفوا الظلم والإلزام والمضايقة، فهم لا يشكون، فى ألمانيا تخرج المظاهرات الصاخبة، احتجاجاً على رغبة بلادهم فى الانضمام إلى النادى الذرى، ويرفع أهالى العاصمة اليابانية طوكيو قضايا ضد الحكومة لأن حركة الطائرات تحدث انزعاجاً للمقيمين بالقرب من المطار، وطائرة الكونكورد تأخر هبوطها فى مطار نيويورك عامين حتى فصلت المحكمة الفيدرالية العليا: هل تسبب إزعاجاً للبيئة أم لا؟

ومع أننا نرى عشرات السلبيات التى قد تهدد حياتنا، فإننا لا نفعل شيئاً، تكرر الرفض والشكوى والتندر وإطلاق النكات بلا طائل، فحل مكانها الإحباط، سارت فى شوارع القاهرة ـ أو الإسكندرية ـ سيارات للنقل العام، أطلق عليها الناس اسم كارتر، نسبة إلى الرئيس الأمريكى الأسبق، لم تسكت أصواتها المزعجة إلا بعد أن ضايقت رئيس الدولة فى قصره الصيفى!

★★★

لقد أنشأ محمد على أول جيش فى مصر الحديثة.. فما هو الثمن الذى دفعه الإنسان المصرى لتكوين هذا الجيش، بل: لماذا تكون هذا الجيش أصلاً؟

يصف رحالة إنجليزى ظروف تكوين هذا الجيش، والمهام التى أوكلت إليه: "لقد شاهدت بعينى، كيف أقام محمد على جيشه على السخرة التى لم تكن تختلف كثيراً عن صيد العبيد فى مجاهل إفريقيا، فقد كان يتم الاستيلاء على الرجال أينما وجدوا، ثم تقيد أيديهم وأقدامهم بالحبال، ويقذف بهم إلى القوارب التى تقلع إلى مراكز التجنيد، حيث يستعمل الكرباج بسخاء، فيتحول الفلاح إلى جندى، وهكذا تكون جيش محمد على، بالقهر والاستعباد، وكانت زوجات المسخّرين يسرن على الأقدام إلى جانب القوارب، وكثيراً ما كن يهلكن فى الطريق من الإعياء والجوع، لا عجب إذن فى أن الأمهات المصريات ـ كما هو معروف ـ كن يلجأن إلى الإضرار بأطفالهن للتخلص من خدمة السخرة

فى الجيش، فيخرقن عيون الأطفال، أو يقطّعن سيقانهم. وقد شاهدت بنفسى صبياً وقد مدوا قدمه فوق نار حامية حتى يصبح أعرج لا يصلح للجيش، فإذا فات أهل الطفل تعطيل بعض وظائف جسده، نجده عندما يشب يفعل هذا بنفسه، وما كان هذا ليمنع محمد على من إنشاء كتيبة كل رجالها من العور، يعملون بالسخرة طبعاً، أى بدون مقابل، سوى القليل من الطعام الذى مهما شدّوا أحزمتهم حول بطونهم، فهو لا يمنع إحساسهم بالجوع الذى ينهش أمعاءهم، مما كان يؤدى فى كثير من الأحيان إلى هلاكهم، وقد كان من نتائج فظائع السخرة فى الجيش، الهلع الذى كثيراً ما يصيب الريف المصرى بأكمله، فتتعطل أعمال فلاحة الأرض وزرعها شهوراً طويلة، إذ يلجأ الرجال والصبية وكل قادر على العمل، إلى الجبال والكهوف والمقابر، يحتمون بها من السلطة، طبعاً لم يكن فى إمكان هؤلاء الفلاحين التعساء الحصول على الطعام، إلا فى النادر القليل عندما يحمله إليهم بعض أقاربهم أو أصدقائهم، أما بالنسبة للماء، فقد كانوا يضطرون - تحت ستار ظلام الليل - أن يهبطوا إلى الوادى ليشربوا من ماء الترع والقنوات فى صحبة الثعالب وابن آوى المنتشرة فى كل مكان" (الأهرام ١٩٨٣/٢/١٧).

كان رفض الشبان المصريين الانخراط فى جندية محمد على مبعثه، إذن، هو الأساس الذى قامت عليه تلك الجندية، والمنطلق الذى كانت تصدر عنه، لقد كان جيش الوالى وليس جيش مصر، يحقق للوالى ذيوع الاسم فى حروب خارجية، فى جزيرة العرب والسودان واليونان والشام وتركيا، دون نتائج إيجابية - أو حتى مجرد توقع لهذه النتائج - وعلى العكس، كانت سلبية تماماً، وبلغت ذروتها بتحطم العسكرية المصرية فى موقعة نافارين.

٭٭٭

شاهدت - منذ أعوام بعيدة - فيلماً بطله الممثل الأمريكى فيكتور ماتيور، يقوم فيه بدور مناضل فرنسى، استطاع أن يقود رفاقه إلى انتصارات باهرة ضد قوات الاحتلال النازى، لكن خائناً تسلل إلى مجموعة الرفاق، استطاع أن يشى بمواقعهم وتحركاتهم إلى قوات الاحتلال، فأضعفتهم إلى حد كبير، فلما تبين الرفاق - متأخراً - هوية الخائن، فوجئوا بأنه هو القائد لا سواه، أما كيف تحول من الوطنية إلى الخيانة، باع وطنه بعد أن نذر حياته له، فلأن الرفاق

وجهوا إلى أمه - دون أن يعرف، ويعرفوا هم بالتالى، أن المرأة هى أمه - تهمة الخيانة، وعاقبوها بجز شعر الرأس، وتخلى القائد - بتأثير الإشفاق والمفاجأة - عن كل مشاعر الوطنية، وباع لقوات الاحتلال حتى أقرب أعوانه.

الخيانة مرفوضة إطلاقاً، أياً تكن الاعتبارات والبواعث، وقد أردت بهذا المثل الدرامى أن أدلل فحسب على الشعور بالصدمة فى مواجهة الواقع، والإحساس بالغربة، وعدم الانتماء، وما يحدثه ذلك كله من تغير سلبى قد يتجه إلى النقيض.

قلت لنجيب محفوظ مداعباً، وأنا أناقشه فى شخصية سعيد مهران بطل رواية "اللص والكلاب":

- الأب جاك جوميه (المستشرق الفرنسى المعروف) أبدى استعداده للدفاع عن سعيد مهران..

قال محفوظ فى بساطة وصدق:

- كل من يسقط - فى زماننا الحالى - يجب أن نعتبره شهيداً!..

والمعنى - بالطبع - واضح، ثمة عشرات الضغوط وعوامل القهر والمغريات، تتضافر داخل النفس البشرية، فتتهدم قيم ومثل وموروثات، ويحل - بدلاً منها - ذلك الاستعداد للسقوط، أو الشهادة على حد تعبير نجيب محفوظ!

ولعله ينبغى التوقف هنا أمام بديهية - هكذا أتصورها - كانت نبضاً لروايتى "الأسوار"، إن المناضل يجب ألا ينتظر مقابلاً لتضحيته.

ذلك ما فعله كل الرجال المشاعل فى حياة الشعوب، بدءاً بالمسيح، وانتهاء بذلك الذى يقذف دورية لجنود الاحتلال بقنبلة يدوية، ويختفى فى زحام الناس، مروراً بالحسين والحلاج وجيفارا والليندى وغاندى ومحمد فريد وعبدالناصر والأستاذ - بطل الأسوار - وعشرات غيرهم، قتلهم هؤلاء الذين خرجوا للدفاع عنهم، المحبوب - لأنه يجهل، أو للخوف من القهر الآنى والبطش المتوقع - تعنيه اللحظة مقطوعة الصلة بما مضى وما سيأتى، والمحب يشقيه الماضى والحاضر والمستقبل فى آن معاً.

لكن المحب هنا حالة استثنائية، إنه مناضل وطنى يعى القضية، ويدرك مغزى التضحية التى هو مقدم عليها، ويدرك كذلك فداحة المقابل الذى يهبه له

مواطنوه، لكن الشاب حديث التخرج الذى تسحقه الضغوط الاقتصادية، ممثلة فى عدم قدرته على تلبية الاحتياجات الضرورية، فضلاً على احتياجات أسرته (وأتذكر سناء بطلة رواية يوسف إدريس "العيب")، أو الشاب الذى يلح عليه احتياجه الجنسى - وأقدّره احتياجاً طبيعياً مثل الاحتياج إلى الحرية والطعام والنوم - أو الشاب الذى تطالعه مغريات ربما لا تقوى على ردها النفس الإنسانية.. هؤلاء جميعاً يفقدون - ببطء أو بدونه - تلك الحالة الشعورية التى تنعكس على آرائنا وتصرفاتنا ومواقفنا، والتى نسميها الانتماء.

الأغنية التى تقول: يا عزيز عينى، وانا بدى أروح بلدى.. بلدى يا بلدى والغربة أخدت ولدى.. تلك الأغنية كانت تعنى الشاب المصرى الذى تأخذه قوات الاحتلال البريطانى - أعوام الحرب العالمية الأولى - إلى سيناء، ليحارب ضد قوات الأتراك، وكلاهما - البريطانيون والأتراك - مستعمر.

وكان الحرص على الفرار من الجندية - كما أشرنا - إلى حد تشويه الجسد كقطع الإصبع، أو فقء العين - هو تصرف الشاب المصرى إلى مطالع الخمسينيات، لاعتبارات عدة، من بينها: نظام "البدلية" الذى كان يقصر الالتحاق بالجيش على أبناء الفقراء، فيعانون التصور أنهم يحاربون دفاعاً عن الآخرين.. ونظام المراسلة الذى كان وضع الجندى فيه أقرب إلى وضع الخادم.. وثالث الأسباب أن الجندى المصرى كان يحارب فى مناطق ليست من وطنه، ودفاعاً عن قضايا لم تكن تعنيه على أى نحو، ومن ذكريات جمال عبدالناصر فى حرب فلسطين (١٩٤٨) أنه التقى بجندى هارب من ميدان القتال، وسأله عبدالناصر: لماذا تفر من المعركة؟.. قال الجندى فى خوف وبساطة: أنا هنا لا أحارب دفاعاً عن وطنى!.. فلما تأكدت أشياء، من بينها تساوى انضمام الشبان إلى القوات المسلحة، واحتوائها آلاف الخبرات الجامعية والمهنية والحرفية، وتحول القوات المسلحة إلى مؤسسة عسكرية متكاملة، ثم تنامى الوعى القومى فى مصر، وأن الدفاع عن فلسطين، أو أى قطر عربى، إنما هو دفاع عن مصر التى تنتمى إلى هذا الوطن.. لما تأكد ذلك - وغيره - فقدت الأغنية الشهيرة دلالاتها، وبذل الشباب حياتهم دفاعاً عن سيناء وفلسطين وأقطار عربية أخرى، لأن الدافع - وهو الانتماء - كان فى نفوسهم واضحاً ومحركاً.

☆☆☆

المثل الأعلى سبيل مهم إلى الانتماء، والظاهرة الاجتماعية الواضحة، إن

المجتمع الذى يبرز موهوبين فى مجال ما، يبرز بالتالى تلاميذ فى مجال الموهبة نفسه، ويتحول هذا العشق، أو الموهبة، إلى خاصية فى تكوين المواطن عموماً، والبرازيل التى أنجبت بيليه وجارينشيا وزيكو، هى البرازيل التى يملأ ملاعبها عشرات المواهب فى كرة القدم، والعقلية العلمية التى يتسم بها الشعب الألمانى، أصبحت تعبيراً عن الحياة الألمانية، والدأب وحب العمل والابتكار صفة لمجموع الشعب اليابانى..

المثل الأعلى إذن هو ما يبحث عن الشباب فى طريق الانتماء إلى الوطن، والمثل - غالباً - يتحدد فى الشخصيات البارزة فى مجالات الحياة المختلفة، بدءاً بالزعيم السياسى، وانتهاء بلاعب الكرة، مروراً بالباحث والطبيب والأستاذ الجامعى والأديب والشاعر والفنان التشكيلى والممثل.. إلخ.

المثل الشعبى يتحدث عن الذى لا يعجبه العجب ولا الصيام فى رجب، نادراً ما تجد شخصية ترقى إلى مستوى المثل الأعلى.

وفى المقابل، فإن النماذج الهشة، ما بين وصولية وانتهازية وساعية إلى الكسب الحرام، تعطى المثل المناقض، فيبدو المثل الأعلى غائباً ومفتقداً.

المثل الأعلى الذى ينتظره الشباب - فى هذا الزمن - يجب أن تتوافر فيه خصائص، هى التى يحتاج إليها الشباب فعلاً: الانتصار على عوامل السلبية والإحباط والتشاؤم، والبعد عن المغريات، وقياس جهد الإنسان بما يضيف إلى مجتمعه، لا بما يستلبه من هذا المجتمع، إلخ.

هذا هو المثل الأعلى كما ينبغى أن تكون صورته، وقد عانى تاريخنا - المعاصر تحديداً - من تشويه متعمد، أساء إلى قيم ورجال، فغاب الهدف النبيل عن غالبية الذين خرجوا فى اتجاه هذا الهدف، بينما يغيب المثل تماماً فى النماذج الهشة والمتكالبة.

☆☆☆

أخيراً، فإن الشعور بالانتماء لن يتحقق إلا إذا تواءم الشعار مع التطبيق فى حياتنا، يتوافر المثل والقدوة، يشعر المواطن بأن ما يجرى عليه يجرى على غيره، المثل يقول: المساواة فى الظلم عدل، فما بالنا بالمساواة فى العدل؟..

الأهم أن يشعر المصرى أن مصر هى مصره، بلاده التى ينتمى إليها، وأن الآخرين ينتمون إليها، وينتمون إليه، يشعر بأن الذى يتعامل معه هو مواطن مثله، وأن تعود تلك المشاعر القديمة التى كادت تضيع: التكافل والمشاركة والإحساس بالآخرين.

العباءة..

بدلاً من نجمة داود!

"إذا انضاف الضعيف إلى الضعيف، ازداد الضعف"

الإمام القشيرى

التعريف المعاصر يقول: إن سقوط الإذاعة معناه سقوط الدولة، والمقصود أن من يصل إلى مبنى الإذاعة، ويقف أمام الميكروفون، ويعلن البيان رقم واحد، يستطيع أن يستولى على الحكم!..

والقول يعكس خطورة الإعلام فى عالمنا المعاصر.

وثمة قول مشهور: إن طلقة البندقية قد تقتل فرداً واحداً، وانفجار قنبلة نووية يقتل الآلاف، لكن الكلمة الواحدة ربما تقتل الملايين..

وبالطبع، فإن وسائل الإعلام هى التى تنقل هذه الكلمة إلى كل ركن فى هذا العالم، إن أجهزة الإعلام تتسلل إلى عقل المتلقى ووجدانه، وهو فى حالة استرخاء داخل بيته، أو وهو يقود سيارته، أو وهو داخل طائرة تحلق به على ارتفاع آلاف الأقدام.

الإعلام من أخطر الأسلحة فى عالم اليوم، وعادة فإن الدول المتقدمة هى التى تجيد استخدامه، بينما يظل بالنسبة للدول النامية أشبه بالسيف الخشبى، لا يخيف ولا يؤثر، مصادر الإعلام تتركز فى الدول الصناعية، المتقدمة، والمثل الأوضح فى استهلاك الفرد سنوياً من ورق الصحف، فهو يبلغ نحو ٦ كيلو جرامات بالنسبة للمواطن الأمريكى، بينما لا يزيد استهلاك

المواطن الإفريقى على ١,٧ كجم، وعدد أجهزة التليفزيون فى الدول المتقدمة يكاد يصل إلى عدد الأسر، ولا يصل - فى الدول النامية - إلا إلى أقل من ١٠٪ من الأسر، فضلاً على اقتصار البث التليفزيونى على مناطق محدودة ومحددة داخل المدن، فى حين لا يشاهد برامج التليفزيون سوى أعداد قليلة للغاية من سكان المناطق الريفية.

اللافت أن النظام الإعلامى القائم فى الدول الصناعية يلتزم الصمت فى قضايا العالم الثالث، بخاصة قضايا السعى لاستكمال الاستقلال، والتخلص من التبعية، وتحقيق التنمية، فضلاً عن تعمد الإعلام الغربى إلحاق تشوهات فى صورة الحياة بالدول النامية، من خلال أنباء غير حقيقية ومكذوبة فى وسائل الإعلام الغربية، وأخيراً، ما يشنه من حملات متوالية من الدعاية الثقافية المضادة التى تستهدف تخريب قيم المجتمعات النامية، أما إذا أفرد الإعلام الغربى بعض مساحته لإنجازات بلدان فى العالم الثالث، فإن ذلك يكون - فى الأغلب - كمادة إعلانية تصدر فى أعداد خاصة، أو برامج خاصة، يتقاضى مقابلاً لها مبالغ باهظة.

وقد أجرت منظمة اليونسكو دراسة عن التوازن الإعلامى فى مجالات الثقافة، أثبتت أن معظم الدول النامية التى توجد بها محطات تليفزيونية، تستورد أكثر من نصف البرامج التى تعرضها، وأن ٧٥ ٪ من جملة البرامج التى تحتكر تصدير المواد التليفزيونية، فهى - على التوالى - الولايات المتحدة، ثم بريطانيا وفرنسا وألمانيا (الاتحادية سابقا!)، ويقول البروفسور الأمريكى هربرت شيللر: إن صناع القرار السياسى فى الغرب - والولايات المتحدة على نحو خاص - حاولوا الإفادة من التطور الهائل الذى حققته التكنولوجيا فى بلادهم، بما فيها نظم الأقمار الصناعية وشبكات الكمبيوتر، فلجأوا إليها لبث كميات هائلة من الأخبار والمعلومات والمواد الموجهة عبر دوائر عابرة للقارات، وبعيدة عن تدخل الرقابة الوطنية للدول المختلفة، بما يعنيه ذلك من تأثيرات سلبية على مواطنى تلك الدول..

التدفق الإعلامى يتجه فى طريق واحدة، من أعلى إلى أسفل، من الشمال إلى الجنوب، من الدول المتقدمة إلى الدول المتخلفة، وهذا التدفق يتمثل فى المعلومات والأخبار والبرامج الإعلامية والثقافية والترفيهية. وهذا التدفق

الإعلامى يتحول ـ أحياناً ـ بالتعاون مع الشركات المتعددة الجنسيات ـ إلى أدوات للسيطرة على الرأى العام فى الدول النامية، بل والتدخل فى الشئون الداخلية لحكومات تلك الدول، ومحاولة تعويق سياساتها الإنمائية، وتخريب ثقافاتها القومية.

ومع أن العالم الثالث ـ أو النامى ـ يضم ثلاثة أرباع سكان العالم، فإنه لا يملك سوى نصف مجموع الصحف، وربع مجموع التوزيع فى العالم، ولأن معظم الدول النامية تعجز عن توفير شبكة المراسلين الواسعة والقوية، فى كل أنحاء العالم، لأنها تضطر إلى الاشتراك فى وكالات الأنباء الغربية للحصول على المعلومات والأنباء من كل أنحاء العالم.

لذلك فإن ٨٠ ٪ من الأنباء العالمية تتلقاها دول العالم الثالث من وكالات الأنباء الغربية التى تقع مراكزها فى نيويورك ولندن وباريس، مثل رويتر والفرنسية وأسوشيتد برس ويونايتد برس وغيرها..

لقد أفاد الإعلام من إنجازات العلم والتكنولوجيا فى بث المعلومات حالاً على مستوى العالم كله، وإن كانت المشكلة هى سيطرة الدول المتقدمة على دورة المعلومات بما تملكه من أقمار صناعية ووكالات أنباء وشبكات إذاعية وتليفزيونية وأفلام وصحف ومطبوعات وبنوك معلومات ومؤسسات للإعلان، فضلاً عن الشركات المتعددة الجنسيات التى يصعب إغفال دورها فى مساندة الإعلام الغربى بما يحقق له التفوق دوماً، ونشأ من ذلك حدوث غزو متجدد من وسائل الإعلام الغربية لدول العالم الثالث بواسطة الصحف والإذاعات وبرامج التليفزيون، بلغ ـ فى قول ـ حد انتهاك الأراضى الوطنية والمساكن الخاصة، بما يدعو إلى مواجهته بكل الوسائل الممكنة، تحولت حرية الإعلام إلى حرية المسيطرين على الإعلام، أو المتحكمين فى وسائل الإعلام. وللتدليل على مدى سيطرة الإعلام الغربى، فلعله يكفى الإشارة إلى أن الوكالات الدولية الخمس الكبرى تمتلك معاً أكثر من ٥٠٠ مكتب، ويعمل بها ـ كمراسلين فى معظم بلدان العالم ـ نحو ٤٥٠٠ موظف، وتصدر كل منها يومياً ما يصل إلى ١٧ مليون كلمة فى المتوسط.

إن امتلاك وسائل الإعلام متاح لمن يمتلكون رأس المال، لذلك فإن كبار الاقتصاديين فى الغرب ـ ومعظمهم للأسف من غلاة الصهيونيين ـ هم

أصحاب شبكات التليفزيون والإذاعة والصحف ومؤسسات السينما ودور النشر، وكل ما يتصل بصناعة الإعلام..

واللافت فى ما يطالعنا فى التحرك الإعلامى الغربى أن مضمون الرسائل الإعلامية التى تبثها وسائل الإعلام الغربية إلى الدول النامية، قد تهم المواطن الغربى، لكنها لا تعنى المواطن فى العالم الثالث فى قليل ولا كثير، وعلى سبيل المثال، فإن الاحتفال بذكرى المغنى الأمريكى الفيس بريسلى، أو ممثلة الإثارة مارلين مونرو، قد يهم المواطن الأمريكى باعتبار أن الفنانين من نجوم بلاده، لكنه لا يمثل الأهمية نفسها بين مواطنى دول العالم الثالث، مع ذلك، فإن وسائل الإعلام تتلقف البرامج التى يبثها الإعلام الغربى فى مناسبة ذكرى الفيس ومارلين، وتخصص لهما مساحات واسعة، قد لا تخصصها لذكرى النجوم القوميين. ولا تقتصر حرب الإعلام ـ أليست حرباً؟! ـ على ذلك التدفق الإعلامى من الدول المتقدمة إلى الدول النامية، فهى تتجاوزه إلى اختزال التغطية الإعلامية لأحداث العالم الثالث، بل ومحاولة تشويهها، والتركيز على الجوانب السلبية كالانقلابات والأزمات الاقتصادية أو الاجتماعية والجرائم، فى حين تهمل الجوانب الإيجابية إطلاقاً.

وبالمناسبة، فقد شكا مراسل إحدى الصحف الهندية فى الولايات المتحدة من أن بلاده لها ثقلها الذى يصعب إهماله فى الساحة الدولية، لكن وسائل الإعلام الأمريكية لا تتحدث عن الهند إلا باعتبارها بلاد المهراجا والقصور والطاووس وأفعى الكوبرا..

☆☆☆

إذا كانت الحركة الصهيونية قد مارست تأثيرها فى المجتمعات الأوروبية، منذ الحرب العالمية الثانية، بدعوى الاضطهاد النازى، مع أن الحقيقة التاريخية تؤكد أن العنف الهتلرى لم يكن مقصوراً على اليهود وحدهم، بل ورغم ما أشار إليه جون كيمشى فى كتابه "الطرق السرية" عن وجود اتصالات ذات طبيعة خاصة، بين عدد من كبار المسئولين النازيين، وبين زعماء الوكالة اليهودية آنذاك، وفى مقدمتهم حاييم وايزمان وبن جوريون وناحوم جولد مان وليفى أشكول وجولدا مائير، بالإضافة إلى ما أسفرت عنه محاكمات إيخمان من تأكيد تلك العلاقة الخاصة منذ ظهور النازية إلى

اندحارها، إذا كانت الحركة الصهيونية قد حصلت على مكاسب سياسية واقتصادية - فى أوروبا الغربية بالذات، وفى ألمانيا الغربية (سابقا) على وجه التحديد - فوق أرض الاضطهاد النازى، والتى أجادت الحركة الصهيونية التحرك عليها. وكان من نتائجها المباشرة تعويضات المستشار الألمانى الأسبق أديناور لإسرائيل، مقابلاً لما عاناه يهود ألمانيا الهتلرية من دمار جسدى واقتصادى..

أقول: إذا كان الاضطهاد النازى هو "الحقيقة" التى لا تمل الصهيونية العالمية تأكيدها منذ أواخر الثلاثينيات، متمثلة فى آلاف الكتب والمقالات والروايات والصور، وفى اختلاق عقدة الاضطهاد التى يعانيها الشعب اليهودى(!) مثل رسم الصليب المعقوف - شعار ألمانيا النازية - على حوائط المعابد اليهودية فى بعض مدن أوروبا من قبل المنظمات الصهيونية، فإن النازية - بكل وسائلها وأساليبها - هى المثل الأعلى للحركة الصهيونية، ربما تمثّلاً لنظرية علم النفس التى تذهب إلى أن "التوحد بالمعتدى حيلة لا شعورية تصطنع للتغلب على الخوف من المعتدى".

ولعلنا نجد تأكيداً لذلك المعنى فى قول المحلل النفسى اليهودى برونو بتلهايم، تعبيراً عن تجربته الشخصية فى معسكرات اعتقال النازى، إن السجين يكون قد وصل بالفعل إلى أقصى مراحل التوافق مع موقف المعسكر، حين يغير من شخصيته، فثمة - فى المجال العسكرى - إهمال لكل قوانين الحرب، بدءاً باستخدام الأسلحة المحرمة دولياً، وانتهاء برفض تطبيق اتفاقيات جنيف لحماية المدنيين أثناء سير العمليات الحربية، ثم - فى المجال السياسى - ارتباط بالقوى الإمبريالية فى العالم، وهو ما يتضح فى أن الدولتين اللتين تعلنان مساندتهما الإيجابية للكيان الصهيونى هما: الولايات المتحدة الأمريكية وجنوب إفريقيا (قبل تولى العناصر الوطنية حكمها).

أما فى المجال الإعلامى، فستطول - بعض الشىء - وقفتنا: لقد تنبه مخططو الصهيونية العالمية منذ ١٨٩٧ إلى أهمية الجانب الدعائى والإعلامى، فأنشأوا مكتباً للتوجيه المركزى، يكون بمثابة حلقة اتصال بين رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ووحداتها المختلفة، ولم تتخل المنظمة الصهيونية، فى كل الظروف، عن الجوانب النفسية المرتبطة بالإثارة والتوجيه،

وكان تكوين إدارة عسكرية نفسية خاصة، وظيفتها الاحتفاظ بحالة من الذعر على أسس علمية فى الأرض المحتلة، هو ما حرصت عليه "دولة" إسرائيل عند قيامها فى العام ١٩٤٨.

ومن الواضح أن الأسلوب النازى كان هو الأبعاد التى يتحرك من خلالها إعلام الدولة الصهيونية منذ قيامها.. فالنظرة الهتلرية - أو الجوبلزية - تقوم على أفكار فرويد التى ترى فى الإنسان مجموعة من النقائص والعقد، ومن ثم فهى تحاول أن تتسلل إلى نفسية المرء الذى يعانى تلك العقد والنقائص فى عمليات تضخيم وتشويه للعقد الكامنة، من خلال تهويلات تغيب عنها الحقائق تماماً، وربما يرفضها العقل البسيط إذا أمعن التفكير فيها، والهدف - بالطبع - هو إحداث استجابة للموقف الذى سعت إليه العملية الإعلامية والدعائية.

لقد أدركت الصهيونية العالمية أهمية الإعلام، وخطورة الدور الذى يمكن أن يؤديه فى الرأى العام العالمى.

وكما ترى، فإن أهم مؤسسات الإعلام العالمية فى أيدى اليهود، يحاولون من خلالها إحياء صورة اليهودى المضطهد، صاحب الحقوق التاريخية، والذى عانى الحرق فى أفران الغاز الهتلرى، ويحيا الآن فى جزيرة محاطة بالأعداء الذين يريدون إلقاءه فى البحر، وهم أعداء لا يمثلون إنجازاً حضارياً من أى نوع، لكنهم يحيون على استهلاك ما ينتجه العالم المتقدم من وسائل الحياة المعاصرة، دون أن يسهموا - إلا بما حبتهم به الطبيعة من مواد خام - فى تقديم إضافة من أى نوع للجنس البشرى.

واللافت أن نسبة اليهود لا تزيد على ٢٪ من مجموع الشعب الفرنسى، لكنهم أجادوا السيطرة على أجهزة الإعلام والسينما ودور النشر، فهم يبيحون ما يخدم وجهة النظر الصهيونية، ويمنعون وجهات النظر الأخرى من أن تصل إلى الرأى العام.

اليهودى فى الأفلام وبرامج الإذاعة والتليفزيون والصحف والمطبوعات هو الجنس المثالى، بعكس الجنس العربى الذى تشوّه ملامحه بصورة قاسية، فليس فى حياته إلا تسلم ما تدرّه عليه أرضه من عوائد النفط - وهو ما تحققه له شركات أجنبية!- وإنفاقه فى مظاهر إسرافية متعددة، إن النظرة

إلى العربى - حتى الآن - أنه برميل بترول متحرك، وصورة العربى فى وسائل الإعلام الأمريكية هى رجل بترول ثرى، يرتدى الدشداشة والعقال، ويجد نفسه على موائد القمار، ويتقدم - فى كل مدينة يصل إليها - طابوراً من الحريم قوامه الزوجات والجوارى!

وقد أصدر الكاتب الصهيونى هارولد لابنز رواية بعنوان "القرصان"، والقرصان هو العربى الذى يحاول السيطرة على اقتصاد العالم ومقدراته، والرواية جزء من الحملة الشرسة التى تشنها الصهيونية العالمية ضد العرب، وهى واحدة من الأعمال الروائية الكثيرة التى تمتلئ بها المكتبات الأوروبية والأمريكية، تحاول تشويه صورة العربى فى نفسية المواطن الغربى.

وفى أعقاب الحصار النفطى الذى فرضته الدول العربية فى العام ١٩٧٣ - وهو حصار أفادت منه الدول المتقدمة - رسم الإعلام الغربى للعربى صورة نمطية تتمثل فى عربى يركب جملاً، ويمسك بذراع مضخة بنزين، بدلاً من مقود الجمل، والمعنى هو أن البدو الهمج يسيطرون على الموارد النفطية، ويهددون - بغبائهم وتعسفهم - ما بلغه الغرب من تطور.

اغتظت من تلك السعادة الغامرة التى قابلنا بها اعتراف الغرب بأديب عربى هو نجيب محفوظ، وهو الاعتراف المتمثل فى منحه جائزة نوبل، إنها عقدة نقص وعدم ثقة فى النفس، نحن جزء من هذا العالم، وثقافتنا جزء من ثقافات العالم، أضافت إليه بما اعترف به مفكرو الغرب ومبدعوه، والغرب - حتى بصورته المتقدمة الآنية - ليس كل العالم.

والملاحظ أن الغرب ينكر أى دور للثقافات العربية - الفرعونية والبابلية والأشورية وغيرها - فى صياغة الثقافات العالمية، ثمة زعم أن عصر النهضة الأوروبى يجد بدايته فى ثقافة وعلم اليونان والرومان، مع أن الثابت - تاريخياً - وهذا مجرد مثال - أن الثقافة الإغريقية تأثرت بالثقافة المصرية القديمة إلى درجة السطو (أرجو أن تقرأ كتاباً متفرداً فى هذا المجال هو "أثينا السوداء" الذى صدر عن المجلس الأعلى للثقافة) .

وحتى الآن، فإن صورة العربى فى وسائل الإعلام الأمريكية - كما يصفها إدوارد سعيد فى كتابه المهم عن "الاستشراق" - هى الدشداشة والنظارتان السوداوان، والأنف المعقوف، والشهوة، والشراهة، والثروة - غير المستحقة! -

التى تمثل إهانة للحضارة الحقيقية، وركوب الجمال، والإرهاب، فضلاً عن التسلح بقنبلة يدوية أو كلاشنكوف، والهذر بكلام غير مفهوم، لكنه يحمل لهجة التهديد.

أما صورة العربى فى السينما الأمريكية، فهى الشرير، واللص، والإرهابى، والشهوانى، والشحاذ، والجاسوس، والمتآمر، والقاتل، وصفات أخرى كثيرة.

وحين دخلت الكاتبة الفلسطينية مروة جبر مستشفى تل هاموشومير بتل أبيب، للعلاج من إصابة ألحقتها بها العصابات الصهيونية، أبدت الممرضة دهشتها أن تكون مروة عربية، فالعرب ـ كما تعلم ـ قذرون، يلبسون الأثواب الطويلة، ويضعون على وجوههم البراقع، لا يغتسلون، وشعرهم ملىء بالحشرات، إنهم يعيشون على هامش الحياة، وتخلفهم لا رجعة فيه عن المسار الإنسانى المعاصر (يهمل الإعلام الغربى بديهية أن التخلف الذى تعانيه معظم دول آسيا وإفريقيا من تأثيرات الاستعمارين التركى والأوروبى!)

وثمة حرص من بعض الملاهى الليلية وأندية القمار فى أوروبا ـ بريطانيا تحديداً ـ على التسمى باسم "مكة"، وعلى إطلاق أسماء مثل زنوبة وخدوجة على الشباشب البلاستيكية، بل إن السؤال المحير: كيف تبلغ المازوشية بشعبنا العربى الطيب حد الإصرار على شراء احتياجاته من محلات "سبنسر" التى لا تكتفى بوضع لافتة على واجهاتها تقول: "هذا المتجر يؤيد دولة إسرائيل"، وإنما تلفق الاتهامات بالسرقة لزوارها من العرب، وأن عدسات الدائرة التليفزيونية المغلقة أفلحت فى تصويرهم متلبسين.

وأذكر أنى شاهدت فى دار سينما بنواكشوط فيلماً للممثل الكوميدى الفرنسى لويس دى فينيس، يتناول حياة مجموعة من العرب المسلمين، أذهلنى أن صلاتهم لم تكن هى الصلاة التى نعرفها، الصلاة التى نؤديها خمس مرات كل يوم، إنما هى صلاة أخرى أقرب إلى عبادة الأوثان، وبالطبع فإن من يقدم فيلماً عن العرب المسلمين كان بوسعه أن يفيد فى "المعلومة" من العرب المسلمين المقيمين فى فرنسا، والذين يشكلون جاليات كثيرة العدد من الجزائريين والتونسيين والمغاربة!.

وفى ١٩٨٣ فسّرت إحدى الموسوعات الأمريكية كلمة "عربى" على أنها: المتشرد، المنحرف، المتسكع، المتسول، الغبى، الفوضوى، وصورة العربى ـ فى

تعبيرات وردت فى أحد استفتاءات الرأى الأمريكية ـ: همجى، متوحش، مولع بالحرب والقتال، واسع الثراء، مستعبد للنساء، وذكرت مدرسة أمريكية أن العربى هو "ماجو" الشخصية الشريرة فى مسلسل كرتونى مستوحى من ألف ليلة وليلة.

العربى ـ فى استفتاءات أخرى ـ يعنى الثروة الهائلة، والتطرف الدينى، والهوس الجنسى، والولع بالرقيق الأبيض، والعرب عموماً "مجموعة من البدو الرحل الشرسين المشرّبين بالروح العدوانية".

وبالتأكيد، فإن ذلك ليس كذلك، لكن بعض التصرفات الفردية تمليها السذاجة أو الميول الاستعراضية، تؤكد تلك الادعاءات، وتضعها فى إطار الحقيقة.

لقد ذوت، وتلاشت، تلك الإدانات والصور الشوهاء التى كان يتعرف من خلالها المواطن الغربى إلى صورة اليابانى الشرير، والهندى الأحمر ذى الطبيعة المتوحشة، والإيطالى المنغمس إلى أذنيه فى أنشطة المافيا، والجنوبى قاطع الطريق.. ذوت كل تلك الصور وتلاشت، فلم يعد إلا صورة العربى بنفس الملامح البغيضة القديمة، وربما ازدادت تلك الملامح بشاعة وقبحاً، أصبحت تماثل صورة اليهودى كما كانت تجيد رسمه فى أعوام ما قبل الحرب العالمية الثانية.

كانت صورة اليهودى فى المجتمعات الغربية هى شخصية شايلوك فى مسرحية شكسبير "تاجر البندقية"، ثم تغيرت تلك الصورة فى أعقاب الحرب بتأثير الإعلام الصهيونى، احترقت تلك الصور تماماً ـ كما يقول جاك شاهين ـ فى أتون المحارق النازية، ثم حلت ـ بدلاً منها ـ صورة العربى ذى الدشداشة والعقال، والذى يمتلك بئر بترول، وذهناً لا يشغله سوى النساء والخمر، وعادت العباءة بدلاً من نجمة داود، والكوفية العربية بدلاً من القلنسوة اليهودية، والتعصب ضد الشعب السامى العربى، بدلاً من الشعب السامى اليهودى، وكما يقول صديقى الأستاذ الجامعى رمسيس عوض، فبعد أن كان الأوروبيون يتوارثون العداء لليهود، أصبح العربى فى نظرهم هو اليهودى الجديد (رباعيات الشذوذ والإبداع ـ سينا للنشر ـ ٨٧).

☆☆☆

أحاول ألا يجرنى التحمس إلى كلمات ربما اتسمت بالانفعال، أو اتجهت إلى الشعارات، وإن كنت أطرح بعض الأسئلة التى أعترف أنى لم أوفق فى الإجابة عليها: إن المكسيك وبريطانيا دولتان غير منتسبتين إلى منظمة الأوبك، وإن أنتجتا من النفط أكثر مما أنتجته المملكة العربية السعودية، والعرب يمثلون سبعة أعضاء من بين ١٣ عضواً فى منظمة الأوبك، فلماذا التأكيد فى الإعلام الغربى على عروبة المنظمة؟.. ولماذا تباع العقارات والمصانع والمؤسسات إلى أفراد أجانب وهيئات أجنبية، فلا يشغل ذلك من اهتمام الرأى العام قليلاً ولا كثيراً، فإذا كان المشترى مواطناً عربياً، أو هيئة عربية، قامت الدنيا ولم تقعد، وثارت الظنون والشكوك والأقاويل حول الأهداف البعيدة والقريبة والمخططات التى تستهدف الاستقلال الوطنى؟ ولماذا الاستثمارات اليابانية والكندية والألمانية والسويسرية تجد سبيلها فى دروب الاقتصاد الأمريكى، بينما الاستثمارات العربية تعانى النظرة المتوحشة، والتنبه لخطورتها الدائمة، والمتجددة؟.. ولماذا صورة العرب هى بدلة الرقص الشرقى والحجاب والكوفية والفم الأشدق والعباءة والبلاهة والهمجية والنظارة السوداء وبئر البترول والجمل والسيارة الفارهة ومواكب الحريم؟..

مع ذلك، فإن العرب يودعون فى بنوك الولايات المتحدة ثمن السلاح الذى يوجّه ـ فيما بعد ـ إلى صدورهم، تلك الأموال يعاد تصديرها من خلال القنوات المصرفية وأسواق المال العالمية، لتصب فى إسرائيل أحياناً، ولتدعم اقتصاديات الدول الرأسمالية المتقدمة أحياناً أخرى.

إن الغرب يتعامل مع المنطقة العربية من زاوية الاستغلال، وينظر إليها باستعلاء، وأنها "الآخرون"، وتكاسلنا، وتواكلنا يؤكد ـ للأسف ـ نظرة الغرب إلينا، وهى النظرة التى جسّدها الإعلام الصهيونى، وأننا مجموعات من المتخلفين، البرابرة، الجهلة، الذين يجب أن يغيبوا عن المسار الإنسانى.

☆☆☆

استطاع الإعلام الصهيونى أن يحقق بعض النجاحات النسبية فى نفسية المواطن العربى، باتباع الأسلوب النازى، ارتكازاً إلى بعض الهزائم التى فرضت على الشعب العربى دون أن يكون مسئولاً عن إيجادها.

ولعلى أشير إلى أحداث ١٩٦٧ التى استطاعت بعدها وسائل الإعلام

الصهيونيـة أن تقنع الشعب العربى ـ والمقاتل العربى ـ أنه قد خاض حرباً لمدة ستة أيام على كل الجبهات، مع عدو يقل عنه فى الإمكانات العلمية والتقنية، ويعبر عن حضارة متفوقة، وأن تلك الحرب قد انتهت بنصر حاسم للعدو الإسرائيلى، متمثلاً فى هزيمة ثلاثة جيوش عربية، واحتلال أراض عربية جديدة هى: سيناء والجولان والضفة الغربية والقدس الشرقية، رغم أن المقاتل العربى لم يتح له ـ حقيقة ـ أن يواجه العدو الذى هزمه!

وللأسف، فقد تقبلت النفسية العربية دعاوى الإعلام الصهيونى بحرب الإعلام الستة، وهى ـ فى الواقع ـ لم تكن حرباً بالمعنى المفهوم، ولم تستغرق أياماً ستة، ثم بجيش إسرائيل الذى لا يقهر، ثم باليد الممتدة الباطشة التى تستطيع إلحاق الدمار بأبعد مكان فى الأرض العربية، ثم بالتخلف الحضارى الذى لم يعد أمام الشعب العربى إلا أن يتغلب عليه، قياساً إلى التفوق الحضارى الإسرائيلى.

وحين أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها فى العام ١٩٧٥ بإدانة الحركة الصهيونية، أبانت الصهيونية عن مدى تغلغلها فى وسائل الإعلام العالمية، وسيطرتها عليها، فقد توالت البيانات والمقالات ـ والمظاهرات أيضاً ـ التى تستنكر القرار الدولى، وتعتبره مخالفاً للواقع، ومنافيا للأخلاق، ورافضاً للإنصاف والعدل، ومحرفاً للتاريخ، ومخرباً للمجتمع الإنسانى.. وضع ما شئت من علامات التعجب!

مع ذلك، فإن الدول العربية واجهت تلك الحملة الضارية ـ رداً على قرار الأمم المتحدة ـ بصمت غير حكيم، فلم نقرأ بياناً ولا مقالاً ولا تحقيقاً يتناول قرار الجمعية العامة، ويوضح أبعاده، ويشرح ما أسقطته الصهيونية فى حملتها المسعورة ضد العالم العربى، وأن القرار ـ كما قال بطرس غالى حينذاك، وقبل أن يغيره المنصب الدولى ـ ليس نتيجة مناورات دبلوماسية بقدر ما هو تصحيح من قبل المجتمع الدولى للّبس الذى أحاط بالحركة الصهيونية، وتوضيح الرؤية لأبعادها الاستعمارية.

أما عن ردود الأفعال العربية للمؤامرات الصهيونية التى تستهدف تصفية الوجود، فثمة ما يشبه اليقين عند ساسة إسرائيل وساسة الغرب فى آن، أن العرب مجرد ظاهرة صوتية، يرفضون، ويشجبون، ويسيّرون المظاهرات،

وتعلو أصواتهم بالتنديد والوعيد، لكن الصوت العالى يخفت بتوالى الأيام، وما كانوا قد رفضوا وجوده كمبدأ، يعترفون به كأمر واقع، لتعلو الأصوات بالرفض ـ فيما بعد ـ ضد هجمة صهيونية جديدة، تجاوز نتائجها الهجمات السابقة.

وأذكر أن السياسى الصهيونى أبا إيبان كتب قبل حرب ١٩٦٧ يعيب على العرب أنهم رفضوا التقسيم فى ١٩٤٧، ثم رفضوا التوسعات الصهيونية فى ١٩٤٨وما تلاها، وطالبوا فى ١٩٥٦ بما كان عليه الوضع فى ١٩٤٨، وتمنى أبا إيبان ـ ساخراً ـ ألا يطالب العرب فى ١٩٦٧ ـ حدد التاريخ! ـ بما كان عليه الوضع فى ١٩٥٦!

وعقب حريق المسجد الأقصى، ثار العرب بما لم يتوقعه الغرب، بدا أن رد الفعل لما حدث سيكون عنيفاً وباطشاً، وأعلن عدد من ساسة الغرب ـ وعدد من اقتصاديى الغرب أيضاً ـ عن تخوفهم من احتمالات ردود الأفعال المقبلة، لكن موشى ديان نصح بعدم الانزعاج، وقال إنه اعتاد هذا الصخب العربى، فهم ـ أى العرب ـ انفعاليون، ويثورون لكل سبب، لكنهم يعودون إلى الهدوء، بعد أن يفرغوا شحنات الانفعال، وصدق حدس موشى ديان للأسف!

٭٭٭

ماذا يفعل العرب؟..

الحق أن اللوبى الصهيونى ليس وحده صاحب التأثير فى المجتمع الأمريكى، ثمة لوبى يونانى وبولندى وأيرلندى ومجرى إلخ.. له تأثيره المؤكد على السياسة الخارجية الأمريكية، وعلى الرغم من الزيادة العددية للعرب فى الولايات المتحدة، فإنهم لا يشكلون ـ حتى الآن ـ قوة تأثير حقيقية تتساوى ـ فى الأقل ـ مع حجمهم العددى والكيفى.

جاوز العرب فى الولايات المتحدة المليونين، ووصلوا إلى مراكز متفوقة فى الكونجرس، وفى ميادين الاقتصاد والأعمال والجامعات والمراكز العلمية.. لكن مرض العرب المزمن، وهو التشرذم والخلافات الأيديولوجية والطائفية، جعل من "اللوبى" العربى أمنية مستحيلة، والأخطر أن الحكومات العربية تصدِّر خلافاتها إلى مواطنى المهجر، وتحاسبهم على مواقفهم تبعاً لتبدّل سياساتها.

وإذا كان الإعـلام يمثل للدول المتقدمـة أحد أهم أسلحتها، فإن على الدول النامية ـ والدول العربية من بينها ـ أن تجعل الإعلام كذلك أحد أهم أسلحتها، أن تدعم الإعلام المعاكس، وتطوره، مواجهة للإعلام الغربى.

وللأسف، فإن العالم الثالث يعتمد ـ إلى حد كبير ـ على التقدم الغربى، والصناعة الغربية، مثل بنوك المعلومات، والمصادر الإلكترونية للمعلومات المتخصصة، ووكالات الأنباء، وصناعة الورق، ومعدات الطباعة والتصوير، والمتوقع أن تبلغ قيمة الصناعات الإعلامية ـ فى مطلع القرن الحادى والعشرين ـ نسبة ٤٠ ٪ من مجموع الصناعات ومجموع الأنشطة الإعلامية، وتصل قيمة مجموع الأنشطة الإعلامية الأمريكية ـ تحديداً ـ إلى مالا يقل عن ١٥٠ مليار دولار.

النظام العالمى المطلوب للإعلام، يجب أن يساوى بين الدول المتقدمة والدول النامية فى مجال الإعلام، بحيث يحقق أكبر قدر من العدالة فى توازن المعلومات بما يحترم استقلال الدول وسيادتها على أراضيها، وعلى مقدراتها.

من حق أى بلد ـ مادام متمتعاً باستقلاله وإرادته الوطنية ـ أن يختار إعلامه، وفقاً لواقعه، وتعدد احتياجاته الخاصة، إنه عمل اجتماعى، يعبر عن ثقافة المجتمع ومفهوماته الحضارية، وإذا كانت الدولة لا تستطيع الادعاء باستقلالها، عندما تحتل أرضها قوات عسكرية أجنبية، فإنها لا تستطيع الادعاء باستقلالها، إذا كانت وسائلها الإعلامية تحت سيطرة أجنبية.

الصورة تشوبها ظلال داكنة، ونحن لا نستطيع أن نغيّر صورتنا فى عيون الآخرين، إلا إذا غيرنا هذه الصورة.

ولعلى لا أجاوز الحقيقة لو قلت إن صناعة الإعلام ـ فى الوطن العربى ـ معدومة أو تكاد، فهو يستورد ورق الصحف وأجهزة الراديو والفيديو والتليفزيون، ويستخدم الأقمار الصناعية للدول الأخرى، أو أنها تصنعها له، ويعتمد ـ بدرجة كبيرة ـ على وكالات الأنباء الأجنبية، ولنتذكر ما أعلنته أنديرا غاندى فى المؤتمر الوزارى لدول عدم الانحياز، الذى عقد بنيودلهى فى ١٩٧٦: "نحن نريد أن نسمع ما يقوله الإفريقيون عما يحدث فى إفريقيا، ونتمكن من شرح ما يدور فى الهند للهنود"..

ثقافتنا هي المعرفة

الثقافة شيء آخر

الثقافة هى ما يبقى بعد أن ننسى كل شىء

الفيلسوف الفرنسى هيريو

كلمة "الثقافة" مشتقة من فعل "ثقف"، ومعناه ظرف، وصار حاذقاً خفيفاً، ومنه تثقيف الرمح، بمعنى تسويتها، وإزالة عقدها، حتى تصبح مستوية وخفيفة، فالرمح المثقف هو الرمح السوى الخالى من العقد، وكلمة "المثقف" لم تعرف إلا فى العقد الثالث من القرن العشرين، وكان التعبير المقابل هو "المتعلم".

ولعل سلامة موسى هو أول من استخدم كلمة ثقافة، مرادفاً، أو ترجمة لكلمة Culshur الإنجليزية، وهى كلمة تعنى الحضارة، فالثقافة ـ حسب التعبير الذى استخدمه سلامة موسى ـ تعنى الحضارة، والثقافة فى الفرنسية Cuture ومعناها الحرفى "الزرع"، فهى التعليم الذى يغرس المعرفة فى النفوس، وثمة تعريف للثقافة بأنها "مجموع العالم الاجتماعى الذى يصنعه البشر".

أما الثقافة ـ بالمعنى الذى نستخدمه ـ فإن الكلمة المناسبة هى "المعرفة"، والمثقف بالتالى هو الذى يحيط بكل معارف عصره سواءٌ تبحّر فيها وتعمّق أم توقف عند حد ما، عندما تتجاوز الثقافة معنى المعرفة، فإنها تتحول من استاتيكية إلى دينامية، تغيّر، وتضيف، بل إنها تصل بالعلم والتقدم بوشائج شتى.

الحضارة تراكمات معرفية، وهى - فى تعريف جوردون تشايلد - ما يستخلصه الإنسان من غذائه، ومجتمعه الإنسانى، ونواحى السلوك الإنسانى المختلفة من لغة ودين وفلسفة وقانون وأخلاق، فضلاً عن أدوات الإنتاج التى يستخدمها "، والحضارة - فى تعريف آخر - "حصيلة من الذكريات، تعبر عن نفسها فى شكل نظم فكرية تكشف عن كنهها فى كل مظاهر الحياة اليومية، وفى حصيلة المعارف المتوارثة التى تحدد الممنوع والمرغوب فيه قولاً وفعلاً، وفى كل شكل من أشكال الإبداع التى تفهمها الجماعة، وتكتشف فيها أبعاد إدراكهم للمحدود فى حياتهم، واللامحدود فيما وراء أفقهم المحسوس" (نبيلة إبراهيم: المقومات الجمالية للتعبير الشعبى - ٥٨).

ومقابلاً لذلك، فإن مفهوم الثقافة - بمعناه الاجتماعى والعلمى - يختلف كثيراً عن معناه العام، فهو يعنى التراث الاجتماعى لمجتمع ما، ويتضمن كل ما يمكن تعلمه بواسطة العلاقات الإنسانية المتداخلة، كما يتضمن اللغة والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية وغيرها، وهو - فى أحد التعريفات - كل ما يكوّن الإنسان.

ولعلى أميل إلى قول ماركس - دون دعاوى أيديولوجية من جانبى! - أن الثقافة لا تنفصل عن الأوضاع التاريخية التى يبدع بها البشر حياتهم المادية، وأزيد بأن تعريفنا للثقافة يجب أن يكون متعلقاً بالكيف لا الكم، وكما يقول تايلور فإن الثقافة، أو الحضارة بمعناها الإثنوجرافى الواسع، هى ذلك الكل المركب، الذى يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف، وكل القدرات والعادات الأخرى التى يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو فى مجتمع.

من هنا، فإنى أفضل تجاوز تقسيم الثقافة إلى عناصر مادية، وعناصر غير مادية، وصولاً إلى تحديد الثقافة بأنها مجموعة من الفلسفات والعلوم والمعتقدات والقوانين والأعراف والمثل والتقاليد والأخلاق التى تتسم بها الشعوب، وذلك كله يرتبط بالسلوك، بأكثر من ارتباطه بمجرد التحصيل، بمجرد التعلم والمعرفة.

***

لنفرق - بداية - بين المعرفة، أو التعلم، وبين الثقافة، ربما أذكر بعض

المسمّيات أو المعانى التى ترفضها ثوابت المصطلحات، لكننى أتحدث عن قناعاتى الشخصية، عن الآراء التى تعبّر عن محصلة تأملاتى ومناقشاتى - بينى وبين نفسى، وبينى وبين ما أقرأه وأستمع إليه وأشاهده، المعرفة مصدر إلى الثقافة، قد نلجأ إليها، فنفيد منها، ونصبح مثقفين، وقد نلجأ إليها فلا نفيد منها، وتغيب فى سلوكياتنا، فيغيب مفهوم الثقافة بالتالى.

الثقافة ليست مجرد المعرفة، ليست مجرد زيادة حصيلة المعرفة، ولا مجرد إضافة أرفف جديدة من المعلومات فى داخل الذهن الإنسانى، لكنها إسهامات متجددة، ومطلوبة، فى تحقيق التفاعل بين المرء والعالم الذى يحيا فيه، وفى تعميق رؤيته الأكثر اتساعاً للأفراد، وللجماعة التى ينتسب إليها، وللعالم، المعرفة لا قيمة لها ما لم يستتبعها محاولات لتطبيقها فى الحياة اليومية، فى إحداث مراجعة للوعى والنظرة، وكما يقول ابن المقفع، فإن صاحب العلم يلزمه القيام بالعمل لينتفع به، وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى عالماً، ولو أن رجلاً كان عالماً بطريق مخوف ثم سلكه على علم به، يسمى جاهلاً.

القول إن المرء حصيلة ثقافته يحتاج إلى مراجعة، الأدق أن المرء حصيلة معرفته، وهى معرفة تشمل كل ما قرأه، واستمع إليه، وشاهده، واختبره، لذلك فإن القول - مثلاً - إن ثقافتنا مصدرها الثقافة الغربية، فالمثقف العربى إذن حصيلة غربية" أى أنه لا صلة لفكره فى أعماقه بطبقته وأرضه".. هذا القول يلغى المخزون المعرفى الذى يعد الموروث الشعبى حصيلته الأهم.

إن كل ما حصّله الإنسان العربى من معرفة مصدرها الكتب الغربية، لا يلغى ما فى داخله من موروث لا يقتصر على أعوام حياته وحدها، وإنما يمتد آلاف السنين، هى عمر الموروث الذى تشكلت منه حضارة الشعب العربى.

☆☆☆

يحدد مالك بن نبى الثقافة بأنها "صلة ثلاثية متبادلة بين أسلوب الحياة فى المجتمع، وسلوك الأفراد فيه، بحيث إذا اختل أحد الأطراف الثلاثة، يتدخل الطرفان الآخران للتعديل حتى لا يحدث نشوز فى المجتمع، فالثقافة هى هذه الصلة الثلاثية المتبادلة بين أسلوب الحياة وسلوك الأفراد.

وحسب اجتهادى الشخصى، فإن الثقافة بمعنى قراءة الكتاب، وسماع

المقطوعة الموسيقية، ومشاهدة المسرحية أو الفيلم.. هذه الثقافة ليست سوى "معرفة"، يتعلم المرء جديداً يضيفه إلى مخزونه المعرفى، أما الثقافة ـ بالمعنى الذى أقدره ـ فإطارها السلوك، الفعل، التصرف، المثقف هو الإنسان ذو المعرفة والموقف الحضارى فى آن، لا قيمة لقراءة الكتب وسماع الإذاعات ومشاهدة المسرح والسينما والقنوات الفضائية، ما لم يلتحم بذلك كله سلوك يعنى بالتطبيق الإيجابى، والفعال، لكل ما حصّله المرء من معرفة، إذا أفاد المرء من معرفته فى تصرف إيجابى، فذلك تصرف مثقف، والثقافة صفة يصح أن نطلقها على صاحبه، ثمة متعلمون يحملون فى رءوسهم ما حفظوه، دون أن يشغلهم التطبيق، يفيدون من ذاكرتهم الحافظية أو الاستيعابية، لكنهم لا يحاولون الإفادة مما أودعوه ذاكرتهم فى الإضافة والتطوير، وأستعير من أستاذنا زكى نجيب محمود قوله إن الثقافة هى الروح التى تسرى لتدفع ذلك البناء المعرفى، المعلومات والعلوم، نحو غايات معينة، يريد الإنسان تحقيقها.

الثقافة ليست محصولاً من معارف ومعلومات فى حد ذاتها، بل هى الزهرة التى تنبتها تلك المعلومات والمعرفة، وإن لم يعتبر الرجل من الثقافة المعلومات والخبرات المكتسبة من ممارسة الحياة العملية، أو العلوم التى تستخرج من تلك المعلومات والخبرات قوانينها.

الثقافة إذن ليست مجرد معلومات نظرية، لكنها حصيلة لجميع المعلومات التى يكتسبها المرء خلال حياته، واستخدامها بصورة مفيدة وإيجابية وفعالة، وبتعبير آخر، فإن الثقافة ليست فى الحصول على الشهادات الدراسية، وإنما فى خلق الوعى الكامل عند الحاصلين على تلك الشهادات فى تعدد مستوياتها، والمثقف ليس هو الذى يملك أكبر قدر من المعرفة، لكنه الذى يمتلك أكبر قدر من الوعى، لقد تحقق له الوعى بالمعرفة، وأفاد من هذا الوعى فى تقرير المناسب والأفضل والأجمل، التصرف فى ضوء سلوكيات تحاول الصواب، ولعلى أذكر قول عبدالفتاح كليطو: إن المعرفة لا تكتمل إلا إذا تم نقلها وتعليمها، وإلا إذا أثرت فى الناس(العين والإبرة ـ ١٩)

القول إن المثقف هو ذلك الذى يعرف من كل شىء خلاصته، واعتبار العقاد مثلاً لذلك المثقف، ينطوى على مغالطة، لأنه لا يوجد فى عصرنا من يعرف من كل شىء خلاصته، ثورة المعلومات جعلت السير فى مساحتها

الواسعة أمراً مستحيلاً، ولو أن المثقف العظيم سقراط جاء فى زمننا الحالى، فإنه سيواجه موقفاً أكثر تعقيداً من الموقف الذى واجهه المنيكلى باشا فى حديث عيسى بن هشام، ستبدو "ثقافة" الرجل لا شىء أمام "ثقافة" أى طفل فى المرحلة الابتدائية، فهو إذن كان قد حصل - فى عصره - على "معرفة" تفوق ما كان لدى الآخرين، وأفادت منها ذاكرته الحافظية، واستيعابه، وإجادة استخدامه لمخزونه المعرفى، حصل الرجل على المعرفة.

أما الثقافة، فهى السلوكيات، أو التصرفات، التى أفادت مما حصل عليه من معارف، الثقافة خطوة تالية بعد التعلم، بعد المعرفة، مرحلة ما من التعلم، قد تكون أولية أو عالية، إنها - كما يقول أندريه مالرو - ما يأتى فيما بعد.

إن المرء الذى يرافق، أو يلى، "معرفته" فعل إيجابى، يضيف، ويطور، هو الذى يصلح لأن تطلق عليه كلمة "مثقف"، ومن الخطأ أن أقصر الثقافة على قطاع محدد، ومحدود، من أفراد المجتمع، لأن المعرفة - إذا أفاد منها المرء - بصرف النظر عن مستواه التعليمى - تصنع إنساناً مثقفاً، بل إن الجهل بالقراءة والكتابة لا يحول دون تحصيل قدر كبير من المعرفة، وممارسة الفعل الثقافى.

وإذا كانت الثقافة تعنى الحضارة بالإنجليزية، فإن الحضارة - كما تتحدث عنها دائرة المعارف البريطانية - هى "مجموعة نتائج العمل الإنسانى فى إطاره الاجتماعى على أرض محددة، وعبر زمان معين، أى مجموع أساليب المعيشة التى يتقاسمها أفراد جماعة من البشر من مبان وعلوم وفنون ومعتقدات وتقاليد إلخ"، وكما يقول ديهاميل، فإن الحضارة إذا لم تكن فى قلب الإنسان، فإنها لن تكون فى أى مكان، الثقافة لا توجد إلا بوجود المجتمع، والمجتمع لا يقوم ويبقى إلا على الثقافة، إنها طريق متميز لحياة الجماعة، ونمو متكامل لحياة أفرادها، فهى إذن تعتمد على وجود المجتمع، وتمده بالأدوات اللازمة لاطراد الحياة فيه، تستوى فى ذلك الطاقات البدائية والمعاصرة.

ثمة فارق بين المتعلم، أى الذى حصل على المعرفة، وبين المثقف، العلم - على حد تعبير ابن المقفع - كالشجرة، والعمل به كالثمرة، وقد ضرب أندريه مالرو مثلاً فى الفرق بين المتعلم والمثقف، بعالم الكيمياء الذى يحيا داخل معمله، ولا تثيره قضايا العالم الثالث، هذا هو المتعلم، أما المثقف، فإنه "ذلك

الذى يمتد باهتماماته خارج دائرة الذات، وتزداد ثقافته كلما اتسعت دائرة اهتماماته"، وربما كان المثقف ـ كما أشرنا ـ غير متعلم، والعكس ـ بالطبع ـ صحيح!

المعرفة بعد مهم فى الثقافة، لكنها ليست كل الأبعاد، ثمة أبعاد أكثر أهمية تجاوز التلقى السلبى، فتحيله فعلاً إيجابياً لصالح الفرد والجماعة والبيئة، الثقافة تالية للمعرفة، السلوك هو التطبيق لما نتعلمه، لما نحصل عليه من معرفة، بمعنى أن المعرفة هى النظرية، أما الثقافة فهى التطبيق، وقد نتعلم النظرية، لكننا لا نحاول التطبيق، والعكس ـ هنا ـ ليس صحيحاً، ولعله يمكن القول إن المعرفة ـ أو التعليم ـ هى واسطة نقل الثقافة، أوافق على أن الثقافة "عناية بالذهن كى يعطى مردوداً أفضل، كما أن الزراعة هى عناية بالأرض كى تعطى مردوداً أفضل"، وكما يقول إدوار هيريو، فإن الثقافة "هى ما يبقى عالقاً بالأذهان عندما ننسى ما تعلمناه على مقاعد الدراسة".

☆☆☆

لقد تعددت تعريفات الثقافة، فبلغت ما يزيد على مائة وستين تعريفاً، وفى أحد تعريفات الثقافة أنها علاقات معينة تؤلف بين الأفراد فى المجتمع، وتنظم وظائفهم الإنسانية التى تنبنى على أساسها عقائدهم ومعايشاتهم الأسرية والسياسية والاقتصادية والسلوكية والترفيهية.

هذا التعريف ـ كما نرى ـ يرتبط ـ فى أغلبه ـ بالفعل، وليس بمجرد التلقى، الثقافة هى الفعل الإيجابى، لصالح الفرد والجماعة، أما الاكتفاء بالتلقى فيظل مجرد معرفة، وإذا كانت الثقافة ترادف الحضارة بالمعنى الأوروبى للكلمة، فإن الحضارة لها دلالاتها العميقة المتعددة، أما المعرفة فإنها تقتصر على مجرد التحصيل المعرفى دون أن ترافقه محاولة للتطبيق، وكانت الثقافة عند اليونانيين القدماء، تدور بين الناس فى معاملاتهم اليومية، مثلها مثل اللغة، فلا تفرض نفسها عليهم بوجود مميز.

المثقف ـ فى أحد التعريفات ـ هو من توجد لديه نظرة للحياة، والثقافة بمعنى أن نعرف ما كنا نجهله، ونستمع إلى ما لم نستمع إليه من قبل، ونتعرف إلى أشياء جديدة فى حياتنا، ثم ينتهى الأمر، إنما هو ترف لا تحتمله حياتنا الحالية بكل ما تعانيه من ضغوط اجتماعية واقتصادية وسياسية،

الثقافة معرفة وتطبيق، أعرف الشىء، أتعلمه، فأحاول أن أفيد مما عرفته وتعلمته فى إضافة الجديد، المثمر والإيجابى، إلى حياتى، وحياة المجتمع الذى أنتمى إليه، ثقافتنا تبين عن نفسها فى كل تصرفاتنا: فى النوم والصحو والقراءة وتناول الطعام والتحدث والفسحة واللعب وإقامة الصداقات وتجميل البيت والعناية بالكتاب واختيار الأثاث إلخ.. وكما ترى مارى دوجلاس Mary Douglasفإن تطبيقات نظرية الثقافة لتفسير أمور مختلفة، تبدأ بأساليب حفظ الطعام، والدلالة واضحة فى قول ايليا اهرنبورج "أنا أكثر إيماناً بأهمية التقدم الثقافى للشعب، منى بتقدم الفن نفسه، لأن الجمهور الواعى هو الذى يفرض على الفنان السمو والارتفاع" (الطليعة ـ مارس ١٩٦٧).

الإنسان المثقف لن يقبل بواقع متخلف، إنه ـ فى الأقل ـ سيعرف القيمة المادية للأشياء، ويحضرنى ما قاله حكيم إفريقى: "إن الثقافة تستطيع أن تأخذ الإنسان إلى تل أعلى مما يمكن أن نرى عند الأفق، ثم تجعله ينظر فيما وراءه"، إنها ـ فى تعبير آخر ـ هى التى تميز الجنس البشرى عن غيره من الأجناس، فهى ـ الثقافة ـ تؤكد الصفة الإنسانية فى الجنس البشرى.

✭✭✭

الثقافة سلوك..

وكما يرى روبرت بيرستيد R، Bierstedt فإن الثقافة هى "ذلك الكل المركب الذى يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملكه كأعضاء فى المجتمع"، لذلك فإن المتعلم ـ بدءاً من الحاصل على أدنى الشهادات، إلى الحاصل على الشهادات العليا، ليس مثقفاً بالضرورة، إنه قد يكون حاصلاً على الماجستير، أو الدكتوراه، لكن سلوكه غير ثقافى، ويصعب تصنيفه كمثقف، وقد لاحظت أن صديقاً لى، يعتبره الكثيرون من خاصة مثقفينا، كان يضع نفسه فى مآزق عندما ينفعل بمناسبة وبلا مناسبة، وربما ضرب مكتبه بقبضة يده، ووجه إلى محدثه ـ أياً كان سنه أو مكانته ـ عبارات يضطر إلى الرد عليها بعبارات مماثلة، أو أقسى منها.

وأذكر أنى قلت لصديق: أنت تتصور أن الثقافة قراءة ومعرفة، وأنا أثق أن الثقافة سلوك، إن سلوكنا انعكاس لثقافتنا، ولا قيمة لمعرفة لا نترجمها لتصرفات!

ويصف سارتر المثقف بأنه "رجل معرفة، إلا أنه رجل معرفة عملية، لأنه لا يوجد الآن فرق حقيقى بين المعرفة النظرية والمعرفة العملية، إنه العالم أو الطبيب أو التكنيكى أو القانونى أو الكاتب أو الفيلسوف أو الفنان، الذى يعنى بتكوين نفسه فى تناقض داخل المجتمع البرجوازى، ولكن ليس كل هؤلاء الناس يقومون بهذا التكوين لأنفسهم، فهناك علماء يعيشون فى حالة من القلق، ويتعامون عن رؤية الأمور، وهناك من يريدون ـ بموافقة السلطات ـ إضفاء هذا التناقض على غيرهم، فهم الذين أطلق عليهم عبارة كلاب الحراسة، هؤلاء لا نسميهم مثقفين، لأن ما من أحد يسميهم مثقفين" (الطليعة ـ مرجع سابق).

خلاصة الأمر أن المثقف ليس هو الذى يعرف، فالثقافة ـ كما قلنا ـ غير المعرفة، أو هى غاية للمعرفة، وقد يحصل المرء على المعرفة، لكن سلوكياته تنأى به عن أن يكون مثقفا، إنه لا يسلك سلوك المثقفين، لا يسلك سلوكاً متحضراً!

وإذا كان من تعريفات الثقافة أنها مجموع المعارف المكتسبة، فإنى أضيف إلى ذلك التعريف عبارة: وأسلوب الإفادة منها، إنها ـ وأرجو ألا أكون قد أسرفت فى التوضيح ـ وربما التبسيط! ـ تعنى ـ فى بعد مهم ـ إفادة المواطن من كل التطورات العلمية والتقنية والاقتصادية والاجتماعية التى يشهدها عالمنا المعاصر.

✯✯✯

متى نصف الإنسان الذى لا يجيد القراءة والكتابة بأنه مثقف؟

المثقف ـ فى تقديرى ـ هو الذى يستمد ثقافته من الكتب والخبرات الشخصية وخبرات الآخرين والتأمل وطرح الأسئلة، بحيث تتشكل لديه رؤية، يسهل تطبيقها، يقول الرجل فى قصة نجيب محفوظ "حارة العشاق": "الثقافة أن تعرّف نفسك، أن تعرف الناس، أن تعرف الأشياء والعلاقات، ونتيجة لذلك ستحسن التصرف فيما يلم بك من أطوار الحياة".

الثقافة ليست ترفاً مقصوداً لذاته، إنها ـ كما أشرنا ـ تتصل بالحضارة اتصالاً وثيقاً، فهى مجموعة القيم والأنساق الفكرية والسلوكية التى تميّز شعباً أو مجتمعاً معيناً، وتعريف آخر بأنها أساليب التفكير ونوعية المعرفة

والنظرة العامة إلى العالم التى تميز فرداً أو جماعة معينة داخل المجتمع الواحد.

وإذا كان للثقافة وجهها المادى المتمثل فى الاقتصاد والعلم والتكنولوجيا، فإن لها وجهها المعنوى المتمثل فى الأخلاقيات والتقاليد والمعتقدات وأنماط السلوك والخبرات إلخ، إنها تلخيص للتراث الإنسانى، واستشراف لمستقبل الإنسانية فى الوقت نفسه.

ولعله يمكن القول إنه توجد ثقافات بقدر ما توجد ـ أو كما توجد ـ جماعات بشرية، ثمة ثقافة سلبية تسيطر عليها الخرافة والتواكلية والأفكار القدرية والاستسلام للظروف القائمة وفقدان الطموح، وثمة ثقافة إيجابية تستهدف التطوير، والإضافة، واكتساب الجديد، والتعامل بلغة العصر، ويقول ديهاميل:" إن نظام الثقافة الذى يستحيل فيه التفكير والاختيار، إنما هو فى الحقيقة تقويض لما كان يسمى حتى اليوم، ثقافة "، إنها كالإيمان الذى لا يكفى أن نطلبه، لنناله، وكان مونتينى Montaigne يفرق بين حشو الذهن بالمعلومات وبين تكوين العقلية السليمة، والمعنى ـ بالطبع ـ لا يخلو من دلالة.

الثقافة سلوك، أسلوب حياة، تأثر ومحاولة للتأثير، للتأثر والتأثير دورهما الذى يصعب إغفاله فى تكوين الحس الثقافى، فقد يتعرف المواطن ـ على سبيل المثال ـ داخل حجرة الطبيب، أو الأخصائى الاجتماعى، إلى جماليات وسلوكيات يحاول تقليدها فى بيته: لوحة معلقة على جدار، ستارة، سجادة.. قد نجد فى ذلك فائدة لنا، وللآخرين..

ليس المثقف من يعرف أكثر، الثقافة ـ هنا ـ تتراجع، لتحل محلها المعرفة، تتقدم الثقافة إذا بدأنا فى استخدام ما تعلمناه، ما نعرفه، وكانت الثقافة الحقيقية ـ فى تقدير فلاسفة عصر النهضة ـ هى تلك التى لا تقتصر على شحن الذهن بالمعارف والمعلومات، لكنها تستهدف تزويد المتلقى برجاحة الحكم.

الإنسان المثقف لن يقبل بواقع متخلف، وإنما سيبذل كل جهده لتطوير ذلك الواقع، إنه ـ فى الأقل ـ سيعرف القيمة المادية للأشياء، يحضرنى ما قاله إفريقى حكيم: "إن الثقافة تستطيع أن تأخذ الإنسان إلى تل أعلى مما يمكن أن نرى عند الأفق، ثم تجعله ينظر فيما وراءه"، وهى ـ كما يراها إدوارد

تايلور Edward Taylor ـ "كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانات أو العادات التى يكتسبها المرء باعتباره عضواً فى المجتمع"، إنها" طريقة العيش فى شتى نواحيه، مجموعة القيم التى تواجه الإنسان، وتسيّره، وتقدم له المعايير التى يوازن بها بين الأشياء والمواقف ليختار" (زكى نجيب محمود: تجديد الفكر العربى ٦٩)، من هنا، جاء وصف ديهاميل للجريدة بأنها ضرورية لإنسان زماننا الحالى، إنها إفطار الصباح بالنسبة له، تفتح عينه عندما ينهض من فراشه، فتوقظه، وتلقى إليه بمجموعة من الوقائع والآراء.

الثقافة هى المفتاح السحرى للإفادة من الماضى، والتعامل مع الحاضر، واستشراف المستقبل، إنها ـ فى المجتمعات النامية بخاصة ـ تعنى إفادة المواطن من كل التطورات العلمية والتقنية والاقتصادية التى يشهدها عالمنا المعاصر، فهو قد يفكر ـ ولعله يحاول بالفعل ـ أن يستخدم أساليب الزراعة الحديثة، بدلاً من تلك التى يستخدمها منذ فجر حضارته، ومن ثم يوفر كثيراً من الوقت والجهد، ويحقق إنتاجاً أخصب وأوفر، وهو لن يكرر مأساة طه حسين، حين فقد نور عينيه بتأثير" الشِشم" الذى كانت تعالج به الأم رمداً أصابه، إن حاجتنا إلى الطعام ليست ثقافة، الثقافة فى عادات الطعام، فى اختيار أنواعه، وطريقة طهوه، ووسيلة تقديمه، وأدوات تناوله من ملاعق وشوك وسكاكين وأطباق وغيرها، وكما يقول الرئيس الفرنسى الراحل بومبيدو، فإن الثقافة "بحكم رسالتها وتفاعلها، تحمل فى طياتها بذور التطور، بل وحتى الثورة. فالتفكير معناه الحكم، والثقافة إذ ترفض حتماً قبول وضع سبق لها أن انبثقت منه، فإن غايتها الطبيعية هى إصدار حكم على ذلك الوضع، وبالتالى تمهيد السبل أمام التغيير، إنها ـ فى أحد أبعادها ـ التعبير عن البيئة التى يصنعها الإنسان، عن كل ما يتوصل إليه فكره، وتصنعه يده، ليست هناك ثقافة ـ مثلاً ـ بدون إعادة نظر فى الآراء والقيم والمهارات وأنماط التفكير ووسائل كسب العيش والمثل الأعلى والمعتقدات الموروثة إلخ.

من المؤكد أن المزارع سيتخلى عن الكثير الضار من الأمثال والخرافات والعادات والتقاليد، ارتكازاً إلى معرفته ـ مثلاً ـ بأن التغاضى عن الألم قد يعنى إهمال البواكير الأولى لأحد الأمراض الخطيرة، وأن التمسك بالنظافة

يحفظ على الإنسان صحته وحياته، وأن استشارة الطبيب أضمن من الركون إلى علاج "خبير"، وأن المياه النقية هى الصالحة للشرب بعكس مياه النهر، وإذا لم تكن هناك طلمبة مياه، فلابد من أن يرشح الماء قبل استخدامه، ويتوصل إلى حقيقة أنه توجد أنواع جديدة من البذور تعطى ثماراً أفضل، ويثق بضرورة تطعيم الدجاج ضد الكوليرا، ويدرك أهمية التسميد الكيماوى.. إلخ..

ثمة مقولة إن الثقافة هى الأداة الفعالة التى تسمح لكل فرد أن يعلو على نفسه، أذكر رواية طريفة عن تطلعات أثيرت فى قرية هندية، لامتلاك نوع من القمصان شاهده أهالى القرية فى الأفلام، واضطر ترزى القرية للذهاب إلى السينما، ومحاولة نقل تفصيلة القمصان المتمدنة، حتى يحقق للقرويين ما يطلبونه. ويقول الراوى - ولبور شرام - إنه قد تكون القفزة كبيرة من التطلع لقنص جديد، إلى التطلع لعظمة الدولة ورخائه، وأسمح لنفسى بأن أضيف أن القفزة قد تكون كبيرة بالفعل، لكن الواقع الذى نحياه يرفض - فيما أتصور - حكاية الأرنب الذى اعتمد على سرعته فى القفز، فلم يصل إلى هدفه، ووصلت السلحفاة، وربما يكفى أن نشير إلى المثل الصينى عن الألف ميل التى تبدأ بخطوة واحدة.

كذلك فإن الإنسان "المثقف" سيتردد طويلاً قبل أن يصدق إحدى قصص العفاريت التى تظهر على شاطئ الترعة ليلاً، أو يؤمن بما قاله "المنجّم" عن المال الذى سيؤول إليه من أحد أقاربه، وهو سيترك للقضاء مهمة الثأر من قاتل أبيه، بدلاً من أن يضيع حياته وحياة الآخرين، فى القصاص لنفسه بيده، ويحاول المشاركة فى الحياة السياسية باعتبارها واجباً قومياً.. إلخ..

ومن الطبيعى أن ثقافة الفرد - هنا - ستكون هى المنطلق لتحقيق قيام الأسرة بدور "القناة الأساسية لنقل الثقافة" - على حد تعبير إليوت - "فلا إنسان ينجو تماماً من نوع الثقافة التى اكتسبها من بيئته الأولى، أو يتجاوز درجتها تماماً "، بل إننا نوافق تماماً على رأى إليوت بأن قناة الأسرة بالذات، تظل أهم بكثير من سائر قنوات نقل الثقافة، وعندما تعجز قناة الأسرة عن القيام بدورها، يجب أن نتوقع انحسار ثقافتنا، رغم اختلافنا الموضوعى مع غالبية الآراء التى يتناول بها إليوت قضايا الثقافة عموماً.

كلمة Culture الفرنسية مشتقة من كلمة Cultus اللاتينية، التى تعنى ثلاثة معان: زراعة، تربية، ثقافة، والارتباط بين هذه الكلمات الثلاث يوسع من معنىً الثقافة ودلالاتها، فـ "المثقف" لن يقف بما تعلمه عند حد المعرفة، لكنه سيحاول تطبيق ما تعلمه لتطوير حياته، بل إنه من الطبيعى أن يحاول المثقف التأثير فى البيئة المحيطة به، يبدأ بالبيت، فيكوّن ـ بقدر ما تسمح موارده المالية ـ مكتبة صغيرة، يقبل المتعلمون من أفراد الأسرة على قراءتها، وقد يعنى بتعليق مناظر جميلة من مجلات ملونة يشغل بها مساحات الجدران الفارغة، وربما يمتد تأثيره إلى خارج البيت، إلى القرية، فى مناقشاته الجادة والمثمرة، وفى إعارته كتبه إلى من ينشد القراءة من أبناء القرية.

لقد تمنى الشاعر يوماً، بأن يتساوى القلم والمدفع، وأن يوضع القلم مع الحديد ضمن الصناعة الثقيلة. فالثقافة ـ بحق ـ هى الصناعة الثقيلة للمعرفة، الثقافة الحقيقية ـ على حد تعبير فؤاد زكريا ـ هى هذا الكل الذى ينطوى تحته تفكير الإنسان وسلوكه، نظره وعمله، تأمله وإنتاجه، علمه وحكمته.

الثقافة ليست جهداً جزئياً يشمل جانباً واحداً من جوانب نشاط الإنسان، بل هى حصيلة كلية تضم شتى جوانب النشاط البشرى فى إطار شامل موحد، بل إنه ليمكننى القول ـ ببساطة ـ إن الدولة المتقدمة ستظل حلماً وردياً، ما لم يصبح تحقيق الثقافة بعداً أساسياً فى حياتنا اليومية.

لا معنى للثقافة دون ارتباط بالحياة.

والبهائم تَعيش

ما إن صار عارفاً، حتى غرق فى بحار الحيرة،
حيرة فى حيرة، لا بداية ولا نهاية.
العطار
هناك شىء لا يمكن نكرانه، هو أن الكائنات البشرية لا تموت، لكن الحيوانات الأخرى تموت
جوزيه ساراماجو

وقف فيلسوف ألمانى أمام نصب قبر ملك شرقى، حفرت عليه عبارة: أكلت، وشربت، وتمتعت".

قال الفيلسوف: هذا نصب تذكارى جدير بخنزير!

المعنى نفسه نجده فى قول ريتشارد بوتون: أن يأكل المرء، وأن يشرب، وأن يمرح.. تلك أمور قد تبدو جميلة كلها، لكنها لا تكشف عن أى فرق بين الإنسان والخنزير!

الحيوان - فيما أقدّر - لا يفكر فى وضعه، إنه يأكل ويشرب ويصحو وينام ويساق إلى العمل، لا يشغله أى شىء، ترك أمره لسيده، أو لمن يتولى رعايته، ومع تقديرى لإنسانية الإنسان، فثمة مخلوقات يصفها فتحى غانم فى قصته "أتت تجرجر أذيالها" بأنها "أفواه تأكل، وأمعاء تهضم وتفرز النفايات، وغزيرة عمياء تفور، ثم لا شىء بعد ذلك".

يقول فوكنر: "إن الإنسان يمكن أن يكون أكثر من مجرد حيوان، لكن يبقى إثبات ما إذا كان يستطيع أن يكون أكثر من حيوان، وأن يستمر فى البقاء"، ويقول ألبير كامى: إن الإنسان لا يعترف به، ولا يعرف نفسه كإنسان، مادام يكتفى بأن يعيش عيشة الحيوان".

وإذا كان سقراط قد أعلن ـ منذ مئات السنين ـ أن مجرد الحياة لا يعنى شيئاً، وأن البهائم تعيش، فإن زوربا ـ الشخصية الروائية لكازنتزاكس ـ تقول إن الحيوانات وحدها هى التى تعيش لتأكل!

من هنا يأتى اختلافى مع اللورد هنرى فى رواية أوسكار وايلد "صورة دوريان جراى" فى وصفه بالحمق من يجد الإنسان حيواناً عاقلاً، وعلى حد تعبيره، فإن الإنسان قد يكون متعدد الملكات، لكن العقل ليس من ملكاته.

إن العقل أثمن ما يمتلكه الإنسان، والمعرفة هى الزاد الذى يجب أن ينهل منه العقل

☆☆☆

أعرف ناساً بسطاء، طيبين، تعنيهم اللحظة غير موصولة بما قبل ولا بعد، تعنيهم القعدة الطرية والأكلة الهنيئة، والجلسة المسترخية أمام التليفزيون، ومتابعة أفلامه ومسلسلاته وفقراته الترفيهية على إيقاع قزقزة اللب، يمضون الساعات فى مناقشة ما إذا كان الزمالك قد أفلح فى شراء لاعبيه الجدد، أو أن الأهلى أفلح فى اقتناصهم ليضمن قعودهم على دكة البدلاء.

هؤلاء الناس ـ وهم طيبون، وعلى نياتهم كما قلت لك ـ لا تشغلهم أسئلة من نوع: لماذا انهار الاتحاد السوفييتى؟ هل مات جمال عبدالناصر مريضاً أو مسموماً أو مقهوراً؟ هل يؤثر ثقب الأوزون على سلامة الجنس البشرى؟ كيف نتخلص من مشكلة الزحام؟ هل تعود الحرب الباردة؟ هل تصبح الصين مارد القرن الحادى والعشرين؟

لا صلة لهؤلاء بكل هذه الأسئلة، إنها تبعد عن مدى اهتمامهم.

ولعلى أشير إلى قول الرجل فى رواية "السيد م" للروائى اليمنى سمير عبدالفتاح: إن الكائنات البدائية هى أسعد الكائنات، لأنها بدون ذاكرة، وبدون تعقيدات، حياتها وموتها لا يثيرها ولا يزعجها، تعيش فقط، وتموت فقط".

أذكر أنى سألت ـ ذات يوم ـ حرفياً من سكان الحى الذى أقطن فيه:

ـ هل شاركت فى الانتخابات؟

أجاب بثقة:

ـ طبعاً.

قلت مداعباً:

ـ هل اخترت الأجدر بتمثيلك؟

ـ طبعاً.. اخترت الهلال..

ـ اخترت الشخص أم الرمز؟

ـ الهلال هو شعار الإسلام.. لهذا اخترته.

أضاف:

ـ لا تنس أن مرشح الهلال هو مرشح الحكومة!

☆☆☆

الرأس إلياس فى رواية صمويل جونسون" الوادى السعيد "يصف الحيوانات بأنها تجوع وتأكل الحشيش، وتظمأ فترتوى من الحقول، وتقر نفساً بما تأكل وتشرب، والإنسان ـ مثل الحيوان ـ يجوع ويظمأ، لكن امتلاء بطنه لا يكفى، ثمة السأم والضيق والتطلع والسعى إلى التحقق.

دور المرء فى الحياة أخطر ـ أو هذا ما يجب ـ من مجرد الأكل والشرب والنوم والتناسل، هذه ـ كما قال سقراط ـ حياة البهائم، وإذا كانت الطبيعة الإنسانية والحيوانية تتفقان فى خصائص كثيرة، فإن الاختلاف بين الطبيعتين مؤكد فى تفرد الإنسان بالطموح، والحرص على الإضافة.

أنا أتعلم، فأنا أكثر معرفة، وأشد إدراكاً لطبيعة الأمور، واستشرافات نتائجها.

ثمة مقولة: "من يعرف أكثر عليه واجبات أكثر تجاه الإنسانية"..

ويقول الشاعر العربى:

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله   وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

لو أننا استبدلنا بمقولة الشاعر، مقولة أن صاحب المعرفة يشقى بالنعيم فى معرفته، فستهبنا المعنى الذى نقصده.

☆☆☆

إذا كان البعض يرى فى الجهل نعمة، فإن سقراط يرى أن الجهل نسيان، والعلم تذكّر، بمعنى أن الجهل لا يتدبر الأمور، ولا يحاول استشراف ملامحها المستقبلية، ما حدث قد حدث، نحن نعيش اللحظة، لا شأن لنا بما مضى، ولا بما هو متوقع، أما العلم فهو ينبه ويستفز ويشير إلى بانورامية الصورة بكل تكويناتها الماضية والآنية والمستقبلة.

تغيظنى النظرة اللامبالية، والتواكلية، ورفع شعار "إحيينى النهارده وموتنى بكره"، والاقتداء برأى جحا أن ما يحدث بعيداً عن بيتى لا صلة لى به.

لا أتصور خطراً يتهدد حياتى دون أن أعرف، دون أن أرى ما يدل عليه، فأعد نفسى لمواجهته.

فى حكاية، أن الملك طلب من فلاسفة عصره أن يلخصوا له سر الحياة، عادوا إليه بعد سنة، وفى حوزتهم مجلدات تحاول الإجابة عن السؤال.. ولأن المرض كان قد أتعبه، فقد طالبهم بأن يختصروا ما كتبوا، ليسهل عليه الاطلاع، عادوا بعد سنة أخرى، وقد اختصروا المجلدات فى كتاب واحد.. ولأن أنفاس الموت كانت قد لامست جسده، فقد ناشدهم أن يختصروا ما توصلوا إليه فى بضع كلمات، فقال الفلاسفة ـ بعد نقاش ـ: خلق الإنسان ليتعذب، ويموت!..

الحكاية أسطورة، تعانق اليأس ـ كما ترى ـ فى صداقة حميمة.

☆☆☆

صديقى لا يشغله إلا أن الحياة طريق تفضى إلى الموت.. ومادام الموت غاية، فماذا يشغلنا فى الحياة؟!..

تخطئ لو تصورت أن صديقى قد اختار التصوف حياة يعبر فيها عن معتقده ورأيه.. العكس ـ للآسف ـ هو الصحيح، لقد اختار أن يقبل على كل مباهج الحياة، ويخاصم العمل.. فهو يجوب البلدان ـ متنزهاً ـ وينادم ويسهر ويستمع ويشاهد ويقرأ ويخلو إلى فراشه صباح كل يوم، ليصحو قبل الغروب.. وهكذا تتبدد أيامه!..

أسأله:

ـ ألا تحاول الاشتغال بأى شىء؟

ـ ولماذا أعمل؟.. إيراد أملاكى يكفينى.

ـ لكن الحياة بلا عمل مستحيلة.

ـ هذا رأيك.، ورأيى أن العمل ـ أى عمل ـ حرث فى البحر، مادام الموت نهاية لحياتنا.

ـ أسفارك ورحلاتك وطعامك وكل متطلبات حياتك.. من أين تنفق عليها؟

ـ مواردى الخاصة تكفى وتزيد.

ـ تصور لو أن العالم كله قد آمن بفلسفتك.. من كان يزرع الطعام الذى تأكله، ويصنع الثوب الذى ترتديه، ويشيد البيت الذى تسكنه؟

ـ إنى أعطيهم مقابل ما يعملون.

ـ هذا الذى تعطيه لم ترثه إلا بعد أن شقى هؤلاء الذين أورثوك إياه.. المال لابد أن يكون مقابلاً لعمل.

ـ أنا قانع بحياتى.. ولا أريد أن أعمل شيئاً!

حاولت أن أكتم الغضب فى داخلى:

ـ أنت هكذا تأخذ من الحياة.. ولا تعطيها!

عدم المعرفة يعنى ألا يعانى المرء قلقاً ولا توتراً، دعت أمينة بين القصرين للمصريين والإنجليز، لأنها لم تكن تدرك أن المصريين كانوا يعانون احتلال الإنجليز، تحول هؤلاء وأولئك ـ فى نظرها ـ إلى بشر متساوين، ودعت الله أن يشمل الجميع برحمته، أما ياسين فقد كانت نظرته فى الإطار الذى حددته قراءاته القليلة التافهة، لم يجد عيباً فى أن يأخذ ويعطى مع الجندى الإنجليزى، مما كاد يسبب أذى الثوار له، أما فهمى فقد كانت تصرفاته من واقع إدراكه للأحداث، للقيد الكبير الذى تعانى مصر ويلاته.

وحين خرجت جماعات من المصريين ـ بعد سنوات من قيام ثورة يوليو ـ وهتفت بحياة مصطفى النحاس، فإن هتافها لم يكن ضد جمال عبدالناصر، وإنما لأن النحاس كان ـ حتى عام ١٩٥٦ ـ هو صورة الزعيم فى وجدان الناس، ولولا إقدام عبدالناصر على تأميم القناة، لاستمر الالتباس فى فهم البسطاء من المصريين لطبيعة الحياة السياسية.

☆☆☆

العالم ـ بإرادة الإنسان ـ موضع نفى دائم ومستمر، فالأشجار تتحول إلى أدوات يستخدمها فى تطويع الحياة من حوله وتطويرها، والمعادن والخامات بعامة تتحول إلى آلات ضخمة، وبالغة التعقيد، تيسر له خطوات التقدم، وتتوالى ـ من خلالها ـ ملايين الإنجازات العلمية والتكنولوجية، والظواهر الطبيعية يخضعها لظروف معيشته، الإنسان الذى يستحق تسميته هو مشروع دائم التجدد، والسعى إلى الإضافة والتطوير والتقدم، إنه يحيل الوجود البيولوجى إلى وجود إنسانى، له تاريخ.

خطورة الأمر بالنسبة للمهموم ـ هذا هو التعبير الذى يحضرنى ـ إنه يعرف حقيقة ما يجرى، يدرك خطورته ومنتهى آفاقه، اعتبر المعرفة لعنة حلت به، وحسد الجهلاء على النعيم الذى يحيون فيه.

إنه يعانى مشكلة الأستاذ الجامعى وليد صبحى، بطل روايتى "غواية الإسكندر": خطر مد البحر الذى يهدد بابتلاع الإسكندرية، ويعانى مشكلة الزحام والكثافة السكانية والقهر وسيطرة القوة وقوانين الطوارئ وأنفلونزا الطيور وأنفلونزا الخنازير والحمى القلاعية، وظواهر أخرى كثيرة.

ومن الأسرار التى كشف عنها ـ عقب الحرب العالمية الثانية ـ أن سفير اليابان فى موسكو اتصل بالمسئولين السوفييت ـ لم تكن العلاقات الدبلوماسية بين البلدين قد قطعت بعد ـ وعرض بيع وثائق مهمة، كى تفيد منها القيادة العسكرية السوفيتية فى خططها الاستراتيجية، ودفعت موسكو للسفير مقابلاً لخططه، لكنها أخضعتها للدراسة والتحليل، وتبينت أن التوقعات التى تناولتها الخطط قائمة على نتائج حقيقية، فلجأت إليها فى حربها مع اليابان، اكتشفت طوكيو ما فعله سفيرها، فاستدعته، وقدمته إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى، وحكم عليهم بالإعدام، ونفذ الحكم بالفعل، وعقب انتهاء الحرب، فاجأت اليابان العالم برد شرف السفير الخائن، ومنحته أرفع أوسمتها، ذلك لأن خيانة السفير اليابانى لم تكن سوى تمثيلية، قام فيها الرجل بدور البطولة، وأدى دوره حتى النهاية، حتى أعدم، وكان الهدف الحقيقى هو إقناع القيادة السوفيتية بالخطط التى وضعها السفير تحت تصرفها بمقابل مادى، وكانت مجرد خطط مزيفة أحسن صياغتها!

☆☆☆

صارحنى صديق ـ وهو، بالمناسبة، إعلامى له وزنه ـ أن أسلوب حياته يتلخص فى إسعاد نفسه بكل الوسائل، وإهمال، بل ورفض كل ما قد ينغص عليه حياته، حتى لو كان خبراً عن زلزال فى بلد ما، مادام الخطر بعيداً عن بيت جحا، فما شأن جحا به؟!

والتنغيص يبدأ بمحاولة حل المشكلات الأسرية، وينتهى بمتابعة التحليلات السياسية فى الصحف، وفى وسائل الإعلام.

إذا فتح صديقى التليفزيون، فلإدارة المؤشر نحو القنوات التى تقتصر على الأغنيات والرقصات والفقرات التى تضيف إلى أسباب سعادته، بالإضافة إلى أسباب النشوة الحسية، وما أكثرها فى الفضائيات، فإذا حدثت مضايقات عند المشاهدة، فإن برامج الإنترنت تعوض المعنى الغائب، ولو من خلال حد السرية الأدنى!

الإحصائيات العلمية ترى أن من لا تشغله متابعة الأحداث، من تتساوى لديهم قارات العالم ودولها وعواصمها وحكامها، من يجدون فى نشرات التليفزيون مجلبة للصداع والقلق، من يفضلون قراءة الصحف التى تفرد صفحاتها لأخبار النجوم، وحالات الزواج والطلاق، من يؤمنون بكلمات الإمام محمد عبده، دون أن يقرءوا الكلمات، أو يعرفوا أن الإمام قالها، لأنهم لا يعرفون الإمام نفسه! ـ يلعن السياسة، ولفظ السياسة، وساس ويسوس.. الإحصائيات العلمية ترى أن هؤلاء وغيرهم، ممن اشتروا أدمغتهم، أطول عمراً من الذين يحملون عبدالقادر على أدمغتهم، ويشغلهم ما لا شأن لهم به من أمور الحياة خارج بيت جحا ـ أقصد بيوتهم!

لكن الجهل الذى تنعم به الجماعة قد ينطوى على خطر مؤكد، فتحى غانم ـ فى قصته القصيرة "المقص والموس" ـ يتحدث عن الملايين الذين يقضون حياتهم أشبه بدواب، على رأسها عمامة تحجب عن عينيها جانبى الطريق، فلا ترى إلا الطريق أمامها.

الحقيقة التاريخية..

هل هي مطلقة؟

كانت السلفية ـ أو النقلية ـ التاريخية هى التى أملت أن قابيل وهابيل هما ـ فحسب ـ ابنا آدم وحواء، وأغفلت ابناً ثالثاً، هو "شيث"، ومعنى شيث هبة الله، سماه آدم وحواء بذلك، لأنهما رزقاه بعد أن قتل قابيل أخاه هابيل، وعندما احترقت روما، لم يكن نيرون يعزف على القيثارة، لسبب بسيط: أن القيثارة لم تكن قد اخترعت بعد، فضلاً عن أن نيرون ـ عند نشوب الحرائق ـ كان فى فيلته الخاصة فى تريوم، على بعد خمسين ميلاً من روما، ولم يغادر الفيلا إلا بعد أن استحالت عاصمة الرومان رماداً، ولما حاول نيرون أن يفر من اتهام جماهير روما، بأنه أشعل النيران فى مدينتهم، وغنى وسط الدمار، أعاد صدى الاتهام، اتهاماً مقابلاً للمسيحية الناشئة، وأن أبناءها هم الذين أشعلوا النيران فى المدينة الجميلة، ولأن الأقلية المسيحية كانت فى موضع الريبة والشك، والرفض أيضاً، فقد صدّقت الجماهير كلمات الطاغية دون تدبّر، واتجهت بانتقامها إلى المسيحيين، وكانت الإشاعة الحاقدة هى التى دفعت العظيم سقراط إلى ارتشاف الموت، ورفع الإبهام إلى أعلى معناه الحفاظ على حياة المصارع المهزوم، وخفض الإبهام إلى أسفل، معناه الموافقة على الموت، بينما إشارة العفو ـ فى الحقيقة ـ أن تظل قبضة اليد مقفلة، أما إشارة الموت، فهى إخراج الإبهام فى أى اتجاه، وإذا كانت كتب التاريخ ـ فى اتجاهها إلى النقلية ـ قد وضعت هارون الرشيد فى إطار اللهو والمجون والهنك والرنك، فإن الواقع التاريخى يؤكد أن عصر ذلك الخليفة المفترى عليه كان من أزهى عصور النهضة العربية والإسلامية فى أبعادها المختلفة، واتهام الحاكم بأمر الله بالجنون والتعطش إلى الدماء والبشاعة والتدمير، تقابله محاولة إنصاف

تاريخى موضوعى، يضع الرجل ـ فى تقدير الدارس ـ فى مكانته الصحيحة، وانتهى الناقد الألمانى س، ف، ولف فى كتابه "مقدمة هوميروس" ـ من خلال دراسة علمية واعية ـ إلى أن هوميروس لم يكتب الإلياذة والأوديسة، وإنما تبادل النظم شعراء كثيرون على فترات متباعدة زمنياً، والقول بأن نيوتن اكتشف قانون الجاذبية الأرضية لما شاهد تفاحة تسقط من الشجرة، تدحضه الوثائق العلمية لأكاديمية العلوم البريطانية، والتى تؤكد أن اكتشاف قانون الجاذبية الأرضية إنما جاء محصلة جهد بذله نيوتن ـ لسنوات ـ مع العديد من علماء القرن السابع عشر، بالإضافة إلى أنه قد تم وضع قانون الجاذبية ـ فى صورته العلمية ـ عقب سلسلة من التجارب الفيزيائية، استمرت أربع سنوات، والنعامة ـ حين تلمح الخطر ـ تدفن رأسها فى الرمال، بل إن بيكيت أشار إلى وضع النعامة رأسها فى الرمال على لسان بطله "مورفى": "من يدرى ما الذى تراه النعامة فى الرمال؟". والنعامة ـ فى الواقع ـ لا تفعل ذلك، والتماسيح تبكى دموعاً، فى حين أنها بلا غدد تفرز الدموع، والجمل يمكنه أن يستغنى عن الماء بضعة أيام، لأنه يختزن الماء تحت سنامه، والصحيح أن الجمل يختزن الدهن ـ لا الماء ـ فى سنامه أو سناميه، وقلة احتياجه إلى الماء مبعثها أن جسمه لا يكاد يفرز عرقاً، والحمامة رمز السلام والمحبة، غاية فى القوة والشراسة، بل إن الحمام ـ مثل الأسماك ـ قد يأكل بعضه بعضاً..

☆☆☆

الإسبانى مونتسيرات روتش يذهب إلى أنه لا يمكن النظر إلى المستقبل إلا من خلال الماضى، وثمة قول إنه إذا كان الماضى ذكرى، فإن هذه الذكرى تظل حاضرة إذا صيغت فى كلمات، وتقول الحكمة الإغريقية "التاريخ هو علم التعرف على الأشياء الجديدة بالمعرفة التى وقعت فى الماضى".

وطبيعى أنه كلما فات الزمن، تخلصت الأحداث من الزيف والشوائب والوهم، واقتربت من الحقيقة..

لكن الحقيقة التاريخية يصعب أن تكون مطلقة..

إنها ـ بالقطع ـ ليست مسلّمة رياضية.

إن ذرات الشوائب التى يسقطها غربال التاريخ، ربما تلتصق بالحدث، وتلتحم معه، وتصبح به ومعه شيئاً واحداً، ويتحدد الاختيار المستحيل أمام

الرؤية المنصفة: أن تروى الوقائع بعلاّتها، أو أن نسقط الحدث جميعاً، الحقيقة بكل قسماتها وملامحها، أن نلغيها من خريطة اهتماماتنا، مثلما أخفت فيكتوريا ملكة الإنجليز ـ ذات يوم ـ هولندا من الخريطة، وقالت: هذا البلد لم يعد فى العالم!..

وكان تصرفاً ساذجاً.

وربما أملت ظروف القداسة أن تتحدد النظرة إلى وقائع التاريخ، بما لا يجاوز تبنى الخلف لمعتقدات السلف، حتى لا يتورط العقل فى الشك..

وأحياناً، تغيب الاستمرارية التاريخية، كأن تغمض الجماهير العين عن سلبيات زعاماتها، وتصنع منها أبطالاً ورمزاً للنضال ـ سعد زغلول مثلاً ـ أو أن تخلع الجماهير رداء الأسطورة على شخصيات غير سوية، لمجرد أنها تحدت السلطة ـ أدهم الشرقاوى مثلاً ـ أو أن يصور "النظام" فترة حكمه ـ بأدواته فى الصحف والدوريات والوثائق ـ من خلال وجهات نظر ووقائع مغلوطة.. وتبدو شجرة الحقيقة ـ فى نموها ـ متكاملة الأوراق والأغصان والثمار، لكنها ـ بالتأكيد ـ ليست كذلك، ولعلها النقيض تماماً.. وذلك أبشع ما يواجهنا من مظاهر تزييف الحقيقة، عبر مراحل التاريخ.

☆☆☆

يعرّف إلتون Elton دراسة التاريخ بأنها تشمل كل ما قاله البشر، أو فكروا فيه، أو فعلوه، أو عانوه. ويقسم المؤرخ العالم ثوسيديس دراسة التاريخ إلى نوعين: نوع يمثله هومير الذى يعنى ـ فى الدرجة الأولى ـ بتفخيم الماضى، واللجوء إلى الخيال ـ أحياناً ـ لتجسيد ما غمض، ونوع تسجيلى، يكتفى بسرد الأحداث، ويرصد المعلومات، ويجد التكامل فى كمية الوثائق التى يضمنها دراسته.

لكن النظرة الأكثر علمية ـ فى تقديرنا ـ يجب أن يكون قوامها تحليل الأحداث التاريخية، وكما يقول ثوسيديس: أنا لا أريد أن أكتب لأمتى، وإنما أنا أكتب للدارسين، أشخص المرض، وأبين أعراضه، فإذا أصيب الناس، لا يكونون فى ظلام، وإنما يعرفون ما هذا الذى أصابهم، وقد لا يقوون على درء المرض، وإن عرفوه، ولكنهم إذا أصيبوا به عرفوه، فكانوا من أمره وأمر أنفسهم على بينة".

أرفض القول بأن عمل المؤرخ يعتمد على المقص وزجاجة الصمغ، بمعنى أنه

يقطع صفحات من اجتهادات المؤرخين السابقين، ويلصقها بعضها إلى جانب بعض، ليتشكل منها ـ فى تقديره ـ تاريخاً، وكما يقول كولنجوود فإن "المقص والصمغ لم يكونا قط أساس المنهج التاريخى"، وإن على المؤرخ أن يراجع نفسه دوماً، وتبين مدى الصواب والخطأ فيما توصّل إليه من اجتهادات.

المسألة ليست فى مجرد تجميع المعلومات، ونشر الوثائق، ورصد الأحداث، لكن المسألة فى تمحيص الحقائق، وتحليلها، بعد الرجوع إلى مصادر عدة، ومحاولة الخروج برأى موضوعى، من خلال التناقض الذى تفرضه وجهات النظر الحزبية والأيديولوجية، والتى ربما تجنى على الحقيقة التاريخية، تأييداً لمصالح فرد أو طبقة أو حزب.

ويقول الطبرى فى تاريخه: "إن العلم بما كان من أخبار الماضين، وهو كائن من أنباء الحادثين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم، ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس" (ص ١/٧ ـ ٨)

✯✯✯

والحق أن النظرة المسبقة، أو نقلية المنهج والتناول، هى أخطر ما تعانيه الدراسات التاريخية، وذلك بأن يعتمد الدارس على اجتهادات السابقين، يضمنها دراسته، دون أن يخضعها لقواعد البحث العلمى من نقاش، وتحليل، ومقارنة، بحيث يتوصل إلى نتائج موضوعية، تتجه إلى الحقيقة وحدها، وكما يقول ابن خلدون فإن "المؤرخين والمفسرين كثيراً ما وقع لهم من المغالط فى الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً دون أن يعرضوها على أصولها، أو يقيسوها بأشباهها".

إن وضع بعض المسائل فى دائرة الحقائق المطلقة، والركون إلى بعض المسلّمات، وجعلها فوق النقد، تفكير ينبو عن العلمية، إنه ـ بالتحديد ـ ليس تفكيراً علمياً. وإذا كانت أوروبا قد بدأت ببداية القرن التاسع عشر فى الالتزام بالمنهجية، والاعتماد على الأسلوب العلمى فى تناول الواقعة التاريخية، ونبذ الخرافة والأسطورة ما أمكن، فإن ذلك ما تحتاجه بعد غالبية الكتابات التى تتناول التاريخ العربى فى مراحله المختلفة.

✯✯✯

لقد حاول أشعب أن يبعد الصبية عنه، أن يتقى مشاكساتهم وأذاهم، فأشار إلى جهة بعيدة، وقال: هناك حفل عرس، فاذهبوا!.. ثم قالها لصبية غيرهم.

ردد الكلمات كثيراً، حتى سأل نفسه: هل هناك حفل عرس حقاً؟

وأجاب متشككاً: ربما يكون ذلك صحيحاً..

واتجه إلى مكان الحفل الوهمى، إلى الأكذوبة التى والى ترديدها حتى صدقها.

والملاحظ أن الكذب الأشعبى قد أساء إلى تاريخنا المعاصر فى مرات عديدة: تعرضت الحقيقة ـ بالاغتصاب ـ لمضاجعات أثمرت أبناء سفاح، وإن كانوا أبناء الحقيقة.

★★★

المثل الإيطالى يقول: "إن لكل شخص الحقيقة الخاصة به"، ويقول باسكال: "إن ما يعتبر حقيقة فى جانب من جبال البرانس، يعتبر خطأ فى الجانب الآخر"، وإذا كنا نعجب لاختلاف المؤرخين فى وقائع معاصرة، لم ينقض على حدوثها سنوات قليلة، فلعلنا نجد فى الأعمال الأدبية التى تروى الحدث الواحد من وجهات نظر متعددة، ورؤى متباينة، دليلاً على تباين التناول ـ بالضرورة ـ للحدث الواحد، فما رواه يوسف عبدالحميد السويفى (الرجل الذى فقد ظله لفتحى غانم) يختلف تماماً عما روته مبروكة، ويختلف عنهما محمد ناجى فى رواية ثالثة، الأمر نفسه بالنسبة لرواية لورنس داريل "رباعية الإسكندرية"، ويقول الروائى الأمريكى هوثورن Hewthorne (١٨٠٤ ـ ١٨٦٤) فى يومياته: "كل يوم يمر بى من أيام حياتى، يزيدنى شعوراً بأنه يندر أن تقرر حقيقته بالدقة الكافية، وأنه حينما تنتقل قصة خلال عقل شخص، فإنها ـ فى معظم الأوقات وأكثر الحالات ـ تصبح قريبة من الزيف، ولو أن راويها قد يكون من أشد الناس طلباً للحق".

من هذا المنطلق ـ مع الفارق طبعاً ـ فإن عبدالله النديم ـ فى تقدير البعض ـ هو المحرك الفعلى لأحداث الثورة العرابية، وتتواضع بعض الاجتهادات، فتجد فيه خطيباً للثورة، بينما تذهب اجتهادات مغايرة إلى أنه لم يكن سوى

"أدباتى" بالمعنى المألوف آنذاك!، أما يعقوب صنوع فهو ـ فى تقديرات دارسيه ـ رائد صحفى ومسرحى، بينما حاولت فى كتابى "قراءة فى شخصيات مصرية" أن أقدم وجهة نظر مناقضة. والسؤال الذى تناقشه حتى الآن دراسات أكاديمية: هل كان جمال الدين الأفغانى منتميا إلى إسلاميته وحدها، أم أن الظلال تشوب علاقاته بدول أجنبية مثل إنجلترا وروسيا القيصرية؟ إلخ..

والحق أنه ليس فى تباين النظرة إلى الشخصية الواحدة، أو الحدث الواحد، ما يسئ إلى "العملية التاريخية" فى إطلاقها، لأن المؤرخ ـ مهما يلتزم الحيدة ـ ليس عدسة تلتقط الحدث أو الشخصية فى صورة ثابتة المعالم، تلك ـ فى نهاية الأمر ـ عملية ميكانيكية، مع التقدير لإجادة اختيار الزاوية والأضواء والظلال.

المؤرخ بشر له نوازعه ومشاعره ورؤيته الخاصة واجتهاده الذى قد يصل إلى بعض الحقائق، ويخفق فى الوصول إلى بعضها الآخر.

من هنا يأتى التباين فى التناول التاريخى، وقد عبر أحمد بهاء الدين عن فهمه لذلك الاختلاف فى قوله: "إن التاريخ ليس شيئاً يكتب مرة واحدة، بل هو مادة تكتب مئات المرات"، وتكرار التناول يعنى اختلاف النظرة والرأى والاجتهاد، وإلا لانتفت الحاجة إلى تناول جديد لحادثة ـ أو فترة تاريخية ـ سبق تناولها فى كتابات الآخرين، بل ولاحتاج كل عصر إلى مؤرخ واحد يعرض لتطورات الأحداث، ثم يسلم المهمة ـ بالتقاعد، أو بالوفاة ـ إلى مؤرخ آخر، وهكذا..

وفى غالبية الأحيان، فإن المؤرخ يكون صادقاً فى تناوله للسير والأحداث، إنه لا يسعى إلى الزيف أو التشويه أو الاختلاق، لكنه يعبر فى صدقه عن وجهة نظر خاصة، قد لا تتفق دائماً مع الحقيقة المطلقة!.

ويروى طه حسين أنه التقى بسعد زغلول فى باريس، وسأله سعد:

ـ ماذا تدرس فى باريس؟

ـ أدرس التاريخ..

ـ أمؤمن أنت بصدق التاريخ؟..

ـ نعم، إذا أحسن البحث عن والاستقصاء له، وتخليصه من الشائبات.. أما أنا، فيكفى أن أرى هذا التضليل، وهذه الأكاذيب التى تنشرها الصحف فى أقطار الأرض، ويقبلها الناس فى غير تثبت ولا تمحيص، لأقطع بألاّ سبيل إلى تصفية التاريخ من الشائبات، ولأقطع بعد ذلك بألا سبيل إلى استخلاص التاريخ الصحيح من هذه الشائبات، وانظر إلى ما ينشر عنا فى مصر وفى باريس، وحدثنى كيف تستطيع أن تستخلص منه التاريخ الصحيح ؟!

التاريخ لم يعد سير ملوك وأمراء وزعامات ومؤامرات ودسائس ومعارك على مستوى القيادات التى تطمح للسيطرة ـ بمفردها ـ على مقاليد الأمور، وبالتحديد، فإنه من الصعب على المؤرخ أن يناقش الواقعة التاريخية بمعزل عن بانورامية الصورة، عن المنمنمات والتفصيلات الدقيقة والألوان والظلال، حتى لو بدت ـ للوهلة الأولى ـ غير متصلة بالواقعة التاريخية التى نعرض لها، ونناقشها.

ثمة الجغرافيا، والاقتصاد، والأدب، والوثائق، والفنون التشكيلية، والموسيقى، والفنون الشعبية والتطبيقية، وأدب الرحلات إلخ.. على المؤرخ أن يكون دارساً لكل تلك "العلوم"، أو ملماً بها بدرجة كافية فى أقل تقدير، حتى يتسنى له التصدى لعملية كتابة التاريخ.

من هنا جاء قول توماس مونرو، إن كتابة التاريخ تقوم على الاختيار والانتقاء، لأنه من المتعذر، كما أنه من غير المجدى، تسجيل كل الأحداث الماضية، مهمة المؤرخ ـ الكلام لمونرو ـ هى أن يختار أهم الأحداث ومجرياتها وتسلسلها، وينبغى عليه أن يعتمد فى هذا على مستوى الأهمية، وهى مستويات ذاتية نوعاً ما، يحددها اتجاهاته الشخصية الخاصة، فهو لا يختار ما يبدو له أنه مهم بصفة عامة فحسب، بل ما يبدو أنه مهم فى مجاله الخاص، ومن ثم فإن تاريخاً للاقتصاد يحاول أن يتتبع مجموعة واحدة من الخيوط عبر العصور المتعاقبة، كما يحاول تاريخ للأديان تعقب مجموعة أخرى متباينة، لكنها مرتبطة، كما يحاول تاريخ للزواج مجموعة ثالثة" (التطور فى الفنون ـ ٤٢).

كتابة التاريخ يصعب أن يقوم بها شخص واحد، إنما هى ـ إذا أردنا لها الاقتراب من "الحقيقة" ما أمكن ـ مسئولية جماعة، أو جماعات متنوعة

الهموم والتخصصات، فللعديد من المؤرخين نظراتهم المختلفة، وللمشارك فى الأحداث - إذا كانت معاصرة - ذكرياته ومذكراته، ولعالم الاجتماع رؤيته التى تتفهم البيئة والظروف ومألوف الحياة، وللكاتب السياسى تحليلاته التى قد تعبر عن فكر أيديولوجى، أو انتماء حزبى.. إلخ..

باختصار، فإن "الجماعة" هى الأولى بأن تكتب التاريخ، فإذا أقدم فرد على الكتابة، فإن عليه التنبه إلى أن محاولته صوت بين أصوات تختلف فى قراراتها - بالمعنى الموسيقى - وإن كانت تشكل فى مجموعها الهارمونى الذى تتسق به المقطوعة الموسيقية.

الستينيات:

ذلك الجيل الأدبي

لنتفق - بداية - على أنه من الصعب أن يتوافر فى مواليد فترة زمنية محددة - عشر سنوات مثلاً - توافق بيولوجى، وقناعات ثقافية وسياسية واجتماعية، بحيث نطلق عليهم تسمية الجيل، أذكر قول ميلان كونديرا : "ككاتب مبتدئ، كنت أمقت كلمة" جيل "التى تصيبنى رائحة القطيع المنبعث منها بالنفور"، مع ذلك، فإن المجايلة موجودة، وهى تعنى الاستمرار والتواصل، وليس القطيعة.

ثمة شروط يجب أن تتوافر فى ما يمكن أن نطلق عليه صفة "الجيل"، ومنها الشروط البيولوجية، وتقارب المشارب الثقافية، والهموم المشتركة التى تصهر مجموعة من الأدباء فى بوتقة واحدة، من الصعب تجاوز تلك الشروط، إلا إذا نسبنا الجيل - كما أسلفنا - إلى الحدث، أو مجموعة الأحداث المهمة التى أسقطت تأثيرها على أدباء الفترة، وبتعبير آخر، فإن صفة الجيل تطلق على الحدث، أو مجموعة الأحداث، وليس على الفرد، أو مجموعة الأفراد، كانت أعوام الحرب العالمية الأولى، وما أحدثته من نتائج، مبعثاً لإحساس الكثير من الشعراء الشباب - على مستوى العالم - بالانتماء إلى أوطانهم، ومحاولة التعبير عن ذلك الانتماء فى قصائد تمجد الوطن، وتشيد بتاريخه وعظمته.

وقد ظهرت الدادية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، تعبيراً عن كفر بعض المفكرين والفنانين بالمثل الفكرية والقيم الأخلاقية السائدة، بعد أن أحدثت شروخاً عميقة فى بنية المجتمع الأوروبى، وارتكزت الدادية إلى حتمية الخلاص من الأزمات التى تعانيها مجتمعاتهم، بهدم القديم، وتنحية العقل، فى تحقيق أهدافها الفوضوية.

وخرجت السوريالية من رحم الدادية، فى محاولة للانتقال من مرحلة الهدم إلى مرحلة البناء، ووضع مفاهيم جديدة لشكل العمل الفنى ومضمونه، السوريالية ليست وسيلة لتعريف المعروف، لكنها وسيلة لكشف المجهول، إنها تعنى الممكن والمتصور، ولا يشغلها الواقع، أما أشهر أعلام السوريالية فهم أندريه بريتون وبول إيلوار ولويس أراجون والفنانان التشكيليان بيكاسو وسلفادور دالى وعشرات غيرهم تحولوا ـ فيما بعد ـ إلى الإيمان بالاشتراكية، وإلى الالتزام انطلاقاً من الذاتية، وقدّموا إبداعات متميزة فى مقاومة الاحتلال النازى فى أعوام الحرب العالمية الثانية، جمعت بين الشكل الفنى والمضمون الثورى.

ومن أهم أدباء الحرب العالمية الثانية، أو ما بعدها، فى ألمانيا، فولفجانج بورشرت الذى ركز فى إبداعاته على صور الدمار الذى حاق بالأرض، وبالبشر، وحتى بنفسيات البشر، وإريش كستنر الذى تزخر أعماله بالنقد اللاذع، والأسى، وثمة جماعة ٤٧ التى ضمت العديد من الشعراء والأدباء، ولقيت دعماً مهماً من المثقفين والناشرين، ونال جوائزها أدباء كبار مثل هنريش بول وجونتر جراس اللذين حصلا ـ فيما بعد ـ على جائزة نوبل.

ولعلنا نستطيع أن نطلق صفة الجيل الأدبى فى روسيا، على الفترة ما بين عامى ١٨٠٠ وقيام الثورة البلشفية فى ١٩٠٥، كانت فترة مخاض هائلة، شعور جمعى بالإخفاق والمرارة، وحروب، وثورات، وظهر العديد من الأسماء المهمة مثل تولستوى وبوشكين وديستويفسكى وتشيخوف، وعشرات غيرهم، ثمة ملامح لما يمكن أن يكتسب تسمية الجيل فى الأدب الروسى: جيل روسيا القيصرية، وجيل ما بعد الثورة الشيوعية، وجيل الحرب العالمية الثانية، وجيل البروسترويكا، وجيل ما بعد انهيار الاتحاد السوفييتى.

وفى ١٩٦٩ قسم الناقد المكسيكى خوسيه لويس مارتنيث أدباء أمريكا اللاتينية إلى خمسة أجيال، فى مدى زمنى أقل من خمسين عاماً، بينما قسمهم الروائى ماريو فارجاس يوسا (بيرو) إلى جيلين: جيل الرواد، وجيل الأدباء المحدثين، وثمة من ذهب إلى أن مبدعى أمريكا اللاتينية يمثّلون جيلاً واحداً، يتفرع إلى عدة تيارات، أما الناقد رود ريجيث مونيجال فقد رفض فكرة المجايلة، ووضع عمليات التجديد فى محور رئيس تدور حوله مجموعة

من الاتجاهات، أهمها الواقعية الاجتماعية ـ الواقعية النفسية ـ الواقعية السحرية ـ الواقعية البنائية (حامد أبوأحمد: تقديم رواية من قتل موليرو)

ثمة جيل ١٨٩٨ فى إسبانيا، وليس جيل العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وقد بلغت الواقعية فى ذلك الجيل حداً فى الرواية يصعب تجاوزه، ويعد الروائى دون بيو باروخا أهم الروائيين الإسبان فى القرن العشرين من مبدعى جيل ١٨٩٨ الإسبانى، وثمة جيل ١٩٢٧ وليس جيل الثلاثينيات، وفى ١٩٣٦ بدأت الحرب الأهلية الإسبانية بين الملكيين والجمهوريين، ضمت القوى الأولى الجيش والكتائب والقوى اليمينية بعامة، وضمت القوى الثانية الاشتراكيين والانفصاليين وفصائل الألوية الدولية وأحزاب اليسار، وقد فقدت إسبانيا فى تلك الحرب عدداً كبيراً من أهم مبدعيها، سواءٌ بالقتل أم بالنفى الاختيارى فراراً بالحياة، وكان الشاعر الأندلسى الجميل فدريكو جارثيا لوركا واحداً من الذين اغتالتهم يد الأحداث. سكت صوت طالما تغنى بالحق والخير والحرية، وإن تواصل صوت لوركا فى الأعوام التالية، وإلى الآن. حتى بعد أن رحل كل الساسة والعسكريين الذين شاركوا فى تلك الحرب، ظل صوت لوركا نقياً ومؤثراً.

وإذا كان عام ١٩٣٦ هو بداية جيل الحرب الأهلية الإسبانية، فإن ١٩٣٩ هو العام الذى شهد نهاية تلك الحرب، وهو ـ فى الوقت نفسه ـ العام الذى بدأت فيه أحداث الحرب العالمية الثانية، وبتعبير آخر: بداية جيل الحرب العالمية الثانية فى أوروبا والولايات المتحدة، أفرزت الحرب الأهلية الإسبانية جيلاً جديداً من الروائيين، تأثر بأحداثها، وعبر عنها، كما فعل بيكاسو فى لوحته الخالدة "جرونيكا": "ما إن انتهت الحرب حتى بدأ عهد جديد من تاريخ الرواية، يغلب عليه هاجس خلق ثقافة خاصة، تلبى الطروحات الأيديولوجية الجديدة، ومقتلعة من جذور التقاليد السائدة" (أبواب ـ دورية ـ العدد الثلاثون).

ويعتبر عدد كبير من النقاد عام ١٩٦٢ هو العام الذى غير مجرى الرواية الإسبانية، عندما صدرت رواية "زمن الصمت" للويس مارتين سانتوس، وأحدثت تطوراً عميقاً فى الفنية والحبكة ولغة السرد، وأرست ما يعد ـ فى تقدير الكثيرين ـ تقاليد روائية جديدة فى تاريخ الرواية الإسبانية، وتوالت الروايات التى أحالها النقد إلى الواقعية الجدلية، ووجد فيها وسيلة لتبين الواقع التاريخى والواقع المجتمعى فى آن.

وثمة جيل ما بعد الفرانكوية ـ نسبة إلى الجنرال فرانكو ـ وهو جيل عاش تغييرات سياسية واجتماعية وثقافية مهمة.

وبعد هزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية، ظهرت إبداعات ما سمى بالجيل الثالث الجديد، وشمل عدداً كبيراً من الأدباء الشباب آنذاك.

ذلك كله، يجد مشابهاً له ـ بالضرورة ـ فى الأحداث المهمة التى شهدتها هذه المنطقة من العالم، ومصر ـ كما نعلم ـ فى موضع القلب منها.

***

لعله يمكن تقسيم الأجيال الأدبية ـ والسياسية بالطبع ـ فى تاريخنا المعاصر، إلى:

١ ـ جيل دنشواى (أعنى الجيل الذى عاش الملابسات القاسية لتلك الحادثة، وما رافقها، وأسفر عنها، بحيث مثلت دافعاً لقيام المصريين بثورتهم فى ١٩١٩)

١ ـ جيل ثورة ١٩١٩

٢ ـ جيل ثورة ١٩٣٥ ومعاهدة ١٩٣٦

٣ ـ جيل الحرب العالمية الثانية

٤ ـ جيل حرب ١٩٤٨ (تحقق انتماء مصر العربى بصورة فعلية)

٥ ـ جيل ١٩٥٢ (الثورة، ومواجهة الإقطاع والرأسمالية والاحتكارات وسقوط الملكية وإعلان النظام الجمهورى وتأميم القناة، ومواجهة الإمبريالية الغربية وإسرائيل)

٦ ـ جيل الستينيات (المشروع القومى ونكسة ١٩٦٧ وحرب الاستنزاف)

٧ ـ جيل ١٩٧٣ (حرب أكتوبر)

٨ ـ جيل الانفتاح (فى أعقاب ١٩٧٣)

٩ ـ جيل الفوارق الطبقية وذوبان الطبقة الوسطى، منذ أواسط ١٩٨٥ حتى الآن..

***

ظنى أن جيل الحرب العالمية الثانية، أو ما يسمى بجيل الأربعينيات ـ هو الأب الحقيقى للأجيال التالية (أذكرك بكتابى "آباء الستينيات")

يقـول شكرى عـياد عن ظروف الحـرب العـالميـة الثـانيـة إنهـا أدت إلى استقطاب الفقر، واستقطاب الثراء، وقد أصبح السواد الأعظم من المثقفين المصريين فى أثناء الحرب، وفى أعقابها، يشعرون أنهم ينتمون بواقعهم إلى الطبقات الكادحة من شعبهم الفقير، لكنهم لم يستطيعوا ـ للوهلة الأولى ـ أن يصوّروا أزمتهم من خلال الأزمات الطاحنة التى تعانيها الطبقات الدنيا.

وقد شهدت السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية سعياً واضحاً إلى التغيير، وهو ما تبدّى فى معظم كتابات منطلقاتها الأيديولوجية، أذكرك بكتابات محمد خطاب وخالد محمد خالد وحلمى سلام وفتحى رضوان وإحسان عبدالقدوس ونجيب محفوظ وعزيز أحمد فهمى وأحمد أبوالفتح وعبدالرحمن الشرقاوى وطه حسين، وعشرات غيرهم أدانوا سلبيات الفترة، وتطلعوا إلى التغيير.

أما عن الإبداعات الروائية والقصصية والشعرية وغيرها، فإن يوسف إدريس ويوسف الشارونى وعبدالله الطوخى وبدر نشأت وإدوار الخراط وكمال نشأت وحسن فتح الباب وفاروق منيب وغيرهم ممن ينتسبون إلى ما يسمى بجيل الخمسينيات، إنما هم ـ بالفعل ـ جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية، القضايا التى تناولتها إبداعاتهم عنيت بالأحداث والمشكلات والتجارب الغنية التى عنيت بها تلك الفترة.

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو، كتب سعد مكاوى عن "المعاول العديدة التى نحتاجها لبناء مجتمع جديد على أنقاض المجتمع القديم" (المصرى ١٩٥٢/١٠/٥)

من هنا، يمكن القول إن عقد الستينيات مثل جيلاً كاملاً إرهاصاته فى أحداث ما قبل ١٩٥٢، وبداياته فى ثورة يوليو ١٩٥٢، وامتداد آفاقه إلى هزيمة يونيو ١٩٦٧.

ثمة من وجد فى الستينيات ساحة للحكم الشمولى، والمعتقلات، وجرائم التعذيب، وفقدان الحرية، سماها صديقنا عبدالعزيز الدسوقى عقد الهزيمة اللعين، وسماها مصطفى سويف عقد الكوارث، وتسميات أخرى تتراوح بين التأييد والإدانة، لكن الذى أستطيع أن أقرره ـ فى ثقة ـ أن الفترة حركت ـ بديناميتها ـ مؤيدى النظام ومعارضيه على السواء، وكما يقول صلاح عيسى،

فمنذ منتصف الخمسينيات، وحتى منتصف الستينيات، بدا وكأن حركة التحرر العربى سائرة بخطى ثابتة فى طريق الانعتاق القومى من نير الإمبريالية، بل وساد الظن أننا طرقنا أبواب الاشتراكية، وهو ما كان يعنى - فى بعض وجوهه - أن الفكر القومى والعلمانى قد أزاح الثيوقراطية إلى غير رجعة (صلاح عيسى: الكارثة التى تهددنا - مكتبة مدبولى - ٥).

فى الستينيات، كنا نرنو إلى آفاق التحرر والاستقلال والديمقراطية والتنمية والعدالة الاجتماعية ورفع مستوى المعيشة، وكنا - مثل غالبية بلدان العالم الثالث - نصوغ خطط وبرامج التنمية، ونصدر وثائق الخطط الخمسية، واتجه العديد من البلدان إلى التصنيع بدلاً من الاعتماد على الموارد الطبيعية وحدها كالزراعة والمعادن والبترول، وكانت أسماء زعامات العالم هى: جمال عبدالناصر، ديجول، خروشوف، جيفارا، كاسترو، نكروما، لومومبا، سيكوتورى، موديبو كيتا، الليندى، هوشى منه، جياب، بن بيلا، مالرو، إلخ، وتألقت السوكارنية فى أندونيسيا (سقط عام ١٩٦٤) والنكرومية فى غانا، والناصرية فى مصر، والسيكوتورية فى غينيا، والموديبوكيتية فى مالى إلخ (جميع هؤلاء سقطوا فى أواخر الستينيات، وأوائل السبعينيات، ودانت بلادهم لعملاء الاستعمار الغربى)، وتحولت القاهرة إلى ملاذ لكل القوى المعارضة للنظم الرجعية العربية، أو المناضلة ضد الاحتلال الأجنبى لبلادها، مثل الجزائر وتونس وجنوب اليمن وغيرها، وتأكدت سياسة عدم الانحياز، كانت فترة ذهبية، هبت فيها - على حد تعبير إدوار الخراط - رياح التغيير العارمة على إفريقيا، حاملة معها بهجة الاستقلال، ونشوة ظهور الأمم الفتية الجديدة (مرفأ الذاكرة - كتاب العربى - ٤٣)

والملاحظ أن المواجهات الدولية لم تكن الغلبة فيها - دوماً - للأقوى، فقد دخلت القوات السوفيتية تشيكوسلوفاكيا والمجر، بينما تراجعت الولايات المتحدة عن تهديدها لكوبا، وتورطت واشنطن فى المستنقع الفيتنامى، واستقل معظم دول إفريقيا، وإن ظلت أصابع الاستعمار تتحرك من وراء الستار، وكان مقتل الزعيم الكونغولى لومومبا (فبراير ١٩٦١) ذروة الجرائم التى ارتكبت بتحريض من الاستعمار.

كان رأى هربرت ماركيوز أن الطبقة العاملة فقدت دورها فى قيادة

المجتمع، بعد أن استوعبها المجتمع الصناعى فى داخله، وربطها بمصالحه، فتحولت من طليعة ثورية إلى جزء من طبقة لها مصالحها وتطلعاتها التى قد لا تكون مشروعة فى بعض الأحيان، وجد ماركيوز فى الأنتلجنسيا (فئة المثقفين) وفى مقدمتها الطلاب، بديلاً ثورياً عن الطبقة العاملة، وجد فى الطلبة ورثة شرعيين لروح الثورة فى العالم، وإن عدل عن ذلك الرأى، أو عدّل فيه - فيما بعد - فوجد فى الطلبة مظهراً من مظاهر نفى المجتمع الاستهلاكى.

عمت مظاهرات الطلبة الكثير من دول العالم، فى أوروبا والولايات المتحدة، لكل مظاهرة بواعثها وأهدافها، وتوحدت جهود حركات المعارضة الطلابية فى عدد كبير من دول العالم ضد استمرار حرب فيتنام، وتصاعدت الحركات الطلابية فى أوروبا فيما بين عامى ١٩٦٤ - ١٩٦٨، وكان قتل تشى جيفارا، داخل بوليفيا، فى يونيو ١٩٦٧، ذروة أخرى فى النضال ضد الإمبريالية العالمية، رسمت صورة جيفارا فوق الصدور، ورفعت شعارات ضد الحرب فى فيتنام، وضد القواعد الأمريكية فى اليابان والفلبين.

والحق أن حرب فيتنام كانت هى الشرارة التى اندلعت بها الأحداث الطلابية فى فرنسا، ففى ١٩٦٨ كانت الغطرسة الأمريكية تتهاوى على يد الثورة الفيتنامية، وشملت الثورة بلدان أمريكا اللاتينية، وكان الشعار هو: أكثر من فيتنام واحدة، وفى فرنسا، اشترك ثلاثمائة طالب ينتمون إلى تنظيمات طلابية يسارية صغيرة، فى مظاهرات احتجاج ضد القبض على عدد كبير من أعضاء لجنة فيتنام الوطنية، واقترن ذلك - فى اليوم نفسه - بشعارات ترفض الأوضاع الداخلية فى جامعات فرنسا، وتطالب بتغييرها، وتردد - للمرة الأولى - شعار: لا نريد جامعة بورجوازية، وامتدت الشعارات - والمطالب بالتالى - لتصل إلى شنق آخر رأسمالى، وآخر بيروقراطى" و"الاشتراك فى الثورة العالمية" إلخ.. ولأن المظاهرات جرت فى ١٩٦٨، فقد سمى الجيل باسم العام نفسه، فهو جيل ١٩٦٨، جرت الأحداث فى الأسبوع الأول من مايو ١٩٦٨، وصفتها فرنسواز جيرو وزيرة الثقافة الفرنسية - فيما بعد - بأنها هزّت فرنسا كلها، شهدت شوارع العاصمة الفرنسية معارك عنيفة لم تشهدها منذ الحرب العالمية الثانية، وواجه ثلاثون ألف طالب داخل أسوار

الحرم الجامعى حصاراً من رجال الشرطة، فأقاموا المتاريس، وألقوا الزجاجات الحارقة وقطع الحجارة، وكان الطلاب يرفعون شعارات مثل: أيتها الثورة إنى أحبك، والخطر ممنوع، وغيرها، وامتدت المظاهرات إلى الحى اللاتينى، وميدان سان جيرمان، وفى توالى الأيام، ساند العمال الطلاب، فأصيبت المدن الفرنسية بالشلل، وأعلن ديجول أنه لن يقيل رئيس وزرائه جورج بومبيدو.

وكما أشرنا، فقد كان من بواعث قيام حركة الطلاب فى فرنسا إعلان احتجاجهم على سوء الأوضاع داخل الجامعات من ناحية، وضد "التشويهات الرأسمالية" للحياة الفرنسية من ناحية ثانية، فضلاً عن غياب محاولات الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى، ويشير محمد برادة إلى أن هبة صيف ١٩٦٨ فى فرنسا، نشرت على نطاق واسع أفكار جورج باتاى وفوكو وماركيز دى ساد وجان جينيه، "آلاف الشباب والطلبة والعمال تداولوا أياماً وليالى متواصلة فى موضوعات الجنس والسلطة وغائية الحياة، ولماذا الاستمرار فى القبول بعلاقة حتمية تقديس المذاهب والزعماء والأيديولوجيات على حساب الإنسان البسيط الذى يريد أن يستمتع بحياته على الأرض، وأن يصنع مصيره هنا، والآن، بعيداً عن الأناجيل والصحف والتعاليم التى تغسل دماغه، وتشل مخيلته، لتجعل منه مجرد مسمار صغير فى ترسانة ضخمة تسحق البشر لتحقق أرباحاً، وسلطة تستفيد منها قلة ليبرالية أو شيوعية أو اشتراكية أو قروسطوية متعصرنة" (مثل صيف لن يتكرر - ١٢٧)، إن أسئلة مايو ١٩٦٨ - على حد تعبير برادة - كانت "توسع مفهوم الثورة، وتدعو إلى ربطه بالحياة اليومية للإنسان، رافضة التقديس والمطلق وحواجز المرئيات، لذلك لا يمكن الاكتفاء بالعقل، وهو ذات العقل الذى انحدرت منه الفاشية والنازية، مفصولاً عن الإحساس والمخيلة والجسد (المصدر السابق - ١٢٨)، ويذهب ألفين كريان إلى أن ما حدث فى شتاء ١٩٦٨ فى فرنسا كان ثورة فكرية وليس ثورة شوارع، وقد أسقطت هذه الثورة النظام الأدبى القديم، وكان النقد الأدبى هو السلاح الرئيس لهذه الثورة (موت الأدب - ٧٨)

ويصف جابرييل جارثيا ماركيث جيل الستينيات الأمريكى بأنه "دخّن الماريجوانا، غنى أغنيات البيتلز من الذاكرة، تظاهر فى الشوارع احتجاجاً

على حرب فيتنام"، لقد اندلعت المظاهرات وحركات الاحتجاج بين الشباب فى الولايات المتحدة ضد الرئيس نيكسون لاستمرار الحرب الفيتنامية، وتأييداً لمنح الزنوج الحقوق المدنية، ومساواتهم بالبيض، ووقعت - فى ١٩٦٨ - معارك فى منتهى العنف بين قوات الأمن الأمريكية وجموع المتظاهرين من الشباب فى مدينة شيكاغو، وكان الشبان يحرقون بطاقات التجنيد، بينما كانت الفتيات يحرقن مشدات الصدور، وسقط من جامعة باركلى وحدها نحو خمسة وسبعين طالباً.

شملت المظاهرات مدن العالم فى سويسرا وبلجيكا وإسبانيا وإيطاليا والنمسا واليابان وهولندا وبريطانيا، قادها أنصار ماو تسى تونج وهوتشى منه وفيديل كاسترو وتشى جيفارا، والمناهضون للحرب الأمريكية فى فيتنام، والداعون إلى التطبيق الاشتراكى، وإلى حصول الشباب على الفرص التى يستحقونها.

وفى الجزائر، كان غالبية القيادات الطلابية فى السجن، بعد أحداث العنف خلال أعوام ١٩٦٨ - ١٩٧١، وقد حولوا - بعد الإفراج عنهم - إلى معسكرات الجيش لأداء الخدمة العسكرية.

وبصرف النظر عن اتجاه الثورة الثقافية فى الصين إلى الإيجاب أو إلى السلب، فإنها أحدثت تغيراً كاملاً فى الحياة الصينية، أحرق الكثير من الكتب والصور القديمة والحديثة، كما دمر ما سمى بالسلع البرجوازية، والأزياء المشابهة لأزياء الغرب، وأزيل الشعر الذى قلد أصحابه نجوم السياسة والفن الغربيين، ومزقت البنطلونات الضيقة من أسفل، ودمر كل ما يمكن نسبته إلى البدع الغربية.

وفى تقديرى أن مواقف المثقفين المصريين من الثورة - الشباب بخاصة - كانت تعبر عن اتجاهين متضادين، تنازعت الميديا - فى كل من الصين والغرب - إمكانية الوصول - بالمعلومة والصورة - إلى الرأى العام العالمى، وواجه ما أعلنته الصين من منجزات للثورة الثقافية، نقل الإعلام الغربى عمليات الاعتقال والسجن والإعدام للأصوات التى قُدّمت بأنها وطنية تماماً، لكنها فرضت ديكتاتورية ماو، وحزبه الشيوعى، وكتابه الأحمر.

وإذا تجاوزنا ملاحظات الاتفاق والاختلاف مع قرارات التأميم (١٩٦٢)

فلا شك أنها كانت تأكيداً لملامح المشروع القومى التى بدأت تتضح فى العديد من المجالات.

كانت عملية إنشاء السد العالى ـ وما صحبها من محاولات للتطوير فى المجال الصناعى ـ تستهدف تحويل مصر من صورتها التقليدية كمجتمع زراعى إلى مجتمع صناعى متقدم تكنولوجياً، وعرفت وسائل الإعلام ـ للمرة الأولى ـ مسميات مثل: القطاع العام، الحل الاشتراكى، التعاون، العدالة الاجتماعية، تأميم قناة السويس، القوانين الاشتراكية، مجانية التعليم، حق التأمين والمعاش، بناء السد العالى، إنشاء المدن الجديدة، إلخ، وبلغت عملية التنمية الاقتصادية نسبة تصل إلى ٧,٥ ٪ سنوياً، وهى أعلى نسبة للتنمية الاقتصادية فى العالم آنذاك، لم يكن ثمة تضخم، ولا زيادة فى الأسعار، وكانت مصر بعامة على رأس قائمة الدول الأقل أسعاراً فى العالم، وكما يقول الاقتصادى الكبير حسن عباس زكى، فقد حققت مصر ـ فى الستينيات ـ أقل عجز فى ميزان المدفوعات عبر تاريخها المعاصر كله، وكان هناك فائض فى ميزان المدفوعات فى بعض السنوات، كما تحقق أقل معدل فى الديون الخارجية، إلى حد عدم وجود ديون خارجية أحياناً، ونَشرتُ فى "المساء" (مايو ١٩٦٧) تصريحاً للمهندس محمد صدقى سليمان يبشر فيه ببدء تصدير البترول فى يونيو ١٩٦٧، أى شهر النكسة!

ولاشك أن الكثير من حملة الشهادات العليا يدينون للمجانية التى قررتها الثورة، وبدأت تؤتى ثمارها فى أعوام الستينيات، وبالذات فيما يتصل بالبعثات العلمية إلى الخارج، كانت تأميمات الستينيات خطوة تالية لتمصيرات الستينيات.

واختيرت أول امرأة لمنصب الوزيرة، عينت حكمت أبوزيد وزيرة للشئون الاجتماعية فى سبتمبر ١٩٦٢،

✫✫✫

يقول جمال حمدان: "الستينيات كانت أكثر الفترات ازدهاراً للثقافة، هذه حقيقة لا مفر منها، والسبب: السياسة أولاً وأخيراً، والثقافة ألصق ما تكون بالسياسة، والستينيات كانت قمة الثقافة، والسبعينيات قاعها" (آخر ساعة ٢٠/٨/١٩٨٦)

من إصدارات الفترة سلسلة الألف كتاب، وروائع المسرح العالمى، والمكتبة الثقافية، وأعلام العرب، وتراث الإنسانية، ومجلات المجلة والكاتب والفكر المعاصر والطليعة والفنون الشعبية، وغيرها، وقد سدت بالفعل فراغاً معرفياً، وقدم الكونسير عروضه - بأسعار مخفضة كل يوم جمعة - للطلاب، وأرخ الثلاثى جاهين والطويل وعبدالحليم للثورة بأغنيات رددتها الجماهير فى امتداد الوطن العربى، وتألق شعر العامية المصرية فى إبداعات الأبنودى وحجاب وقاعود ومجدى نجيب، وأبدع صالح رضا وحامد ندا وجاذبية سرى وجمال السجينى وعمر النجدى وتحية حليم وسيد عبدالرسول وصلاح عبدالكريم وعبدالقادر مختار وغيرهم، أروع إبداعات الفن التشكيلى، حتى الندوات الأدبية شكلت ظاهرة إيجابية: ندوة الأمناء، ندوة نجيب محفوظ، ندوة العقاد، نادى القصة، جمعية الأدباء، الجمعية الأدبية المصرية، وغيرها، وسعى الشباب إلى قراءة، ومشاهدة، أعمال بيكيت ويونيسكو وناظم حكمت ودورينمات وبيتر فايس وبريشت وإيلوار. كانت أعمالاً تجريبية، ومتقدمة، وتعنى بالهم الإنسانى فى أبعاده المختلفة، وثمة كذلك مسرحيات نعمان عاشور ذات الاتجاه الواقعى الريادى، ومسرحيات ألفريد فرج التى وظفت التراث والتاريخ، ومحاولات يوسف إدريس لإيجاد مسرح مصرى يحاكى السامر، والشرقاوى وعبدالصبور فى المسرح الشعرى، ومحمود دياب بمسرحياته التى أجادت مزج الملحمة البرختية والواقع المصرى والحداثة الفنية، وأعمال سعد الدين وهبة بتعبيرها عن الريف، والطبقات الأدنى فى المدينة، ومسرحيات نجيب سرور التى أجادت استلهام الموروث الشعبى فى صياغة شعرية، وإضافات ميخائيل رومان ولطفى الخولى ورشاد رشدى، وحاول توفيق الحكيم التجريب فى"يا طالع الشجرة" و"رحلة قطار" و"بنك القلق" وغيرها، وبدأ نجيب محفوظ مرحلته الروائية الثالثة، واختط محمد حافظ رجب مساراً جديداً رائعاً للقصة القصيرة المصرية، وعاد يوسف إدريس إلى صورته الحقيقية فى "الفرافير" و"النداهة" و"مسحوق الهمس"، وكتب يوسف الشارونى مجموعته الفذة "الزحام".

ولأنه من المستحيل تصور أن مبدعاً قدم معطياته دون قراءة، دون أن يتابع الإبداعات السابقة، باعتبار أنها تمثل رصيداً يصعب إهماله من خبراته

الفنيـة، فقـد واجهت الواقـعيـة الجـديدة ـ منذ بـداية السـتينيـات ـ مـلاحظات سلبية نقدية عديدة، أهمها افتقارها إلى الخيال والتحليل التلقائى، وأخذت عليها استاتيكيتها، وعدم تطلعها إلى آفاق أرحب، وخضعت إبداعات شباب الجيل لتأثيرات أعمال سارتر ومحفوظ وكامى وفرجينيا وولف وإدريس والشارونى وساروت وجويس وتشيخوف والخراط وغيرهم، بتعدد المدارس الفنية التى يعبرون عنها، وإن كنت أوافق على الرأى بأنه كان "للقفزات التعبيرية جذور جنينية تمتد فى أعماق الأقصوصة المصرية لسنوات بعيدة، إلا أن ما تعيشه الأقصوصة المصرية اليوم ليس مجرد استمرار عادى لهذه البذور الجنينية، لكنه فى الحقيقة تجاوز وتخطى لكل ما أرهصت به هذه البذور من تغييرات، ولكل ما تنبأت به من أشكال وأساليب تعبيرية" (صبرى حافظ: جاليرى ٦٨ ـ أكتوبر ١٩٦٩).

أصبحت الذات هى المحور الأهم فى معظم الإبداعات، إبداعات الشباب تحديداً..

أذكر مقالة ممتازة للطيفة الزيات، أجادت فيها التعبير عن المأزق الذى كان يحياه الأدب العربى منذ أواخر الستينيات ـ وأزعم أن المأزق كان قائماً قبل ذلك ببضعة أعوام ـ تقول: "منذ أواخر الستينات والأدب العربى يوغل فى مسالك مختلفة، محاولاً الإمساك بالواقع العربى، أو هارباً من هذا الواقع، وقد غرق الأدب العربى، والقصص العربى خاصة، أحياناً، فى العالم الداخلى للكاتب دون عالمه الخارجى، مسجلاً حالة الاغتراب والحصار النفسى، وعجز الفرد عن التعامل مع الحياة، وانعدام الجدوى والمعنى الذى يستشعره الفرد، وسعى الأدب حيناً، وتحت وطأة الأحداث، إلى تسجيل شهادة عن هذا الواقع عامداً إلى الدلالة المجردة، ومختزلاً الواقع الحى إلى علاقات أشبه بعلاقات الجبر، وضارباً بالمتطلبات الفنية عرض الحائط، وهو يخرج بأشكال هندسية متقنة الصنعة والحبكة والصناعة، وضاع الأدب أحياناً فى متاهات التجريب والتغريب، تكريساً لاغتراب الفنان، هذا فى حين نجح الأدب أخيراً، وعلى يد صفوة من الكتّاب، أغلبهم من الأجيال الجديدة، فى الوصول إلى نوع من الواقعية الرمزية، توحى إيحاءً مكثفاً ودالاً بطبيعة الواقع العربى الذى نعيشه" (أدب ونقد ـ إبريل ١٩٨٤)، هذا هو المعنى الذى كتبته ـ أو ما يقرب منه ـ فى

رسالتى للمستعربة الألمانية الصديقة دوريس إيربينبيك، ولأنها كانت غارقة لشوشتها فى الأيديولوجية وسياسة الحزب، فقد فضلت أن تنهى صداقتنا الجميلة من طرف واحد، توقفت رسائلها فجأة، وحين بعثت رسالة تستهدف إزالة ما قد تكون ألحقته رسالتى الغبية إلى إيربينبيك بصداقتنا الجميلة، فإنها ظلت على صمتها، فاضطررت إلى التناسى، فالنسيان، حتى تذكرتها فى أخبار صحفية نشرت فى التسعينيات ـ بالتحديد: بعد زوال الشيوعية من ألمانيا الشرقية، وإعادة توحيدها من نصفها الغربى ـ وتساءلت: هل لا تزال إيربينبيك تعنى بالأدب بقدر ما يعبّر عن النظريات الأدبية المستمدة من الماركسية اللينينية؟..

لكن تلك ذكريات قديمة، وسنوات مضت، فلا سبيل إلى استعادتها!

***

فى ١٨ مايو ١٩٦٧ كان انسحاب قوات الطوارئ الدولية من الحدود المصرية – الإسرائيلية، بناء على طلب عبدالناصر، وبموافقة سريعة من يوثانت سكرتير عام الأمم المتحدة، خطوة أولى نحو هزيمة ١٩٦٧ التى أجهضت المشروع القومى، وأفرغته من محتواه تماماً.

خطب عبدالناصر فى جنوده، تحدث عن نظرة الغرب إلى الشعب العربى، شبهها بنظرة المستعمرين البيض للهنود الحمر، ووصف إيدن رئيس الوزراء البريطانى آنذاك ـ فرط ثقة! ـ بأنه "خرع"، وأتاح لى اشتغالى بالصحافة أن أناقش تحليلات انتهى غالبيتها إلى أن الحرب المدمرة قد تستعيد فلسطين فى أربع وعشرين ساعة، أما الحرب التى تحرص على تقليل الخسائر، فقد تمتد إلى سبعة أيام.

ردد الناس أغنيات أم كلثوم وعبدالحليم حافظ وفايدة كامل ووردة وغيرهم: خلى الصقور الجارحة تنهش لحمهم.. خللى الرمال العطشى تشرب دمهم، راجعين بقوة السلاح.. راجعين بقوة الحمى.. راجعين كما رجع الصباح.. من ألف ليلة مظلمة، أحلف بسماها وترابها.. أحلف بدروبها وأبوابها.. ما تغيب الشمس العربية.. طول مانا عايش.. فوق الدنيا، يا بركان الغضب.. يا موحد العرب، ابنك يقول لك: يا بطل هات لى نهار، إلخ..

لكن زلزال الهزيمة قوض كل ما شيد فى أعوام ما قبل ١٩٦٧، تلاشت

الطموحات والتطلعات والتوقعات، كأنها لم تكن، احترق الفيلم، فأصبح ذكرى، صعب علينا الرجوع بقوة السلاح، ولم يتح للصقور الجارحة أن تنهش لحم الأعداء، ولا لرمال الصحراء أن ترتوى بدمائهم، العكس هو ما حدث، تلقى المقاتل المصرى ضربة لم يتح له ردها حالاً.

غيبت الهزيمة ما كان مطروحاً من شعارات فى ضوء الواقع، وأحدثت انكساراً فى الروح المصرية، وكان أوضح دلائل ذلك الانكسار توقف تيار الإبداع لاستيعاب الدروس، والإفادة منه، وإلقاء أسئلة الدهشة والغرابة، وانعكست الهزيمة فى حياتنا تسيباً، وفقداناً للكثير من القيم والثوابت، دخل المجتمع فى حالة غيبوبة تجاوز حتى ما ألفته بعض قطاعاته من إيمان بالخرافة، ثمة التنجيم بقرب النصر فى موعد محدد دون قتال، وثمة سلة لتحضير الأرواح، وغيرها من الظواهر التى كانت انعكاساً مباشراً لما تمخضت عنه النكسة من نتائج سلبية، ذاعت الأغنيات المخنثة، وانتشرت المخدرات والمكيفات، وغاب الشعور بالانتماء، وساءت العلاقة بين الأجيال المختلفة، إلى الأسرة الواحدة، الأبوين والأبناء، وعلى حد تعبير صديقى ماهر البطوطى، فقد ساد الجميع شعور بسقوط المشروع القومى.

حل مناخ الانكسار على كل المستويات السياسية والاجتماعية، وحدث تطاحن وخيبة أمل وإحساس باللا جدوى، واتجهت التسميات إلى القتامة واليأس والتشاؤم، فهو عصر الهزيمة ـ والتعبير لكولن ولسن ـ وهو عصر الاستشهاد فى تسمية نجيب محفوظ، وهو عصر الرداءة فى تسميات أخرى.

وإذا كانت صدمة الهزيمة قد أخرست العديد من الأقلام، فإن نجيب محفوظ زاد من إيقاع كتاباته، كتب الديالوج الذى يتوهم درامية المسرح، وصارحنى أنه لم يعد يشغله حتى الكتابة بلغة المقامة، لأن الوصول إلى الناس ـ على حد تعبيره ـ هو ما يشغله!

ولعلى أميل إلى رأى أحمد عباس صالح بأن حرب ١٩٦٧ كانت حرباً استباقية بالمعنى الذى يتردد الآن، استبقت التحولات إلى تنمية اقتصادية قوية، والتحولات إلى شىء من النظام الاشتراكى، وأوقفتها قبل أن تترسخ فى قلب المجتمع المصرى، وهو ما حدث بالفعل، ووفقاً لتخطيط لا تكاد تخطئه

العين (أحمد عباس صالح: عمر فى العاصفة ـ ١٥٢) (أذكرك بتصريح محمد صدقى سليمان!)

فرضت هزيمة ١٩٦٧ واقعاً جديداً، وألقيت أسئلة حول الانتماء والكينونة والمصير، فضلاً عن محاولة رد الصفعة الغادرة، بدا التغيير ضرورة ملحة، عبرت عنها مظاهرات التاسع والعاشر من يونيو التى لم تقتصر على المناداة بعودة عبدالناصر، وإنما دعت إلى المحاسبة مظاهرات فى الإسكندرية، وفى غيرها من المدن، كما ارتفع شعار محمّل بكلمات قاسية، تعيب على عبدالناصر إعلان تنحيه بعد أن غرقت البلاد ـ بنص كلمات الشعار ـ على يديه!

كانت تقديرات الخبراء العسكريين أن مصر تحتاج إلى فترة طويلة كى تستعيد تماسكها، وحدد موشى ديان ألف عام حتى تعود العسكرية المصرية، لكن زعامة جمال عبدالناصر ـ كثير المجد والأخطاء على حد تعبير الجواهرى ـ صرفت معظم جهدها إلى إعادة البناء، ومواجهة التحدى، تكونت منظمة سينا العربية، وبدأت حرب الاستنزاف، واستؤنفت المعارك على امتداد ضفتى القناة الغربية والشرقية، واستشهد عبدالمنعم رياض ـ وسط جنوده ـ فى ٩ مارس ١٩٦٩.

ولعل من إيجابيات ما بعد الهزيمة، ذلك الكتاب المهم "شخصية مصر" للراحل جمال حمدان، حاول ـ من خلال حقائق علمية ـ أن يعيد للشخصية المصرية ثقتها، وشعورها بالذات، وأن الهزيمة فى حياة الشعب المصرى قد تمثل عارضاً، لكنها لا تتسم بالديمومة.

ولعلى أسمح لنفسى بأن أشير إلى محاولة متواضعة فى فترة ما بعد الهزيمة، للتأكيد على الهوية الوطنية، وتعبئة المصريين للتحدى، والمقاومة، بعرض العديد من الكتب التى تناقش قضايا الوطن، أذكر منها كتاب جمال حمدان، وكتب "مصر ورسالتها" لحسين مؤنس، وسندباد مصرى لحسين فوزى، وفى أصول المسألة المصرية لصبحى وحيدة، وغيرها.

وكم كان مؤثراً أن يشهد عقد الستينيات المصرى نهايته بموت جمال عبدالناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ (رحل ديجول، رمز الإرادة الفرنسية فى العام نفسه)، كنا نتابع أخبار مرضه، وسفره للعلاج فى تسخالطوبو، لكن الموت لم يكن يشغلنا، ولا تصورناه!

☆☆☆

لا أذكر من وصف جيل الستينيات بأنه جيل الأحلام العظيمة والانكسارات العظيمة.

التسمية - فى تقديرى - صحيحة تماماً، الشعب العربى يواجه اتهاماً بأنه غير مشارك، ويفتقد الإحساس بالانتماء، وقد ردت فترة الستينيات على ذلك الاتهام بصورة عملية، حين التفت حول زعامة رفعت شعارات القومية والوحدة والعدالة الاجتماعية، تبينت الجماهير أنها لم تكن مجرد شعارات جوفاء، وأن عبدالناصر يشغله - بالفعل - أن تجد شعاراته سبيلها إلى التحقيق، وامتدت شعارات "الناصرية" - كما سميت مبادئ عبدالناصر - من المحيط إلى الخليج، وحتى الآن، فإن معظم الأقطار العربية بها أحزاب أو تنظيمات سياسية، جعلت من الناصرية تسمية لها.

هامش: لعل الإضافة المطلوبة فى نهاية هذه الدراسة - التى نشرت فى مجلة "وجهات نظر" سنة ٢٠٠٨ - أن ما حدث فى الخامس والعشرين من يناير، وما تلاه من محاولات لاستعادة ما نهبه اللصوص، والقضاء على مظاهر الفساد، بدّل الصورة تماماً.

جماعية الأداء

معادلة العلاقة الإنسانية تعنى ـ بأبسط عبارة ـ أنا والآخر، أو أنا والآخرون، بمعنى أنه لابد أن يكون قوامها طرفين، باتصالهما تحدث إيجابية العلاقة.

عندما أنصت إلى مشكلة ما، فإنى أحاول أن أتصور نفسى فى موضع صاحب المشكلة، يحزننى من يهمل مشكلات الآخرين، إذا حدثته عن مشكلة تخصك، فإنه يتحدث عن مشكلة شخصية لا شأن لها بمشكلتك، هو المحور والمبدأ والمنتهى، لا شأن له بالآخرين.

ولكى تتحقق جماعية الأداء، فلابد أن تختفى شخصيات مثل محجوب عبدالدايم فى القاهرة الجديدة، ويوسف السويفى فى الرجل الذى فقد ظله، وحسنين كامل على فى بداية ونهاية، وشخصيات روائية كثيرة هى ـ فى الحقيقة ـ انعكاس لشخصيات تنتسب إلى الواقع المعاش.

عندما تتمحور اهتمامات المرء حول ذاته، فإن صلته بالآخرين تشحب إلى حد التلاشى، تغيب الثقة والصداقة والجيرة والألفة والمؤانسة، وكل ما هو إنسانى جميل، ليحل النفور والتباعد والتباغض.

من الصعب أن يعبر الرأى الفرد عن رأى الجماعة، أو الفكر الفرد عن فكر الجماعة، إن أفق الحياة يتجاوز الخبرات الفردية إلى خبرات الجنس البشرى.

التجربة الشخصية تخص المرء وحده، وهى قد لا تستوقف الآخرين، وربما وجدوا فيها سذاجة وبعداً عن الواقع.

من الصعب أن تجعل من التجربة الشخصية، الرأى الشخصى، الاجتهاد

الشخصى.. تابو يصعب مناقشته، أو اختراقه، أنت تبدى رأيك، وأنا أبدى رأيى، الأمر نفسه بالنسبة للآخرين، ويفرض رأى الأغلبية نفسه فى إطار ما يسمى الديمقراطية.

نحن نرفع شعارات الإصلاح والتطوير والتقدم، والجماعية هى الوسيلة لتحقيق تلك الشعارات، ثمة من يبدى الرأى، أو الملاحظة، أو الخبرة، بينما تعنى الجماعة بالتطبيق، وبالطبع فإن الأدوار هنا تبادلية، ليس ثمة رأى واحد، بينما تنصرف الجماعة إلى التنفيذ، ثمة المهندس والعالم والطبيب والفنان، كل يدلى برأيه فى مجال ـ قد لا يكون مجاله ـ ويخضع الآن لمناقشات ووجهات نظر، فإذا اتفقت عليه الجماعة (أذكرك بالديمقراطية) فإنها تبدأ فى تطبيقه.

التخلى عن الفردية يستلزم مراجعة الذات، حظها من الاتفاق والاختلاف مع الآخرين، مؤشر الصداقة والعداء، ماذا أخذ المرء، الفرد، وماذا أعطى، هل يؤمن بالرأى الآخر؟ هل يؤمن بمبدأ التضحية؟

القائد الجيد يستطيع ـ بما يملك من وعى وذكاءٍ وقدرة على التخطيط والإدارة ـ أن يبعد شبح الهزيمة، ويحل بالانتصار بدلاً منه، ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما فعله مونتجمرى فى قيادته لقوات الحلفاء، بعد أن أوشكت القوات الألمانية على دخول الإسكندرية، مقدمة لدخول الأراضى المصرية جميعاً.

الفرد القائد الذى يحسن الإدارة والتوجيه، ضرورة فى أى عمل جماعى، شريطة ألا يتحول الفرد إلى ديكتاتور، إلى صنمٍ، إلى تابو، لا يُسأل عما يفعل ولا حول ولا قوة إلا بالله لكن عالم دين فاضلاً طالب أعضاء مجلس الأمة (مجلس الشعب الحالى) أن يكون هذا هو تصرفهم مع الرئيس الراحل أنور السادات، القرار الذى يوقعه فرد يجب أن يكون معبراً عن رأى الجماعة، عن إرادة الجماعة، وليس عن مصالح الفرد، أو قناعاته وهواه الشخصى.

صديقى فنان تشكيلى، كان يقترح على زوجته ـ فنانة تشكيلية ـ أن تأخذ ابنهما، وتقيم فى بيت أمها، يرفق مطلبه بوضع ملابس الزوجة والطفل فى حقيبة، يسندها إلى جانب الباب.

تهمس الزوجة: بيت أمى بعيد عن مدرسة الولد.

يقول فى بساطة: لا شأن لى! أريد أن أتم لوحة كبيرة.

تدرك الزوجة ـ الفنانة ـ أنه من الصعب مناقشته، تستكمل ما تحتاج إليه من ملابسها وملابس الطفل، تدسها فى الحقيبة، وتمسك بمعصم الولد، وتفتح الباب.

كان صديقى يتخذ القرار، وينفذه، دون شخط، ولا نتر، ولا إملاء أوامر، هذه هى قناعته فى تلك اللحظة، وعلى الزوجة أن تلبى ما يريده زوجها!

الديمقراطية التى نروج لها فى وسائل الإعلام تستلزم أن يتنازل المرء عن وجهة نظره الخاصة، مقابلاً لاحترام وجهة نظر الجماعة.

لكن الجماعية لا تعنى السداح مداح، لا تعنى التشابك والاختلاط، ولا الفوضى، لابد ـ فى تقديرى ـ من العقول التى تدرس، وتفكر، وتخطط، قد يكون فرداً أو بضعة أفراد، القيادة مهمة ومطلوبة، لكن الجماعية فى الرأى، فى الموافقة الموضوعية، والاختلاف الموضوعى، مهمة ومطلوبة كذلك، وقد سئل كاسترو عن رأى الجماعة فى اتخاذ قراراته، قال: أنا لا أتخذ قراراً إلا بعد أن ألجأ إلى رأى يختلف عن القرار الذى تنوى اتخاذه، أضاف: أتخذ القرار بنفسى لأنى سأتحمل تبعاته.

الثقة يجب أن تكون متبادلة، ليس بين الفرد والآخر، لكن بين الفرد والجماعة، أى فرد من أية جماعة، الثقة مسئولية أفراد الجماعة، كل من جانبه، وليست مسئولية ضبابية أو مطلقة.

ومع تعدد وجهات النظر حول المتسبب فى خروج فريقنا القومى للشباب من الأدوار التمهيدية فى مباريات كأس العالم لكرة القدم: هل هم اللاعبون؟ أم الجهاز التدريبى؟ أم قلة الإمكانات؟ (أنفقنا على الفريق نحو ٢٥ مليون جنيه!) أم الحشد الإعلامى والجماهيرى الذى أثر على أعصاب اللاعبين، فخانتهم؟

مع تعدد وجهات النظر، فإنها اتفقت فى توجيه الاتهام لفردية الأداء، كل لاعب كأنه يلعب لحسابه، يستعرض موهبته، يحرص أن يشق طريقه ـ بمفرده ـ إلى المرمى، فإذا بدا زميل أقرب إلى المرمى، حاول أن يشوط الكرة من موضعه الذى قد لا يكون مناسباً، فلا يحصل الزميل على التصفيق والآهات وإعجاب الجماهير والنقاد لو أنه تلقى الكرة السهلة، وأودعها المرمى!

هل هو عيب فى التكوين النفسى للاعبين عجزوا عن التخلص منه؟ أم أن

المدرب اكتفى ـ كما قيل ـ بوضع الخطة على الورق، فلم يلحظ ما إذا كان اللاعبون قد حرصوا على تنفيذ الخطة بالأداء الجماعى، أم أن الإعجاب الجماهيرى والإعلامى والجوائز والألقاب وغيرها مما يستأثر به أصحاب الأهداف، كان هو الدافع لتلك الوكسة التى أشرنا إليها بالأصابع العشرة، دون أن نحدد المتسبب الحقيقى فى ما حدث!

ما حدث فى مباريات فريق الشباب يعكس عيباً متوطناً أشبه بالبلهارسيا والإنكلستوما والبلادة وأنفلونزا الطيور!

إنه غياب جماعية الأداء، كل يعزف بنفسه ولنفسه، لا يعنيه النشاز وافتقاد الهارمونى الذى تتحقق به الوحدة العضوية للمعزوفة، كلهم موهوبون: عازف الكمان، عازف العود، عازف الناى، عازف السكسفون، عازف الأكورديون، ضابط الإيقاع.. إذا عزف كل منهم بمفرده، انتزع الآهات، فإذا حاولوا العزف جماعة، أتت النتيجة بجرسة لا تخطر ببال!

يغيظنى ذلك الذى يعقب على حوار يناقش قضية مستقبلية: لا شأن لى بهذا، مشكلاتى حُلَّت!

منطق أنانى يتمحور حول الذات، هى المبدأ والمنتهى، أذكر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان أستاذنا الحكيم يصدر به آخر مقالاته: إذا جاء يوم القيامة وفى يد أحدكم فسيلة، فليغرسها!

الفلاح يغرس النخلة، ويتعهدها بالإرواء والتهذيب، يعرف أنه ربما لن يجنى ـ فى حياته ـ ثمار النخلة، إنها بعض ما يخلفه لأبنائه وأحفاده، هم الذين يجنون الثمار، المثل العربى "الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون" لا معنى له فى إيمان الفلاح المصرى بالامتداد، بالتواصل والاستمرارية، بأن يكون مستقبل الآتين أفضل من حياته، مثلما حاول من سبقوه أن يجعلوا أيامه أكثر هناءة، هذا هو المعنى الحقيقى للوصية، أن أوفر للورثة ما يعينهم على أيامهم، لا أعيش يومى، وأترك الغد لأصحابه.

وفى تقرير لمركز تابع لمجلس الوزراء، عرضه فهمى هويدى، استوقفنى إشارته إلى أن كل شخص يتمنى الخير لنفسه، ولذويه فقط، فإذا كان بمقدوره أن يساعد الآخرين فيه، ويوفره لهم، ضن به، وبخل عن تقديمه، حتى لا ينعم به الآخرون (الشروق ٢٠٠٩/٨/١٨)

أذكر أن زميلاً فى مجلس إدارة اتحاد الكتاب قدم مشروعاً، يمكن - لو نفذ - أن يتيح للاتحاد موارد تعينه على مجاوزة أزمته الخانقة آنذاك (هاجمنا أحد أعضاء المجلس لأننا أفلحنا فى الحصول على نصف مليون جنيه من وزير الثقافة لصالح صندوق المعاشات، كانت له أحلامه الشخصية، فأرادنا أن نرفض عرض الوزير مناصرة للسيد العضو فى قضيته الشخصية، أفرد العضو مساحة جريدته لهجوم متلاحق، فى جريدته الأسبوعية التى ينفق عليها دافعو الضرائب، بحثت عنه فى الحضور الذين امتلأ بهم سرادق الجمعية العمومية، ورد الفعل الإيجابى الذى عرفته أنه غاب عن كل الدورات السابقة، المهم أننا اعتبرنا - فاروق شوشة وأنا - عامى المسئولية فى الاتحاد تجربة سخيفة، وعدنا إلى الإبداع، عالمنا الذى نحبه)

قدم الزميل اقتراحه، ونال موافقة أعضاء المجلس، ورجوناه أن يقدم التفصيلات، وحين عرف أن المشروع سينسب إلى المجلس، قال فى بساطة: إذا لم يكن المشروع باسمى، فلا داعى لتقديم تفصيلات المشروع، ولا المشروع نفسه.

المثل العامى يقول إن يداً واحدة لا تصفق، بمعنى أن الجهد الفردى - مهما يحاول الإجادة - لن يحقق شيئاً إلا إذا أفاد من جهود الآخرين.

إذا سادت فى الجماعة روح الفريق، فإن النتائج لابد أن تعكس ذلك، بعكس الحال لو أن الفردية هى التى سادت، أذكرك بالبناية التى ضربت بها مثلاً للفساد فى الذوق الجمالى فى العمارة المصرية الحديثة والتى زادت تفاقماً فى ظل قوانين التملك، كل مالك شقة أعاد تصميمها على النحو الذى يرضى ذوقه، وبما يختلف تماماً عن أذواق سائر الملاك، فبدت العمارة سكلانس يفتقد أبسط المقومات الجمالية، غاب الهارمونى، أو جماعية الأداء، بما انعكس على المظهر الكلى للبناية المسكينة.

الصلاة تأكيد للجماعية، الحج يعبر عن المعنى نفسه، صفوف المصلين يتجهون إلى الله بصلاتهم، وأفواج الحجاج يؤدون الشعائر بزى موحد يتساوى فيه الجميع.

يغيظنى القول: خوفو بانى الهرم الأكبر، هو لم يضع حجراً واحداً فى بناء الهرم، إنما الذى نقل حجارة الأهرام - على سواعدهم وظهورهم - هم

الفواعلية المصريون الذين تواصل عطاؤهم حتى الآن، يرافق عملياتهم ذلك النداء ذو الأصل الفرعونى: هيلا ليصة!

✯✯✯

جهد الجماعة هو الذى حقق صورة ٢٥ يناير، توالى البذل والتضحيات من الأفراد والجماعات والأجيال، حتى أتيح لجيل يناير ٢٠١١ أن يضرب الضربة الأخيرة، وينتزع - رغم مئات الشهداء والجرحى - نصراً غالياً، أشبه بسباق التتابع الذى يأخذ فيه كل جيل الراية من الجيل الذى سبقه، وصولاً إلى نقطة الختام، نقطة إعلان النصر.

النضال تراكمى، والمقاومة تجد معناها الحقيقى فى الاستمرار، لابد أن يترسب تحت الرماد ما يتهيأ للاشتعال، ولابد لحمم البركان أن تتفاعل قبل أن تتصاعد من فوهته.

ولعل السؤال الذى يفرض نفسه: بماذا يصف من أمضوا معظم عمرهم فى السجون والمعتقلات، وقاوموا امتهان الكرامة الإنسانية والتعذيب، حتى الموت (أذكرك بشهدى عطية الشافعى)، القائمة أطول من أن تحتملها هذه الكلمات، وهى حافلة بأسماء صنعت سباق تتابع الوطنية المصرية - ومعذرة لرداءة التشبيه - وكان آخر من دفع الثمن، حياتهم، هؤلاء الشباب الذين صرعتهم رصاصات غادرة فى ثورة التحرير.

لاشك أن الجيل الذى تحققت الثورة فى زمانه، أفاد من منجزات علمية وتكنولوجية كانت غائبة عن الأجيال السابقة، وعلى سبيل المثال، فإن المنشورات الورقية كانت هى سبيل التنظيمات السياسية لتوصيل مقولاتها للمواطنين، ذلك ما فعله الضباط الأحرار، وتنظيمات اليسار، والجماعات الدينية، يوزعونها بالأيدى، أو يلصقونها على الجدران، مع ما فى ذلك من مخاطرة وخطر، ولما قدم عهد الإنترنت والفيس بوك والتويتر، قلت المخاطرة، وإن ظلت قائمة، وصار المستحيل ممكناً.

عرفت أعضاء حركة "كفاية" من صورهم، عدا الصديق أحمد بهاء الدين شعبان، فأنا لم أتعرف إلى أحدهم بصفة شخصية، اعتدت رؤيتهم فى القنوات الفضائية، يرفعون الأعلام واللافتات والهتافات، عشرات لا يبلغون المائة، يقفون على سلم نقابة الصحفيين، أو أمام نقابة المحامين، أو محكمة

النقض، ويوماً أقدموا على الوقوف بالقرب من قصر عابدين، وطردهم الأمن المركزى بما يمنعهم من تكرار ما فعلوا.

لاشك أن كفاية ومثيلاتها من الحركات التى حاولت تحريك ما رأته ساكناً، تمثل التراكمية التى حدثتك عنها، ما تحت الرماد الذى يصبح نيراناً، البركان الذى يتهيأ لقذف حممه، الإضرابات فى المحلة الكبرى، واعتصامات الفقراء فى قصر العينى، وإضراب موظفى الشهر العقارى، وحادثة انتحار الشاب الذى رفضته الخارجية لأنه ليس من الطبقة المسيطرة، والنتائج التى أعقبت استشهاد الشاب خالد سعيد.. كل تلك التصرفات، وغيرها، وآلاف التحقيقات الإعلامية والدراسات والمقالات.. مهدت السبيل - على نحو وآخر - لتفجر الثورة التى جاوزت أن تكون مجرد حلم، فعلوا ما فعلوا، بديلاً عن الصمت الذى يعنى الموت.

لذلك جاء رفضى لرنة التسخيف المغلفة بتواضع مظهرى، عن أجيال تستحق الحرق، لأنها خائفة، فاشلة، لم تصنع شيئاً، فى حين صنع جيل الشباب كل شىء.

قول يدين صاحبه ابتداء، لأنه ينتمى إلى الأجيال التى يسخّفها، بينما يمارس العمل العام، ويناقش القضايا السياسية والمجتمعية، ويحلم بمشروعات كبرى.

ظنى أن حماسة الشباب التى يملكها العالم الجليل، أو الشاعر الذى طالما تغنى برمز السلطة، أو الروائى الذى أسرف على نفسه، وعلينا، فى التغزل بما قد لا يجده الحاكم فى نفسه.. هذه الحماسة يملكها سواهم من أجيال تسبقهم، وأجيال لاحقة، سمة الجهد الجماعى أنه متشابك، ليست العبرة بمن بدأ، ولا من واصل السير، ولا من أدركه التعب، أو بلغ النهاية، المهم أن تتشارك الجماعة فى صياغة المعنى، فى السعى لبلوغ الهدف.

محاولة ساذجة لجلد الذات، أو أنها - فى تصور آخر - محاولة لاستمالة مشاعر الشباب، والمعنى يعرفه أصحاب ذلك الرأى جيداً.

هل نخشى التقدم؟

ليس كافياً أن نعيش ونتعلم من أجل اليوم، لابد أن نحلم عما سيكون عليه العالم فى غضون خمسين سنة، وأن نعمل من أجل مائة سنة من الآن، ومن أجل عالم أحلام يمتد إلى ألف سنة من الآن".

ليو بوسكاليا

تلاحق منذ خمسينيات القرن العشرين، العديد من الثورات والمنجزات العلمية والتكنولوجية: ثورة الاتصالات، ثورة المعلومات، ثورة الهندسة الوراثية، ثورة الإليكترون، غزو الفضاء، اقتحام أعماق الكون، الروبوت، الكمبيوتر.. وغيرها من المؤشرات التى تهبنا صورة المستقبل، وما يتوقع للإنسان أن يضيف به إلى تاريخه فى هذا العالم، وفى هذا الكون.

السؤال الذى يشغلنى - وأثق أنه يشغل الكثيرين - أين عالمنا العربى من ذلك كله؟ كيف نستطيع اللحاق بالعالم المتقدم، قبل أن نفقد الفرصة، ربما إلى الأبد؟

إن المواجهة الحضارية، إطلاق الفعاليات العربية، السعى إلى التقدم، ملاحقة الإنجازات الإنسانية.. هو التحدى الذى يواجه الأقطار العربية، مجرد التكاسل، أو التغاضى، أو التخاذل، يعنى ضياع الفرصة، بل إن

التحديات الاقتصادية والسياسية تتضاءل بالقياس إلى تحديات التقدم، إنه المقدمة والبداية والدعامة، وهو المستقبل أيضاً.

ولعل أهم ما يجدر بنا أن نحرص عليه هو أن نجاوز الاستهلاك إلى الإنتاج، فلا نكتفى بالحصول على المعرفة والتكنولوجيا من الدول المتقدمة، وإنما نحاول - بكل ما لدينا من طاقات - أن نحقق التقدم.

نحن نستهلك معطيات الدول المتقدمة فى سعيها إلى المستقبل، دون أن يشغلنا السؤال، مثلما شغلها، ويشغلها دوماً، عن صورة المستقبل.

إن الدول المتقدمة لن تهبنا - بأموالنا - إلا ما يتبقى منها، وبالصورة التى لا تؤدى إلى منافستها، نحن بالنسبة إليها مجرد أسواق، مجتمعات استهلاكية، وعلينا أن نكتفى بتصدير المواد الخام، ليعيد العالم المتقدم تصديرها إلينا فى صورة مواد مصنعة!

لاحظ برنامج الأمم المتحدة للبيئة، أن الجهود الحديثة للتمية فى المنطقة العربية، اعتمدت على النقل المكثف للتكنولوجيا من الخارج، فكانت التكنولوجيا تنقل فى أغلب الأحيان، فى صورتها المجمعة، كآلات مدينة كاملة التركيب، وهو ما أدى إلى إعادة تطوير القدرات الذاتية فيما يتعلق بالتعامل مع التكنولوجيا مثل الخبرة الفنية، وبرامج وأنظمة التشغيل، وفيما يتعلق بفهمها وفك طلاسمها وتقييمها، ومن ثم تكييفها واستغلالها بصورة اقتصادية فى إطار نظم الإنتاج القومى.. ولعل أوضح مثال على ابتعادنا عن التكنولوجيا - والكلام لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة - أن الفلاح حصل على التراكتور ليحقق به زيادة فى الإنتاج، فاستخدمه وسيلة مواصلات، وانخفض الإنتاج بالتالى!

القضية ليست فى مجرد استيراد التكنولوجيا، لكنها فى القدرة على استيعاب التكنولوجيا، وتوطينها، وتطويرها بما يتلاءم مع ظروفنا الاقتصادية والاجتماعية.

الآلة هى وسيلتنا إلى التقدم، إنها أشبه بالقدمين اللتين تحملاننا ونحن نخطو، ولن نستطيع السير بغير أقدامنا، ومن العبث - فى الوقت نفسه - أن نتحرك على عكازين ليسا من نسيج جسدنا!.

نحن لكى نسيطر على الآلة فلابد أن نصنعها، نصنعها ولا نكتفى

باستخدامها، بل ولا نكتفى بتجميعها، عدا ذلك فهو صبغ الوجه بالبودرة، تصوراً أنها تخفى ما قد يعيب البشرة من تجاعيد أو ندوب أو بثور!

أما محاولة ارتداء زى النمور من خلال الاقتصار على عمليات التجميع بديلاً عن عمليات التصنيع، فهى مجرد ارتداء زى أنيق على جسد يعانى العلل، مجرد أدوات تجميلية تخفى البثور والندوب، ربما يبدو تشبيه الحمار الذى دخل فى إهاب الأسد غير مقبول، لكن الحكاية تتحدث عن المصير المؤلم الذى واجهه الحمار!

كانت الصين - إلى أواسط الأربعينيات - بلاد الأفيون، قرأت رواية جميلة حول هذا المعنى، ترجمها عادل كامل وأحمد زكى مخلوف، تناولت الرواية الصين باعتبارها بلداً يبيع ويشترى ويتعاطى الأفيون.

كيف تبدلت الصورة؟

لذلك قصة، أستأذنك فى أن أعرض لها:

لقد اجتذبنى عنوان الكتاب، أخذته من مكتبة أبى، كنت طفلاً، فلم أدرك تفاصيل الأشياء، لكن الحزن هو المعنى الكلى الذى داخلنى وأنا أقرأ الكتاب الذى يتناول مأساة شعب قتله الأفيون!

توالت الأعوام منذ صدور الكتاب فى ١٩٤٥، إلى أيامنا الحالية، وشهدت الصين تحولات مهمة، مثلت انقطاعاً بين ما كانت عليه، وما هى عليه الآن، شهدت الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية حرباً أهلية بين القوات الحكومية بقيادة شين كاى تشك وقوات الحزب الشيوعى بقيادة ماو تسى تونج، وانتهت الحرب بهزيمة قوات كاى تشك، وفرار قائدها إلى جزيرة صينية هى تايبيه، حيث أقام دولة سماها الصين الوطنية.

مرت الصين منذ ١٩٤٩ - سنة إعلان جمهورية الصين الشعبية - بتغيرات أملاها تصور ماو تسى تونج ورفاقه أن بلادهم ستظل زراعية، ومن ثم فقد تركزت رؤاه على الفلاحين، وليس على العمال كما فى الاتحاد السوفييتى وبلدان شرق أوروبا، وكان تشكيل المزارع الجماعية فى ١٩٥٥ خطوة إلى الوراء، حيث انخفض الإنتاج فى السنوات التالية إلى ٤٠٪، كما بلغ العجز فى الغذاء مستويات قياسية.

وقرر ماو أن يكون التصنيع هو الحل البديل، والحاسم، لإنقاذ الصين من

التوقعات المؤلمة، لكن التفكير لم يقترن بالفعل، وحلت بالبلاد مجاعات مات بتأثيرها فى الفترة من ١٩٥٩ إلى ١٩٦٢ ما يقرب من ٤٠ مليون نسمة، وشهدت الصين أحداثاً مماثلة لما أورده المقريزى فى كتاباته عن التاريخ المصرى فى القرون الوسطى، فقد أكل الناس الحشرات والجيف، وأقدموا على جعل البشر طعاماً، وبادت ـ من شدة الجوع ـ قرى ومدن بأكملها.

الغريب أن تلك المجاعات لم تكن وليدة عجز فى الإنتاج الزراعى، لكن ذلك ما فرضه سوء التوزيع، حين امتلأت مخازن الجيش بالغلال، وعملت الدولة على تصدير القمح، بينما المجاعة تفتك بالملايين من الفقراء.

وبعد رحيل ماو، تولى هيساو دنج قيادة البلاد، وكانت تلك فرصة طال انتظاره لها طيلة العهد الماوى، حتى أنه دخل السجن، وعزل من وظيفته، ونقل إلى وظيفة صغيرة، لكنه لم يفقد الأمل فى الصين الحديثة.

✯✯✯

تقول نكتة هندية إن دنج كان مشغولاً بقراءة صحيفة فى سيارته.

سأله السائق:

ـ إلى اليمين أم إلى اليسار؟

قال دنج:

ـ لا مشكلة، أشر إلى اليسار، واتجه إلى اليمين.

والمعنى مجازى، يشى بأن ما أعده الرجل يختلف تماماً عن السياسة الاقتصادية الصينية كما خلفها منشئ الصين الحديثة ماو تسى تونج.

واستطاع دنج ـ بالإفادة من خبرات وطنية ـ أن يجرى تبديلاً على هيكلية الاقتصاد، وزاد دخل الفلاحين ما بين ١٩٧٨ و ١٩٨٤، بنسبة ١٥٪، وإن ظل الفقر مسيطراً بصورة عامة.

وكانت الخطوة الحاسمة لعملية التحول الاقتصادى، حين بدأت الصين ـ فى ١٩٧٨ـ فى ربط اقتصادها بالاقتصاد العالمى، وتنقل دنج بين العديد من الدول الآسيوية للتعرف إلى تجاربها، وتبع زياراته إيفاد المئات من الكوادر الصينية لدراسة صورة الصين بعد التحديث.

شجعت الدولة الشركات الأجنبية على استثمار أموالها فى البلاد،

واجتذبت ـ بالفعل ـ أكثر من ٦٠٠ مليار دولار لصالح المشروعات الصينية، وهو مبلغ يتضاءل أمامه ـ كما يقول الخبراء ـ كل المبالغ التى أنفقتها الولايات المتحدة على مشروع مارشال الذى استهدفت به واشنطن مساعدة أوروبا على مجاوزة أوضاع ما بعد الحرب العالمية الثانية، كما أفادت الصين من وفرة الأيدى العاملة فى استحداث حركة تصنيع هائلة، قوامها الرصيد البشرى الضخم، المتمثل فى الملايين من الأيدى العاملة الرخيصة، بما يعوض تكلفة التكنولوجيا الباهظة فى البداية، ثم ـ فيما بعد ـ بالاعتماد على الأيدى العاملة المدربة على أحدث التقنيات، لتصبح الصين ثانى أكبر دولة اقتصادياً، بعد الولايات المتحدة، وتخلف اليابان وراءها.

وكما تقول روبين ميرديث فى كتابها "الفيل والتنين"، بترجمة ممتازة لشوقى جلال: "لقد كانت الثورة الاقتصادية ثورة صامتة، صرخة داخل قاعة مانعة للصوت، تصاعد الرخاء لشعب تعداده أكثر من مليار، وجاء عصر شهد، تدريجياً وإدارياً ـ والقول لروبين ميريديث ـ أكبر انتعاش عرفه كوكب الأرض لمشروعات الأعمال.

وبالأرقام، فقد كانت الصين فى سنة ٢٠٠٠ تصدر ٢٠٪ من لعب الأطفال فى العالم، وقفزت النسبة إلى ٧٥٪ بعد خمس سنوات، وفى صناعة الأحذية تنتج الصين الآن زوجاً من بين كل ثلاثة أزواج أحذية تنتجها مصانع العالم، وقد لاحظت شخصياً أن صادرات الصين من الأحذية فى أسواق القاهرة تتجه إلى كل مستويات الدخول، ثمة حذاء لا يجاوز ثمنه آحاد الأرقام، وحذاء آخر يبلغ المئات!

ولا أحد الآن، لا أحد، ولو من حيث انخفاض السعر ـ يقوى على منافسة صادرات الصين فى صناعة الاتصالات والأجهزة الكهربائية والسيارات والدراجات البخارية والملابس وأدوات الزينة.. كل شىء تقريباً، وجملة ما تصدره الصين الآن فى يوم واحد يفوق ما كانت تصدره فى عام كامل، قبل عام ١٩٧٨، عندما بدأت الصين انفتاحاً اقتصادياً حقيقياً، وليس انفتاح السداح مداح الذى عانت مصر ويلاته على مدى سنوات طويلة.

تجاوز غالبية أبناء الصين خط الفقر، وذاقت قطاعات كثيرة طعم الثراء، وعرفت الأرقام المليونية، بل والمليارية، أرصدة كبار الاقتصاديين الصينيين،

ونشأت طبقة جديدة قوامها أكثر من ٣٢٠ ألف مليونير، تتركز أنشطتهم فى صناعة السيارات والسلع الترفيهية.

ولا يخلو من دلالة قول أحد المسئولين الصينيين: "إن شباب الجامعات فى بكين يعرفون أن مرتباً قدره ١٥ ألف دولار فى السنة، فى الصين، يتجاوز من حيث قيمته راتباً قدره ٤٥ ألف دولار فى الولايات المتحدة. إنهم لا يريدون الآن الانتقال إلى الولايات المتحدة، أو إلى أى مكان آخر، لأنهم الآن يملكون فرصاً كثيرة داخل الصين".

وظنى أن ذلك هو ما سيكون تصرف الشباب المصرى إذا صارت بلاده فى الصورة التى يريدها.

***

بلغ انتشار الاقتصاد الصينى حد النكتة، مئات النكات تتناول باعة المنتجات الصينية فى الوطن العربى، وربما فى أنحاء العالم، وبالطبع فإن تلك النكات نابعة من الوجود اللافت لأبناء الصين فى المجتمع المصرى، غالبية الصادرات منتجات صينية، حتى السلع البسيطة والتافهة، لا يكتفى الباعة الصينيون بحمل البضائع على ظهورهم، وطرق أبواب البيوت، إنما وسعوا من أنشطتهم إلى حد احتراف الحلاقة، وإجراء عمليات الختان، والزواج من شبان مصريين يعانون ظروفاً اقتصادية.. والأرقام تتحدث عن مائة ألف بائع صينى فى القاهرة وحدها، بالإضافة إلى آلاف اخترقوا عمق الريف المصرى، فى الوجه البحرى والصعيد، باعوا سلعهم، وأقاموا علاقات، وصاروا ـ على نحو ما ـ جزءاً من البيئة.

يضيف إلى سلبية الصورة أن بعض المستوردين المصريين يحرصون على المستويات الأدنى من البضائع الصينية، أو الفرز المتأخر بلغة التجارة، وتجد تلك البضائع رواجاً هائلاً فى السوق المصرية، انطلاقاً من انخفاض أسعارها ـ بصرف النظر عن رداءة المستوى ـ قياساً إلى الصناعات المصرية، وبلغ الأمر حد استئجار مجموعات من الصينيين شققاً فى الضواحى ـ جعلوها فى الخفاء ـ مصانع للملابس الجاهزة، تحمل عبارة "صنع فى الصين".

وامتدت محاولات الصينيين لتقليد الحرف اليدوية المصرية بصنع آثار مقلدة زهيدة الثمن، الصناعات المصرية كالحفر على الخشب، والأرابيسك،

وتطعيم الخشب بالصدف، تتميز بأنها من صنع أيدٍ مدربة، وتتقن عملها، وتقدمها باعتبارها فناً عربياً، أما الصناعات الصينية فتقتصر على التقليد بواسطة الآلة التى تخلو من حرفية الصانع الماهر، حتى الذهب صار مقلداّ، وأكدت تحليلات أن البضائع الصينية تهدد بانقراض صناعات خان الخليلى فى مصر، لأنها تحسن تقليدها، وإن ظلت منخفضة الجودة، وتصدرها بأسعار تقل كثيراً عن أسعار المنتجات المصرية، وللأسف فإن الكثير من محال خان الخليلى تكتفى بعرض المنتجات المصرية المقلدة الواردة من الصين.

الطريف أن وكالة الأنباء الصينية الرسمية أجرت تحقيقاً توجهت به إلى مواطنين مصريين، يسأل: كيف تصبح حياة أسرتك فى حالة عدم وجود البضائع الصينية فى مصر؟

وبالطبع، فإن اللجوء إلى الوسائل التى يتبعها مصدرون صينيون خطأ، لا أتصور أن الصناعة المصرية تقدم عليه.

نحن مطالبون بأن نأخذ عن التجربة الاقتصادية الصينية إيجابياتها، وأن نهمل ـ فى المقابل ـ ما أفرزته من سلبيات، ولدينا العقليات العلمية، والأيدى العاملة المدربة، والموارد الطبيعية، والبيئة الصالحة.

إن تأمل التجربة الصينية يفرض الأمل فى أن تكون إيجابيات ما حدث هى صورة مصر المستقبل، بالإضافة إلى رفض القمع، ووأد الفساد الذى أخذ فى الصين شكل الظاهرة، وتأكيد الحرية الجمعية والفردية التى تعد فى مقدمة أهداف التحرك الشبابى فى ثورة ٢٥ يناير.

المثل الأقرب إلى وعينا، أن الصين جعلت من الزيادة فى مواطنيها مصدراً للتقدم، بينما شكوانا الملحة هى الزيادة المطردة فى أعداد المواطنين، مع ملاحظة تنوع الموارد التى نملكها، فى حين أن بعضها يغيب عن الصين ـ البترول مثلاً ـ وأن تعدادنا السكانى لا يمثل سوى نسبة مئوية ضئيلة قياساً إلى الصين.

***

ماذا عن صورة العرب؟

سأكتفى بمثل وحيد، وإن كنت أملك آلاف الأمثلة: لقد ضربت الولايات المتحدة مصنعاً للدواء بالخرطوم، ثم تأكد كذب الدعوى الأمريكية، فلم تحاول

واشنطن أن تعتذر، ولم تحاول كذلك أن تدفع تعويضاً عن الجريمة المتعمدة.

فى المقابل، ضربت الولايات المتحدة ـ الولايات المتحدة دائماً! ـ سفارة الصين فى بلغراد، واعتذرت واشنطن بأن الاعتداء كان خطأ، وحاسبت مرتكبيه، ودفعت تعويضات ـ ملايين الدولارات ـ لحكومة الصين.

ولعله ينبغى أن أضيف، أن شعبنا العربى فرض عليه أن يكتفى بالشجب والتنديدات الشفاهية ـ فلا يصبح شرذمة منحرفة! ـ بينما هاجم آلاف المتظاهرين سفارة أمريكا فى بكين، وحطموا الواجهة تماماً!

والحق أن مجرد محاولة استشراف آفاق المستقبل، تكفل تنبيهنا إلى الخيار الوحيد الذى ينبغى أن نتجه إليه، وهو ملاحقة العالم المتقدم فى خطواته العلمية والتكنولوجية، فسيكون للتكنولوجيا دورها المؤكد فى حل العديد من المشكلات المهمة مثل التلوث، وإيجاد موارد جديدة من المياه العذبة، وتنقيتها، وتطوير العلاج، واستنباط عقاقير وعناصر جديدة، وكشف مناطق لم تصل إليها ـ من قبل ـ أقدام البشر، واستخدام الطاقة فى الفضاء فى مشروعات التنمية بالأرض، ورصد الكواكب فيما وراء المجموعات الشمسية.

المشكلات لا تنتهى، والحلول أيضاً لا تنتهى، بما يضعنا أمام الخيار الصعب والحتمى، فى مواجهة المستقبل..

وإذا كنا لم نمتلك التكنولوجيا حتى الآن ـ رغم مواردنا المادية والطبيعية والبشرية الهائلة ـ فإن أقل ما يجب صنعه هو تطويع التكنولوجيا، والتحكم فى مضمونها، والسيطرة على مفرداتها..

إنها خطوة أولى نحو إنتاج التكنولوجيا، وامتلاكها!

أخيراً، فإن استشراف المستقبل لا يكون بالتصورات الحالمة، وإنما بإعمال النهج العلمى الذى يرفض التمنى، ويرتكز إلى الحقائق، وبما نملكه من أرصدة فى كل المجالات.

الإبداع هو السبيل الوحيد أمام الشعوب ـ ممثلة فى الصفوة من أبنائها ـ لتحقيق التقدم، جمود الفكر يعنى الموت، والاتكالية مرض تعقبه الاعتذارية التى لا تفيد شيئاً، فلا معنى للبكاء على اللبن المسكوب. الكومبيوتر لا يوفر

الطعام ولا الدواء ولا الكساء، إن قدراته تبدأ وتنتهى عند المعلومات، ومن ثم فإن فائدته ترتبط ارتباطاً وثيقاً بفاعلية المعلومات وبرامج التنمية.

✯✯✯

إذا كانت شعوب العالم الثالث تعانى سطوة الدول المتقدمة وسيطرتها، فإنها لن تجاوز أسوار السطوة والسيطرة إلا إذا جاوزت أسوار التخلف، إن الفجوة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة، الدول الصناعية والدول النامية، الدول المنتجة والدول المستهلكة، تزداد عمقاً واتساعاً فى توالى الأيام، فهى الآن فجوة غير قابلة لمجرد التضييق، لم يعد وارداً تقسيم العالم إلى دول رأسمالية تتبعها مجموعة من الدول، ودول شيوعية تفرض سيطرتها على مجموعة من الدول، ثمة الآن شمال وجنوب: الشمال يعنى الدول المتقدمة، والجنوب يعنى الدول المتخلفة، التقسيم ليس جغرافياً، لكنه تعبير عن الواقع الاقتصادى لكل دولة، فهى إما قوية اقتصادياً، وسياسياً بالتالى، فهى تنتمى إلى دول الشمال، أو العكس، فهى تنتمى إلى دول الجنوب.

وفى الوقت الذى يمضى فيه العالم المتقدم فى الاتجاه الواحد، وهو اتجاه العلم والتكنولوجيا، فإن السؤال الذى يشغل البعض ليس كيف تتسارع خطواتنا لنلحق ما بلغه الغرب من تقدم علمى وتكنولوجى، وإنما الشاغل مجرد السؤال: هل ندخل عصر العلم والتكنولوجيا، أو لا ندخل؟ هل البيضة أولاً، أم الدجاجة أولاً؟ هل رؤية ما نتشاءم منه يلزمنا البقاء فى البيت، أم نتوكل على الله ونجازف ونخرج إلى لقمة العيش؟

ما يثير التأمل أن التوفيق بين الشخصية الوطنية وحضارة الغرب كان ـ والكلام ليحيى حقى ـ "سمة مطلع القرن العشرين فى بلادنا، ومحور تاريخه الوجدانى".

ثقافتنا الآنية تواصل مع تراثنا الثقافى فى مجالات التراث المختلفة، لكننا ـ فى الوقت نفسه ـ جزء من هذا العالم، لا نستطيع أن ننقطع، ولا ننفصل عنه، لا أتخوف من الهامشية، وإنما أتخوف من الموت!

أخطر ما يعانيه عالمنا المعاصر ـ والعالم الثالث تحديداً، والعرب جزء منه ـ أن العالم المتقدم، أو ما اصطلح على تسميته بالغرب، يحتكر العلوم وتطبيقاتها التكنولوجية، الغرب ينهض بدور المخترع، والمصنّع، لكل

الإضـافـات العلمـيـة، بينمـا يكتـفـى العـالم الثـالث بدور المسـتـهلك لكل تلك النتاجات.

حتى فى مجال الزراعـة، فإن مزارعى الدول الفقيرة الذين يزاولون زراعة الشـر ممثلة فى المخدرات، إنما يقـدمون على ذلك تحت ضـغوط اقتصـادية لا تصلح تبـريراً، لكنهـا حقيقـة، زراعـة المخدرات تدرّ عـلى صـاحبـهـا دخـلاً يفـوق دخله مـن السلع الغـذائيـة الأخـرى، وهو يلجـأ إلى تلك الزراعـة المدمّـرة فى محـاولة لتحسين ظروفه الاقتصادية والمعيشية، لا يشـغله ما تنطوى عليه من خطر مؤكد بالنسبة للآخرين، وبالنسبة له شخصياً، لأنه يحيا ـ بزراعتها ـ فى ظل الخطر الذى قد يصل إلى مواجهة حكم الإعدام.

وبديهى أن ظهور البـتـرول فى بلد مـا، يعنى التنميـة والتطوير والرخـاء، إنه نعـمـة نتـوق إليـهـا، أو نحـسـد عليـهـا، وتظل الإفـادة منـه مطلبـاً غـاليـاً فى كل الأحـوال، سـواءٌ لمن يجـرون التنقـيـبـات بحـثـاً عنه، أو لمن يـصـدرونه خـامـاً فى أوبك وأوابك، و لمن يستوردونه ويعيدون تصديره فى شكل صناعات أساسية وترفيّة. لكن البديهية خالفت المرجو فى أحيان كثيرة، فالمكسيك ـ على سبيل المثال ـ دولة بترولية، بل إنها تعتبر فى مقدمة الدول المنتجة للبترول، مع ذلك فـإنهـا تعـانـى التـضـخـم، ووطـأة الديون الخـارجـيـة، وتدنّى الصـنـاعـة، وفـشـل الزراعة، وتدهور السياحة، وقد أسرفت السينما الأمريكية فى تقديم الأفلام التى تتناول تسلل المكسيكيين إلى الحلم الأمريكى!

أما أقطارنا العربية فإن ترمومتر ارتفاع الأسعار وهـبوطه يؤثر ـ فى الأيام التـاليـة ـ على اقـتـصـاديات هذه الأقطار، لأنهـا لا تعـرف سـوى التـوقـعـات الجيدة.أمـا القـول بالادخار، وحسـاب المستقبل، وأن القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسـود، فـتلك جـمـيـعـهـا كلمـات عـواجـيـز الفـرح التى ينبـغى إهمـالهـا، أو النظر إلى المستقبل ـ دائماً ـ فى لونه الوردى، لم يحاول الخبـراء ـ ومـا أكثـرهم ـ أن يناقشوا التـأثير الاقتصادى السلبى لنضوب النفط، أو استنباط مادة بديلة (البرازيل تسير سياراتها الآن بالكحول!)، أو اكتشاف احتياطى بترولى أكبر حـجـمـاً فى منطقـة أخرى من العـالم، أو نجـاح مـضـاربات الدول الصـنـاعـيـة المستهلكة للبترول فى الحد من تدفق عوائده، أو إيقافها بصورة كلية.

كل ذلك، وغـيـره، لم يحـاول أحـد ـ فـى الأغلب ـ أن ينـاقـشـه، فـإذا جـرت مناقشات فإنها تميل إلى تغليب التفاؤل لأسباب تنأى عن الموضوعية.

✩✩✩

بعيداً عن الجهارة، فنحن ورثة حضارة أسهمت بالكثير فى مجالات التقدم الإنسانى، لذلك فإن الحاضر ـ والمستقبل ـ يجب أن يكون موصولاً بالماضى، بمعنى أن نواصل الإضافة والتطوير والتقدم، نصنع حاضراً، ولا نكون عالة على التقدم الذى أنجزه آخرون.

فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، كانت المراكز العلمية تتمركز فى القاهرة وبغداد والشام وبخارى وسمرقند وغيرها، وانتقلت ـ بالترجمة ـ معارف العرب العلمية إلى مناطق غرب أوروبا التى كانت تعانى التخلف، وكان طلبة العلم من الغرب يفدون إلى تلك المراكز لنقل العلوم إلى اللاتينية، سواءٌ كانت علوماً عربية، أو علوماً نقلها العرب عن الإغريقية.

وقد أثبت كتاب "تراثنا المسروق" أن العرب لم يقتصر دورهم على نقل البريد من اليونان إلى أوروبا. وثمة أقلام ممتازة فى الغرب، اعترفت بإسهامات الحضارة العربية فى تاريخ المجتمع البشرى.

من ناحيتنا، فإن المؤرخين والمفكرين وعلماء الدين العرب لم يفلتوا فرصة التحدث عن التراث الذى كان نوراً للإنسانية، قبل أن تبدأ أوروبا عصر النهضة.

وظهرت ملامح ما يسمى بالعصر الحديث فى الغرب، بينما كانت الأقطار العربية تشهد ـ فى ظل الخلافة العثمانية ـ لحظات انحدار قاسية، وظلت المدنية الغربية تمضى فى مجالات التقدم المختلفة، بينما الحضارة العربية تعانى التخلف والانغلاق الذى فرضته ظروف الاحتلال العثمانى.

إن العقل البشرى، الجهد البشرى، الإرادة الإنسانية.. ذلك كله هو العنصر الحقيقى، والفعال، فى أى تطور.

أذكر مقالة لكاتب من الإمارات أعلن فيها خشيته من أن يشترى الخليج أول ناقة بآخر بئر بترول.

القول لا يخلو من قسوة، لكنه لا يخلو من صحة.فماضى المنطقة معروف،

وذكريات المعمرين، ومتوسطى العمر أيضاً، حافلة بحكايات الهجرة وصيد اللؤلؤ وانتزاع لقمة العيش من براثن أيام صعبة، فلما ظهر البترول، غادر المارد قمقمه، غابت القدرة الحقيقية على استيعاب الثروة المفاجئة، وصيانتها، واستغلالها على المدى الأطول، وتلاشت صورة الماضى القريب تماماً، كأنه لم يكن.

مشكلة الوطن العربى أنه يعتمد - فى استهلاكه - على الواردات، بداية برغيف العيش، ونهاية بالتكنولوجيا المتقدمة، أذكر مقولة لأستاذنا شكرى عياد، عن تعريب البعض للتكنولوجيا، فقالوا "التقنية "، لكن التكنولوجيا نفسها - للأسف - تأبى أن تتعرب!، ليس يكفى أن تكون مصر هى أم الدنيا، وأن يكون العرب صانعى الحضارات، وأصحاب الريادات الكثيرة فى بدايات التاريخ الإنسانى.

الأهم أن يتواصل ذلك كله، فلا يتحول إلى حائط مبكى أو معلقة حماسية!.

أشير إلى أن أساس النهضة التى أدخلها محمد على، هو الترجمة والنقل، وهو أمر طبيعى فى مجتمع ينتقل من الإستاتيكية إلى الديناميكية، ومن التبعية إلى محاولة تأكيد الذات، واستيلاد الدولة العصرية من رحم التخلف.

وعلى سبيل المثال، فإن السودان يملك من الأراضى الصالحة للزراعة ما يجعل منه سلة طعام حقيقية للعالم العربى، ولمعظم بلدان إفريقيا وآسيا أيضاً، لكن الاستثمارات العربية تحجم عن الذهاب إلى السوق السودانية لأسباب، فى مقدمتها - حسب آراء المؤسسات المختصة - اهتزاز الأوضاع السياسية، والفساد الإدارى، والتسيب، والروتين!

كان عرب العصور الماضية يأخذون ويعطون، أما نحن فنأخذ ولا نعطى، نكتفى بالاستهلاك، نقنع بالنتيجة النهائية، لا تشغلنا الأسباب والأسئلة والتجارب، بحيث ننتج كما ينتج الآخرون، التقدم يصنعه الإنتاج وليس الاستهلاك، ومع الفارق، فإن الاستيراد من الخارج يساوى استيراد رغيف الخبز من السوق، الصورة هى هى: الاعتماد على الاستيراد بدلاً من محاولة الإنتاج، أذكر قول توفيق الحكيم: "نحن نتصور أنفسنا قد تقدمنا كثيراً، لأن فى أيدينا آلات ومعامل ومصانع".

أخطر ما فى الأمر أن نكتفى بالاستيراد دون التصدير، بالاستهلاك دون الإنتاج، بالتحرك محلك سر فى عصر يشهد طفرات هائلة، خطورة ذلك ليس فى مجرد التخلف قياساً إلى تقدم الآخرين، وإنما قد يكون ذلك التخلف بداية للتحلل الحضارى والمدنى.

إن الوقوف فى الثبات، فى عدم الحركة، يعنى الحركة إلى الخلف، لأن العالم الذى نحيا فيه، يقدم على نقيض ما نفعله، إنه يتحرك، وينطلق إلى الأمام، وتتسع الهوة، الحركة ضرورة، والثبات قد يعنى الموت. الحركة تعنى خطوات لمجاوزة الاستاتيكية، أو التخلف على نحو ما، قد يتم ذلك ببطء، لكنه يظل ـ فى كل الأحوال ـ فى إطار الحركة، أما الثبات فى الجمود، فهو يعنى الموت، العالم كله يتحرك، ثمة من يجرى، ومن يهرول، ومن يسير ببطء، الكل يتحرك، ولعلى أومن بأنه من الأفضل أن نعمل متأخرين، بدلاً من ألا نعمل أبداً، وبالطبع، فلابد من التنبه إلى الفرق بين ما نتمنى أن نفعله، وما نستطيع أن نفعله، ما تؤهلنا قدراتنا وإمكاناتنا لفعله.

نحن مطالبون بأن نتخلى عن عاداتنا الموروثة فى الانكفاء على الماضى، وإهمال التطلع إلى المستقبل، طرح المثل "احيينى النهاردة وموتنى بكرة" منتهى الاتكالية التى لا تقدّر حساباً لأى شىء!

نحن نشترى أيامنا الحالية بمستقبل أجيالنا القادمة، نهمل مبدأ احتياطى الطاقة رغم قلة احتياطياتنا، نجرّف الأرض ونبوّرها، نبنى البيوت على الأرض الزراعية مع أن المنطق البديهى يدعو إلى ضرورة أن يكون "الرمل للعمران والطين للزراعة" ـ والقول لأستاذنا جمال حمدان ـ نؤجل دفع الديون إلى أعوام بعيدة نسبياً، أتذكر المثل "الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون"، أتذكر أيضاً قول كارلوس فوينتس "إن البلد الذى يعجز عن إطعام وتعليم نفسه من خلال مصادره الذاتية، لا يملك شرط تحقيق النقلة الكبيرة إلى الأمام، والتى نتوقعها فى القرن الحادى والعشرين".

إن الحلول لكل المشكلات الآنية والمتوقعة واضحة، ومحددة، وفى مقدمتها تنويع مصادر الدخل، تقليل حجم الاستيراد، وخاصة فى المجال الزراعى

بزيادة مساحة الأراضى المنزرعة، والاتجاه إلى "الإنتاج" ولو فى الصناعات الصغيرة التى تمنع استيراد صناعات مماثلة أجنبية..

الحلول موجودة، لكن: من يعلق الجرس فى رقبة القط؟..

☆☆☆

المشكلات الاجتماعية فى الوطن العربى تكاد تكون واحدة، لا فارق بين دولة غنية ودولة تكتفى بالوقوف عند حد الفقر: افتقاد النظرة الاستراتيجية، عدم وجود خطة شاملة، حقيقية، للتنمية، الإفراط فى الإنجاب، قلة الإنتاج، تفشى البطالة السافرة والمقنعة، غلبة الاستهلاك على الإنتاج، انتشار الأمية، تفاقم أمراض الفساد والانحراف كالرشوة والمحسوبية والوساطة والانتهازية إلخ..

أما الظاهرة الأخطر، فهى أن العرب يودعون الجزء الأكبر من أموالهم فى البنوك التجارية الأمريكية. والولايات المتحدة - سواءٌ القطاع الحكومى أو القطاع الخاص - تخص إسرائيل بأكبر معونات تحصل عليها دولة أجنبية، فيتحول المال العربى - من ثم - إلى تنمية للكيان الصهيونى، وإلى أسلحة تستخدم ضد العرب.

معادلة غريبة كما ترى.. لكنها صحيحة أيضا!

لكى تتقدم المجتمعات، فلابد أن تتغير، إن تقدم، أو تخلف، مجتمع ما، أشبه بالأوانى المستطرقة، فما يتحقق - بالسلب أو بالإيجاب - فى مجال، يتحقق بالضرورة فى سائر المجالات، الأمية مرض متوطن يجب القضاء عليه مثلما نحاول القضاء على الأمراض المتوطنة الأخرى كالبلهارسيا والإنكلستوما وغيرهما، ومن الصعب - ولعله من المستحيل - غرس التكنولوجيا فى تربة تعانى غياب الحرية والديمقراطية والأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية السيئة.

لا أكون مغاليا لو قلت إن أحد شروط التقدم لن يتحقق بمجرد إيقاف نزف العقول، وإنما باستعادة تلك العقول من خلال توفير المناخ الملائم للبحث والإبداع، وهو مناخ ينبغى أن يشمل كل الظروف العلمية والمادية والاجتماعية والنفسية وغيرها، أشير إلى ملاحظة أستاذنا حسين فوزى بأنه ليس

بالإمكان ازدهار الأدب فى عصر ما - هذا مجرد مثل - دون أن يكون هذا الازدهار أثراً من آثار نهضة تتناول جميع نواحى النشاط الإنسانى (حديث السندباد القديم - ١٩).

العالم العربى عملاق يجهل مدى قوته، الثروات التى تزخر بها أراضيه تجعله فى العالم المتقدم، وإن استلزم ذلك أن يفيد من ثرواته، ويوازن بين الإنتاج والاستهلاك، وينبذ القبلية، ويؤمن بحتمية الوحدة، وبالديمقراطية، وباحترام الرأى المخالف، وبالرؤية المستقبلية، تقدم العلم هو الهدف الأهم للمجتمعات الغربية، وهو ما يجب أن يكون هدفنا فى الوطن العربى، متلازماً مع أهداف التحرر والعدالة الاجتماعية.

☆☆☆

التقدم ليس مطلقاً، لكنه نسبى.. ما يعد تقدماً فى بلد كبلادنا، قد لا يعد كذلك فى بلد آخر، ويقول عالم الاقتصاد السياسى روبرت ريتش: "ثمة إدراك عام حول العالم بأهمية الحفاظ على مستوى المعيشة ونموه، فالدول التى ترتب أولوياتها التكنولوجية بطرق سلمية، تستطيع الحصول على الرخاء، أما الدول التى لا تميز أولوياتها التكنولوجية، فإنها تسقط صريعة ردود فعل البحث عن شخصيتها، وتقيم حدوداً جديدة مبنية على التاريخ أو الدين أو القومية أو الثقافة أو التقاليد".

من أخطر ما نحياه غياب إحساسنا بالمنافسة، حل محله إحساس بالعجز والتخاذل، نحن نقلد ونحاكى، ربما دون تدبر، ودون تفهم لما يفيدنا، وما ينبغى رفضه، لا أعنى العلم، فمواطنة العلم عالمية، لكن أعنى ما قد يحيا فى معتقداتنا وعاداتنا وتقاليدنا، ما يحيا فى هويتنا القومية والوطنية.

أغرب الأشياء أننا نلجأ إلى الاجتهادات الغربية، عندما نحاول التعرف إلى قضايانا ومشكلاتنا، انظر المراجع فى أى كتاب يتناول موضوعاً تاريخياً أو اجتماعياً يتصل بالحياة المصرية، قيمة الكتاب تتعاظم بقدر تعاظم قائمة المراجع الأجنبية، أذكر نصيحة صديق - وهو أستاذ جامعى مثقف ومرموق - لأحد تلاميذه، بأن يضيف - ولو بمجرد ذكر العناوين - إلى قائمة مراجعه كتباً أجنبية، لترضى عنه لجنة التحكيم!

إنهم يغسلون أدمغتنا، يحشونها بمعلومات قد تكون كاذبة، والأغلب أنها كاذبة، أذكر فى صباى - وكنت متأثراً بما أقرأه، وأستمع إليه، عن تفوق

الأجنبى ـ أن الصحف تحدثت عن لاعب كرة أجنبى، أوروبى بالتحديد، تجرى خطوات ضمه إلى نادٍ مصرى، تصورت أن اللاعب ـ الذى لا أعرفه ـ سيتيح لناديه الجديد أن يتغلب على كل الفرق المصرية، وربما حقق له بطولات عالمية، كنت على ثقة ـ اتساقاً مع عمليات الغسيل ـ أن الأجنبى "سوبرمان"، وأنه يستطيع أن يصنع الخوارق والأعاجيب، والغريب أنى رأيت ـ بعد أن كبرت، وغاب تأثير الغسيل القديم! ـ معلقاً رياضياً شهيراً هو الراحل محمد لطيف، يتحدث عن مباراة بين فريقى مصر وإنجلترا، ويضغط ـ قبل أن تبدأ المباراة ـ على يقينه بأن نتيجة المباراة لابد أن تكون فى صالح الفريق الإنجليزى!، لم يشر إلى الإرادة، ولا حتى إلى الحظ، ولا إلى النتائج المفاجئة للساحرة المستديرة، على حد تعبير معلقى الكرة!

حتى أمور حياتنا اليومية التى تستند إلى قيم ممتازة، أصيلة وثابتة، نحاول أن نسقط عليها قيم الغرب بلا ضرورة، وبلا سبب، لا يمل مثقفونا التحدث عن الأوروبى الذى إذا أراد أن يطلى واجهة بيته، فإنه يسأل جاره عن اللون الذى يفضله، هو يسكن داخل البيت، أما الجار فإنه يطل عليه، يشاهده من الخارج. لماذا لا نتذكر مثلنا العامى "كل ما يعجبك، والبس ما يعجب الناس"؟، قد نأكل أى شىء، لكننا نحرص أن تكون ثيابنا نظيفة، مكوية، تعجب الآخرين، المظهر الرئيس فى أعيادنا القومية لبس الجديد من الثياب. الرسول صلى الله عليه وسلم كان يغادر بيته صبيحة عيدى الفطر والأضحى وقد ارتدى ثياباً جديدة، ثياب العيد وما يرافقها من تصفيات وأوكازيونات وحركة شراء نشطة صورة نحياها فى رمضان، والأيام التى تسبق وقفة عرفات، أعجب ـ أصارحك ـ للفتاة التى تغادر حارة فقيرة، لكنها ـ بالثوب الذى ترتديه وبأناقتها ـ تنتمى إلى عالم صنعته بنفسها، وجاوزت به ـ ولو ظاهرياً ـ الواقع الذى فرض عليها!

إن ثقافتنا الآنية تواصل مع تراثنا الثقافى فى مجالات الحياة المختلفة، لكننا ـ فى الوقت نفسه ـ جزء من هذا العالم، لا نستطيع أن ننقطع ولا ننفصل عنه، لا أتخوف من الهامشية وإنما أتخوف من الموت!

بتعبير محدد، فلكى نحتفظ بأصالتنا، ونستشرف المستقبل الذى نأمله، فإن علينا أن نسهم ـ بصورة حقيقية ـ فى عملية البناء الحضارى، والمدنى، التى يحياها العالم.

يا صدمة المستقبل:

أهلاً!

تلاحق فى هذا العالم، منذ منتصف القرن العشرين، العديد من الثورات، مثل ثورة المعلومات، وثورة الاتصالات، وثورة الإعلام، وثورة المواصلات، وثورة الهندسة الوراثية، وثورة الإلكترونيات، إلخ.. وقد انعكست كل تلك الثورات بالضرورة، ليس على واقع الإنسان المعاصر فحسب، وإنما على ماضيه، ومستقبله أيضاً..

علم المستقبل، أو المستقبليات، تسمية أطلقها الكاتب الألمانى أوسيب فلخيتهايم على عملية التنبؤ باستخدام النماذج الرياضية، هذا العلم يعتمد أساساً على مجموعة إحصائية هائلة، تمتد لعشرات السنين، قبل إجراء الدراسة المستقبلية، وتشمل الإحصاءات كل المجالات التى تحاول الدراسة المستقبلية تحليلها، للوصول إلى تنبؤ علمى واضح فى هذا المجال.

كانت معظم الدراسات المستقبلية تنتهى بنهاية القرن العشرين، ثم امتدت الدراسات إلى عشرات الأعوام الأخرى، التالية.

المستقبليات تعنى ببضعة عوامل هى الأكثر تأثيراً على نمو الكرة الأرضية، ومن بينها: السكان، الناتج الزراعى العالمى، الموارد الطبيعية، الناتج الصناعى، التلوث..

ولعل أهم ما يتضمنه علم المستقبليات، أنه يخطط للفترات القادمة، للأعوام القادمة، فلا يفاجأ بما لم يكن يتوقعه، ويضع لكل توقع احتماله، وردود أفعاله، ويلجأ إلى الأرقام والإحصاءات والرسوم البيانية والتوقعات الرقمية عموماً، بحيث تبين الصورة البانورامية للمستقبل عن ملامحها وألوانها وظلالها.

والمستقبليات لا تدرّس بعداً دون سائر الأبعاد، بل إنها تنظر إلى المستقبل باعتباره كلاً مترابطاً، يشمل المجالات المختلفة من اقتصادية وعلمية وثقافية وسياسية.

وإذا كان الإنسان قد عرّف بأنه مخلوق ناطق، أو أنه مخلوق مفكر، أو أنه مخلوق له تاريخ.. فإن الإنسان يتميز كذلك عن سائر المخلوقات بأنه مخلوق مستقبلى، بمعنى أنه يحاول مجاوزة الماضى والحاضر معاً، سعياً وراء غد أكثر تطوراً.

إن كل محاولات الفلاسفة والعلماء والمفكرين تستهدف المستقبل على نحو ما، قد تناقض الماضى فى بعض دلالاته، وقد تستوقفها مشكلات الحاضر.. لكن تطلعها الدائم يظل نحو المستقبل، إنه سدى محاولاتها وغايتها الأساسية، وما المجتمعات اليوتوبية ـ أو المثالية ـ التى قدمها المفكرون والفنانون، منذ جمهورية أفلاطون إلى جمهورية يوسف إدريس، إلا محاولات دائبة ومستمرة لاستشراف المستقبل.

ومع أنه من الصعب فصل الدراسات المستقبلية، إحداها عن الأخرى، فإنه يمكن تحديد ثلاثة أنواع من الدراسات هى:

ـ دراسات التنبؤ بما سيحدث فى مجال علمى معين، مثل التطور فى مجال الهندسة الوراثية أو الاتصالات.

ـ دراسات تأثير الإنجازات العلمية الحالية على مستقبل البشرية، وتعتمد بعض الحقائق العلمية أساساً لها.

ـ دراسات المستقبل التى تعتمد على الإحصاءات المفصّلة، وهى تتجه إلى مجالات متخصصة مثل التنبؤ باستهلاك الطاقة، باستخدامات الموارد المختلفة فى الأعوام القادمة.

وثمة نتائج أساسية توصل إليها علم المستقبليات فى أبحاثه وتحليلاته، ومن أهم تلك النتائج:

ـ إنه لن تكون هناك حدود فى المستقبل القريب، سواءٌ بالنسبة للموارد الأولية أو لموارد الطاقة، لأن التقدم التكنولوجى سيتيح إيجاد مصادر جديدة للطاقة والمواد الأولية، كما سيحد من مشكلة التلوث.

ـ لن تكون هناك حدود لزيادة الإنتاج الزراعى، وستكون هناك على الدوام وفرة فى الغذاء، وذلك فى ضوء استغلال التكنولوجيا المعاصرة.

ـ ستتيح التكنولوجيا استغلال البحار، بزراعتها، أو بالإفادة من الثروة التى تشتمل عليها، أو بإقامة مستعمرات سكانية على المساحات الواسعة من البحار.

ـ سيوفر التقدم التكنولوجى للإنسان إمكانية الغوص فى أعماق الأرض، والحصول على الكثير من المواد الأولية التى لم تمس حتى الآن، فضلاً على استغلال الطاقة الجوفية الأرضية لتوليد الطاقة.

ـ سيتاح للإنسان ـ بالتقدم التكنولوجى المذهل ـ استغلال الفضاء، سواءٌ بإقامة مستوطنات سكانية، أو باستغلال الفضاء، لإقامة صناعات تزيد من الناتج الصناعى.

لقد جاءت الثورة الصناعية، فنقلت الإنسان الأوروبى من مجال التصور إلى مجال تحقيق الأمنيات، وتحققت بالفعل مجتمعات الرفاهية الأوروبية، وإن جاء ذلك نتيجة الغزوات الاستعمارية، وسيطرة العالم المتقدم على موارد الدول الأخرى.

وأياً يكن الأمر، فقد دخلت الدول المتقدمة ـ منذ عشرات السنين ـ مرحلة ما بعد الصناعة، فى حين تحيا الدول النامية مرحلة هى مزيج من اقتصاد الإقطاع والصناعة، لذلك فإن التقدم العلمى والتكنولوجى الذى ستتحقق من بعده مرحلة ما بعد الصناعة فى الدول النامية، سيؤدى إلى تأثيرات اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية بعيدة المدى، وستكون تلك التأثيرات سلبية فى معظم الأحيان.

الدراسات المستقبلية هى سبيل الدول النامية الوحيد ـ مثلما كانت سبيل الدول المتقدمة ـ لصنع مستقبل يفيد إلى أقصى حد من الثورات العلمية والتكنولوجية التى يحياها عالمنا المعاصر، فلا تصبح مجرد مصدر للعمالة والمواد الأولية والغذاء، ولا ترتكن إلى دورها الحالى كمجرد مستهلك، وإنما تحاول الابتكار والاختراع والتطوير والإضافة

طبيعى أن الدول التى عرفت طريق التقدم، ستواصل تقدمها، بينما تظل

الدول الأخرى فى موضعها محلك سر.. وهو ما سيؤدى - ذات يوم - إلى اتساع الفجوة بين العالم المتقدم والنامى بصورة مخيفة، فيتحول كل منهما إلى عالم مستقل، أحدهما يسعى إلى مزيد من التقدم، والآخر يتهدده الموت فى كل لحظة.

ولعله من هنا يأتى طرح العديد من المفكرين والأدباء الذين ينتمون إلى العالم الثالث، قضية العلم فى مواجهة الفن، إنهم يجدون فى العلم وحده خلاصاً لكل مشكلات البشرية، وإنه هو المستقبل الحقيقى، إن أرادت أن يكون لها مستقبل، وفى مقدمة هؤلاء الأدباء والمفكرين أستاذنا نجيب محفوظ الذى تبنى الخيار العلمى، ليس فى أعماله الإبداعية فحسب مثل "أولاد حارتنا" و"الشحاذ" وغيرهما، وإنما فى مقالاته وحواراته الصحفية.

لقد شهدت الحرب الباردة نهايتها فى ١٩٧٩، مما فرض على سباق التسلح ضرورة التباطؤ، فالتريث، فالتراجع، لتحل - بدلاً من ذلك - ضرورات أخرى، وإمكانات أخرى، أهمها التقدم التكنولوجى الهائل فى مجال المعلومات، واستخدامات التكنولوجيا، والانطلاق نحو إقامة اقتصاد موحد يشمل الكرة الأرضية، وهو ما يسمى "الاقتصاد الكونى".

وكما يقول العالمان بارتون بنسبيت وباتريشيا أوردين، فإن دور رؤساء الدول ورؤساء الوزارات فى ظل النظام الاقتصادى الجديد سيقتصر على إعادة ربط البنى أساسية لبلادهم، بما يسهل عملية إضفاء الصفة العالمية على اقتصاد بلادهم.

إن عالم الغد - كما يرسمه العلماء - سيتسم بهيمنة الاقتصاد على السياسة، وسيذوى مفهوم الجماعة أمام قوة الفرد، وستطبق البيولوجيا والعلوم الإليكترونية على كل المرافق المهمة، فتصبح مالكة المبادرة فى عملية التغيير!

وإذا كان القرن العشرون قد شهد منذ بداياته، وبالتحديد منذ الثورة البلشفية، انتصار الجماعة مقابلاً لذواء دور الفرد، فإن زوال الاتحاد السوفييتى والمأزق الذى تحياه الاشتراكية مقابلاً لتصاعد الاتجاهات التى تؤكد قيمة الفرد، يشى بدور الفرد المتميز فى الفترة القادمة، إنه هو الذى يبتكر الأشياء، وهو الذى يعمل على تطويرها واستمرارها، وهو أيضاً دعامة

المجتمعات التى ينتسب إليها، وقاعدة التغيير الذى يمكن أن يحدث ـ مستقبلاً ـ فى المجتمعات المختلفة.

لقد أعلن جورباتشوف ـ قبل أن يسلم مقاليد الحكم إلى الليبراليين ـ أنه كان يجب أن يكون الفرد هو أساس الاشتراكية، كما دعت النقابات العمالية فى الاتحاد السوفييتى ـ قبل تفككه ـ إلى أن يكافأ كل فرد حسب مجهوده.

وبالطبع، فإن المستقبل يحمل الكثير من تأكيد قيمة الفرد وسيطرته.

وعلى سبيل المثال، فإن الملايين من الأفراد يمتلكون الآن شبكات اتصال واسعة، تحققت بواسطة كومبيوتراتهم الشخصية، مما يتيح لهم الإفادة من هذه الشبكة الواسعة فى غيبة من تدخل الدولة أو رقابتها، فإذا أضفنا إلى ذلك الإنجاز المهم إنجازاً آخر هو الإنترنت، فإن الأفراد يتصلون الآن بآخرين فى أى مكان فى العالم دون تدخل من شبكات الهواتف الوطنية، ومن المتوقع ـ فى مدى سنوات قليلة ـ أن يعم اتصال أى شخص بأية بقعة فى العالم، من غير أن يعرف أحد مكان المتصل، أو مكان المتصل به، وهذا الانتصار المعلوماتى سيؤكد انتصار الفرد، ويحقق له الراحة والاستقرار والرفاهية فى آن.

كما أفاد العلم من تضافر الثورات العلمية الحديثة فى الاتصالات، الهندسة الوراثية، التكنولوجيا، علوم المواد، وغيرها.

وإذا كان عصر البيوتكنولوجيا قد بدأ، بامتزاج التكنولوجيا والبيولوجيا فى عشرات الاستخدامات، إلى حد أن الفيزياء الجديدة تعتمد فى تطورها الحالى على استعارة المفاهيم البيولوجية مثل القول بفيروس الكومبيوتر، وفيروس المعلومات، والإنترفيرن إلخ.. إذا كان البيوتكنولوجيا قد بدأ، فإن المستقبل سيشهد تداخلاً أشد بين البيولوجيا والعلوم الإلكترونية.

وعلى سبيل المثال، فإن مهمة الكومبيوتر هى المساعدة على فك رموز الحياة، بينما تزودنا البيولوجيا بمعلومات تثرى معالجاتنا المنطقية، وأنظمة المعلومات عموماً، والأمل أن تساعد العلوم البيولوجية فى إنتاج ما يطمح إليه العلماء من أجهزة الكومبيوتر الذكية!

☆☆☆

استطاعت القاطرة والسيارة والطائرة والراديو والهاتف والتليفزيون والكومبيوتر والإنترنت والفضائيات.. استطاعت كل تلك الإنجازات الإقليمية، أن تجاوز بالإنسان حدود الإقليم، ليصبح مواطناً عالمياً، يتفاعل مع الأحداث خارج حدود بلاده، ويكون له فيها رأى وموقف، بل إن الإنسان لن يكون بحاجة - فى القريب - إلى مغادرة بيته لإجراء أبحاثه داخل مختبرات الجامعة أو داخل مكتبتها، فجهاز الكومبيوتر الخاص به سيمكنه من المشاركة بصورة فعلية فى كل الأبحاث والدراسات والمؤتمرات التى قد تبعد عن مكان إقامته بآلاف الكومبيوترات.. هل أذكّرك بالإنترنت؟..

وسيخترع العلماء فى المستقبل أجزاء صناعية فائقة الدقة، يصعب تمييزها عن الأجزاء الطبيعية، وربما تم صناعة إنسان آلى يصعب تمييزه - بالشكل الخارجى - عن الإنسان الحقيقى..

من المتوقع كذلك أن يتعرف العلماء إلى الكثير من بواعث الشيخوخة بما يساعدهم على إيجاد الوسائل التى تكفل إطالة الحياة.

وستكون الغلبة للإلكترونيات فى مدن المستقبل، وتفرض الأجهزة والمعدات الإلكترونية سيطرتها على كل مرافق الحياة اليومية والعملية.

وعموماً، فإن أفضل المدن فى الفترة القادمة لن تكون الأكثر زحاماً بالبشر والبنايات والمؤسسات، لكنها المدن الإلكترونية، فهى المدن الأكثر ذكاء، والتى تعبر عن واقع جديد متطور.

والطاقة الشمسية استخدام مستقبلى مؤكد.

لقد بدأ استخدامها - منذ سنوات - فى العديد من المجالات، مثل الأفران الشمسية، وتحلية المياه، والتدفئة، والتبريد، وأنتجت اليابان كومبيوترات صغيرة تعمل بالطاقة الشمسية، وثمة سيارات تستخدم الطاقة الشمسية، والمحاولات متعددة لاستخدام الطاقة الشمسية فى مجالات أخرى، توفيراً للطاقة من ناحية، وتخفيفاً للتلوث من ناحية ثانية، بل إن العلماء يحاولون تحويل الطاقة الشمسية بالأقمار الصناعية، فتصبح موجات ميكروئية تستقبلها المحطات الأرضية، وتحولها ثانية إلى طاقة يمكن الإفادة منها، ويتوفر علماء وكالة ناسا الفضائية على إنتاج أول طائرة تعمل بالطاقة الشمسية، ولها القدرة على الطيران لمدة سنة.

ومن أهم المجالات التى ارتادها علم المستقبل، علم الهندسة الوراثية، بالتلاعب بالحامض النووى وبالمادة الوراثية للخلية، بحيث تضاف مادة وراثية أخرى، وقد سميت هذه الطريقة بالتكاثر اللاجنسى، وتستهدف ـ كما قال العالم ليدر برج ـ نسخ عبقرى جديد من أبيه العبقرى، بدلاً من الاعتماد على صدفة مجىء مولود قد لا يكون عبقرياً كأبيه، ويبلغ طموح العلماء حد إنتاج الإنسان الكامل الخالى من الأمراض والشديد الذكاء، بينما يتجه طموح علماء آخرون إلى إنتاج إنسان لا يعتمد فى غذائه على الحيوانات، وإنما على الطاقة الشمسية وثانى أوكسيد الكربون والماء وبعض العناصر غير العضوية.

وبالنسبة للفضاء، فإن المستوطنات الفضائية ستعم القمر والمريخ، والأجواء التى تحيط بالأرض، وسيقطن البشر هذه المستوطنات، كما سيقام العديد من المصانع الفضائية لإنتاج المكونات الإلكترونية والأدوية التى تشترط نسبة نقاوة عالية، وربما سكن المستوطنات الفضائية وأدارها، أجيال متوالية من الروبوت، تحاول الإفادة من الموارد الفضائية.

أخيراً، فقد بلغ من التقدم المذهل الذى حققه علم المستقبليات، أن صدمة المستقبل تحولت إلى مرض نفسى يعانيه الكثير من البشر، إنه مرض عدم القدرة على التكيف، مع التغير السريع الذى يشهده عالمنا المعاصر.

ويؤكد الدكتور نوفلر، أن زيادة الأمراض النفسية والعصبية لدى الكثير من البشر فى الوقت الحالى، تعود إلى صدمة المستقبل، يضيف نوفلر إن العالم ينطلق بسرعة جنونية، مصطحباً معه تكنولوجيا سريعة، ما تلبث أن تصنّع كل يوم ما هو جديد، وأكثر عملية، لحياة مستقبلية، تبتعد كل البعد عن الاسترخاء، ولو للحظات قليلة.

أما عالم الاجتماع لورنس سوم، فهو يحذّر من أن أولئك الذين يستطيعون، سوف يتطورون، أما الذين لن يستطيعوا، فهم إما أن يبقوا عند مستوى أقل من التطور، أو أن يدركهم الفناء!

التقدم هو أن نسعى لجعل الغد ـ بالعلم ـ أفضل من اليوم، أن نعيد النظر فى مناهجنا، وفى أساليب حياتنا، بحيث نقطع مسافة التخلف بيننا وبين الغرب، أو نقطع بعض تلك المسافة فى أقل تقدير.

إن العلم يعنى التطور، ويعنى المستقبل الحقيقى للفرد والجماعة.

موقفنا من العلم هو الذى سيحدد أوضاعنا المستقبلية: إما السير خطوات واضحة نحو التقدم، وإما الاستكانة إلى التخلف الذى سيجاوز ـ بالضرورة ـ صورته الإستاتيكية الحالية، إلى موت حقيقى، فاندثار!

وإذا كان البعض سيجد فى الكثير من هذه الكلمات، ما وجد سبيله إلى التحقق، فإن الهدف الذى حاولت أن تسعى إليه يخضع للقراءة والبحث والمتابعة والتأمل والتخمين والحدس، وكل ما يصنع صورة المستقبل، من الصعب أن نتنبأ بالمستقبل، بإنجازات العلم فى المستقبل، حقق العلم ما كان يعتبر من أدب الخيال العلمى، بل إنه تجاوز ما وصلت إليه أخيلة الأدباء الذين وجدوا فى العلم حلاً لمشكلات الإنسان المستقبلية، التطورات متلاحقة، وما كان حلماً منذ وقت قريب، صار فى قبضة الأيام فى زماننا الحالى، بل إنه يتقزم بالقياس إلى إضافات تجاوزته.

مستقبلنا في العلم
أو لا مستقبل!

فى أوائل الخمسينيات من القرن الماضى، قرأت للعالم المصرى الكبير أحمد زكى مقالاً يسخّف فيه فكرة الصعود إلى القمر، لكن الإنسان صعد إلى القمر فى حياة أحمد زكى، وهو ما أشار إليه ـ فيما بعد ـ الكاتب العلمى آرثر كلارك: "على مدى تاريخ العالم، كم من كبار العلماء والمخترعين قالوا عن إنجاز علمى ما إنه مستحيل لا يمكن تحقيقه، ثم تحقق ذلك الإنجاز فى حياتهم، وقبل أن يجف الحبر الذى سجلوا به استحالة حدوث ذلك"، وأضاف آرثر كلارك: "يبدو أن العلماء هم آخر من يصلح لتصور المستقبل البعيد للتطور العلمى، فتاريخ العلم حافل بنماذج من التخاذل وقصور الخيال والعناد الذى أبداه علماء عظماء حول إمكان تحقق هذا أو ذاك فى المستقبل، فى الوقت الذى نكتشف فيه نسبة عالية من صدق تنبؤات كتاب وقراء قصص وقراء الخيال العلمى".

والحق أن العالم يشهد منذ منتصف القرن الماضى تطورات علمية وتكنولوجية مذهلة، تشمل الهندسة الوراثية، واتساع شبكة المعلومات، ونظم الانتقال المتطورة التى ألغت ـ أو كادت ـ البعد المكانى، والإنترنت، والاتصالات عبر الأقمار الصناعية التى كادت تلغى البعدين الزمانى والمكانى.

☆☆☆

يقول كارل روجرز: "فى الوقت الذى تتقدم فيه المعرفة، سواءٌ كانت بناءة أو مخربة، فى وثبات وقفزات كبيرة، إلى عصر ذرى هائل، يبدو أن التكيف الابتكارى هو الاحتمال الوحيد الذى يمكن للإنسان من أن يصبح متمشياً مع التغير المتعدد الجوانب فى العالم الذى نعيش فيه، وفى الوقت الذى تتقدم

فيه الاكتشافات العلمية والاختراعات، على أساس متوالية هندسية، يصبح الأفراد السلبيون الذين يخضعون لثقافتهم، عاجزين عن التعامل مع القضايا والمشكلات المتزايدة، وما لم يستطع الأفراد والجماعات والأمم أن يتخيّلوا، ويبنوا، ويراجعوا، بابتكار أساليب تعاملهم مع التغيرات المعقدة، فإن النور سينطفئ، وما لم يستطع الإنسان أن يأتى بأساليب جديدة وأخيلة للتكيف لبيئته، بسرعة تماثل سرعة العلم فى تغيير بيئته، فإن ثقافتنا ستضمحل، وسيكون الثمن الذى تدفعه لافتقارنا إلى الابتكار، ليس فقط سوء تكيف الفرد وتوترات الجماعة، بل أيضاً الإبادة الدولية" (مجلة العلوم الاجتماعية ـ العدد الأول ـ المجلد ١٣ ـ ربيع ١٩٨٥)

إن التعامل مع المستقبل يبدأ بمحاولات فهم الحاضر، فهم المشكلات والقضايا الآنية التى نواجهها، وسبل التغلب عليها، باعتبار أن ذلك هو المدخل الحقيقى ـ والوحيد ـ إلى المستقبل، المؤسسات غير الحكومية فى الولايات المتحدة ـ على سبيل المثال ـ تنفق على برامج التنمية ـ فى صورة منح وبرامج خيرية وتمويل دراسات وأبحاث ورسائل جامعية ـ نحو ٣٠ مليار دولار، وأرجو أن تعيد قراءة الرقم.

✩✩✩

الحقيقة التى يتفق فيها العلماء أن "الابتكار" ليس مهماً لمجرد تحقيق التقدم الإنسانى فحسب، وإنما لتحقيق استمرار وجود الإنسان على سطح الأرض.

فى رواية إدواردو مندوثا "مدينة المعجزات" يتحدث الفنان عن الطاقة الكهربائية والإذاعة والسيارة والطيارة والتقدم فى علوم الطب والصيدلة، سيتحقق التغيير فى كل شىء بصورة جذرية: الاتصالات والنقل وغيرهما من مظاهر الحياة، فالطبيعة تنفى إلى مناطق معينة، وسيستأنس النهار والليل والبرد والحر، ويتحكم العقل البشرى ـ كما يريد ـ فى قانون الصدفة، ولن تكون هناك حواجز تقف فى وجه ما يخترعه الإنسان، فسيتحكم فى حجمه جنسه، ويتمكن من الانتقال فى الفضاء على سرعات لم يسمع بها أحد، ويصبح غير مرئى حسبما يتراءى له، ويتعلم لغة أجنبية فى ساعتين، ويحيا ثلاثمائة عام أو أكثر إلخ (إدواردو مندوثا: مدينة المعجزات ـ ت محمد أبوالعطا ـ ٣٠١)

ويؤكد العلماء أن الأشخاص الذين سيقدر لهم العيش إلى ما قبل نهاية الربع الأول من القرن العشرين، ستكون أمامهم فرصة تجاوز الأعوام المائة من أعمارهم، ولابد أن يهبنا الاستنساخ معطياته، والتى لن تتوقف على مجرد حدث الاستنساخ، لكنه سيفيد ـ بالطبع ـ من تطور علم الجينات.

لم تعد السماء مجرد قمر، ولا مجرد نجوم نتغزل فيها، السماء فى عصرنا أجرام، حاولنا ـ ونحاول ـ أن نصل إليها، لاستكشافها، وللإفادة مما قد تحويه من ثروات.

ويتوقع العلماء أن يكون هبوط البشر فوق الكواكب نحو عام ٢٠٢٢ بواسطة القاعدة القمرية التى ينتظر اكتمال إنشائها فى ٢٠١٥، أما أول سفر للإنسان إلى النظم النجمية القريبة من كوكب الأرض، فمن المتوقع أن يتم فى نحو منتصف القرن، لن تقتصر إقامة الإنسان على كوكب الأرض وحده، لكنه سينتقل للزيارة، أو للإقامة، فى كواكب أخرى، وفى الوقت الذى تحاول فيه الدول النامية البحث عن موقع فى المدار الثابت، تطلق فيه أقمارها الخاصة، حين تفلح فى صنعها (!) فإن الدول المتقدمة تشكك فى أن الأقمار الصناعية سيكون لها دور حقيقى فى المستقبل، إن الألياف البصرية ستحل تماماً محل الأقمار الصناعية، فى النقل ذى السعة الكبيرة، وعبر المسافات الطويلة، كنوع من التطبيق التكنولوجى المتقدم للألياف البصرية، مما يمثل تهديداً مباشراً لاستخدامات الأقمار الصناعية، لأن الكابلات توفر جودة نقل عالية وطول عمر، مقارنة بالأقمار الصناعية، وخاصة بعد خفض القيمة الإيجارية للكابلات.

وعلى المرء ـ قبل أن يبدأ بسيارته رحلة طويلة ـ أن "يبرمج" مسار الرحلة على الكومبيوتر، ثم يترك لها مهمة القيادة، فستكون السيارة مزودة برادار وأشعة تحت حمراء، وموجات فوق صوتية، تساعدها فى أداء عملها، والسير ـ فى أمان ـ بين زحام السيارات والمشاة!، ولن تعتمد سيارة المستقبل على عجلة قيادة ودواسات وفرامل إلخ.. وإنما سيكتفى السائق باستخدام "كارت" لتشغيل سيارته، التى تقوم بكل العمل، حتى الحفاظ على مسافة آمنة بينها وبين السيارات التى تسبقها فى الطريق، وطائرة المستقبل لن يقودها طيار، وإنما سيقودها الكومبيوتر، منذ لحظة الإقلاع إلى الهبوط، وقد قامت شركة

بوينج الأمريكية بتجارب فى هذا المجال، وقد تصبح الطائرات الحالية ـ فى العقود القادمة ـ أقرب إلى قطارات البخار. سيحل بدلاً منها المكوك الفضائى، بكل ما يعنيه من إمكانات مذهلة.

وإذا كانت مصر تعانى غلبة الصحراء على أراضيها، فإن المستقبل يحمل إمكانية تأهيل الرمال إشعاعياً، بحيث تنمو النباتات فى الصحراء بسرعة مذهلة.

وبالنسبة للمناخ، فلن يقتصر التكييف على القاعات أو الغرف المغلقة، لكنه سيشمل ملاعب كرة القدم والساحات غير المغطاة.

يذهب "تيبور مندو" إلى أن المدنيات التى بلغت التكنولوجيا فى أعلى مستوياتها، هى التى استقر مناخها، من حيث برودة الجو فى عمومه، وهى تلك التى تقع بين مدارى السرطان والقطب الشمالى. والملاحظ أنه حين يريد المرء أن يحول دون فساد الطعام، فهو يضعه فى الثلاجة، إذا تعطلت الثلاجة، أو لم تكن موجودة، فإن الطعام يصبح عرضة للفساد، أما إذا تركت اللحم والخضراوات والفاكهة الطازجة فى حرارة الشمس، فإنى أترك لك تصور مصيرها.

☆☆☆

فى ١٩٩١ قال وزير خارجية فرنسا: إن العرب ليسوا أكثر من وهم (الأهرام ١٩٩٤/١٠/٢٥)، سبقه محسن فى رواية الحكيم "عصفور من الشرق إلى القول: "نعم، اليوم لا يوجد شرق!.. إنما هى غابة على أشجارها قردة، تلبس زى الغرب، على غير نظام ولا ترتيب، ولا فهم ولا إدراك" (عصفور من الشرق ـ ١٩١)

لكن ثورة الاتصالات نسفت حواجز الزمان والمكان والبعد والمسافة واللغة، لم تعد العزلة واردة.

ولعل هذا هو المعنى الذى أشار إليه مفكر إفريقى: "إننا نطالب بنوع من التقنية يساعد على إظهار استعدادات الإبداع والاكتشاف فى إفريقيا، ويمكن تنفيذه بأسعار مخفضة، وفى الوقت نفسه، تكون مصنّعة وأصيلة فى إفريقيا على التقنيات التى يتم استيرادها من الخارج بتقنيات متقدمة" (التراث والتطور ـ ٨٧).

فى عام ١٩٤٨ أعلن الأمريكى ويليام فوجيت ـ إثر زيارة له إلى الصين ـ: "أن الصين لا يمكنها إطعام المزيد من البشر، وأن المأساة التى ستواجهها الصين هى انخفاض معدل وفياتها، يموت الملايين، ولا مفر من ذلك "فهؤلاء الرجال والنساء والأولاد والبنات لابد أن يموتوا جوعاً، كضحايا على المذبح المزدوج للإنجاب غير المنظم، ولسوء الاستخدام غير المنظم للأرض والموارد، "لكن الأعوام توالت دون أن يموت الملايين ـ كما تنبأ فوجيت ـ لأن الصين اختارت طريق الجدوى، فزادت من مساحات زراعاتها، وأنشأت المصانع، واستغلت الأيدى العاملة الوفيرة، السد الذى كان يحتاج إلى آلات عملاقة، شيده الآلاف من العمال بوسائل بدائية، وبدلاً من الإنفاق المعتاد لمبالغ ضخمة على الآلات، عبئت قوة عمل ملايين الفلاحين، لأنهم تفهموا معنى ذلك جيداً، وأنهم لن يعانوا المجاعة بعد ذلك أبداً، وأصبحت الصين ـ دون مشروع واحد للبنك الدولى، أو المعونة الغربية ـ البلد الذى يمتلك ثلث أراضى المحاصيل فى العالم.

***

إن التبعية الاقتصادية تفضى إلى تبعية سياسية وعسكرية، والتبعية الاقتصادية فى وطننا العربى تتمثل فى أننا نستهلك ولا ننتج، نستورد أكثر مما نصدر، وصادراتنا ـ فى الأغلب ـ هى الحاصلات الزراعية والبترول والمواد الخام، أما وارداتنا، فهى تبدأ بالإبرة وتنتهى بالأقمار الصناعية، وبكلمات محددة، فإنه لابد من استيعاب التكنولوجيا والميكنة، والتحول من مجرد استهلاكها إلى إنتاجها.

فى بعد آخر، فإن تقدم الإدارة يشمل محو الأمية، والتقدم الصحى، والرعاية الاجتماعية، وذوبان البطالة، وإجادة توظيف القدرات البشرية، والتقليل ـ القول بالإلغاء أشبه بالعنقاء المستحيلة ـ من الظواهر السلبية كالمحسوبية والرشوة والفساد وغيرها، مما يضع المجتمع فى ترتيب متخلف للغاية بين دول العالم. وكلما سار المجتمع أكثر فى طريق المعرفة والتقدم، فإنه يصبح أكثر قدرة على خلق النظريات الفنية والأدبية، وتقديم الجديد من المخترعات العلمية والتكنولوجية.

***

النموذج الغربى ليس هو النموذج الوحيد فى تجربة التقدم، أشرنا إلى

التجربة الصينية فى مواضع سابقة، التجربة اليابانية تهبنا نموذجاً مغايراً، أشد خصوصية وتمايزاً، إذا كنا قد اكتفينا بالتعامل مع الغرب كمشترين، كمستهلكين، فإن اليابان قد حاولت أن تفيد من التقدم فى الغرب، أن تقلد وتطور وتضيف، حاولوا تعلم الصيد بدلاً من شراء السمك!

الأرقام تقول إن عدد أبناء الشعب اليابانى يبلغ ١٢٦ مليون نسمة، وأنهم يعيشون على مساحة ٢٢٧ ألف كيلو متر مربع، أى ثلث مساحة مصر، ٧٣ ٪ منها جبال (أذكرك بأن نحو ٩٦ ٪ من مساحة أرض مصر صحراء، هناك فرق!)، شعب اليابان يمارس حياته إذن على مساحة لا تزيد عن مساحة مصر العليا، وإذا كانت مصر تمتلك الكثير من الموارد الزراعية والمعدنية، فإن اليابان لا تكاد تمتلك موارد طبيعية من أى نوع، فضلاً على أنها مهددة دوماً بالزلازل المدمرة والبراكين والأعاصير، مع ذلك، فإن ١٥ ٪ من مجموع الناتج العالمى من إنتاج اليابان!

***

الكاتب الكبير السيد ياسين يذهب إلى القول إن الفرد العربى لا يؤمن بالعلم، بصرف النظر عن حظ هذا الفرد من المعرفة، ومن الوعى، حتى العالم المتخصص الذى يمارس العلم فى المدرج والمختبر، يسهل القول إنه لا يؤمن بالعلم (الأهرام ٢٠٠٩/١٠/٢٩)، وهو رأى لا يخلو من قسوة، وإن لم يخل من صحة.

لقد بدأت الصين رحلة التقدم، عقب انتصار الماركسيين فى أواخر الأربعينيات (لعادل كامل وأحمد زكى مخلوف ترجمة ممتازة لكتاب يعرض للحياة فى الصين آنذاك بأنها بلد الأفيون!)، ونفضت الكوريتان ما لحق بهما من دمار فى حربهما ما بين أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، وأمثلة آسيوية أخرى كثيرة استحقت تسمية النمور فيما حققته من تقدم.

خرج الاستعمار من أبواب تلك البلدان، فأغلقت الأبواب جيداً، وانصرف أبناؤها إلى غزل مستقبلهم، أما عالمنا العربى ـ أعنى قبائله وطوائفه وحكامه الذين يرفضون المصارحة، كى لا تتكشف البدايات الحقيقية: من أين أتى غالبيتهم؟ ولحساب من يعملون؟.. ذلك كله أتاح للاستعمار أن يعود من الشباك بعد أن خرج من الباب، بل إن ما نعانيه من ممارسات يؤكد أنه لم يغلق باب ولا نافذة، وأن الاستعمار يعيش بيننا.

لى قصة بعنوان" حادث استثنائى فى أيام الأنفوشى "، وجد طائر السمان القادم من الشمال كل شىء معداً لإقامته فى الأنفوشى، فشارك الناس حتى أماكن نومهم، وصار التقاعس عن المقاومة سبيلاً إلى الجنون!

البعض لا يجد فى تقاسم السمان حياتنا، ما يدعو إلى القلق أو التوجس، لماذا لا نفيد من تقدمهم؟!.إن الفجوة الرقمية بين العرب وإسرائيل تتسع يوماً بعد يوم، باتساع الاتجاه إلى العلم والتكنولوجيا، والتحرك محلك سر، أو الثبات على الماضى، والتخلف، واجترار ما لا يضيف إلى الحاضر أو المستقبل.

غاب عن أصحاب ذلك الرأى أن إسرائيل، واحة المدنية فى صحراء الوطن العربى، هى الرجل الأبيض الذى حمل على عاتقه عبء تمدين أقطار المنطقة، واجهة براقة لمحتوى استعمارى، استيطانى، يستهدف اجتثاث سكان البلاد الأصليين، وإحلال قوميات أخرى محلهم، أذكرك الحديث عن دور اليهود فى إلحاق المنطقة بالتمدن الغربى، ليس وليد ١٩٤٧ وما بعدها، لكنه يعود إلى سنين بعيدة، حدثتك فى كتابى "مصر فى قصص كتابها المعاصرين" عن المقال الذى نشرته مجلة "رعمسيس" المصرية، يتحدث فيه كاتبه عن اليهود باعتبارهم ـ فى زعم الكاتب ـ أصح أمم الشرق نسباً، وأنهم يعودون إلى المنطقة العربية لدفعها فى طريق التقدم.

دعوى الأخذ بيد شعوب المنطقة إلى مجالات التقدم، وجدت نقيضها فى الممارسات الغربية، ثم فى الممارسات الصهيونية.

إن مجرد تأمل المشهد البانورامى يفضح ما صارت إليه الأحوال غداة خروج الاستعمار المعلن من المنطقة (ثمة جيوب وكهوف وأوكار تتمثل فى استبدال الاستعمار الاقتصادى بالاستعمار العسكرى) وفى دفاعه الملح عن الكيان الصهيونى الذى يجد فيه تعبيراً عن سياساته فى المنطقة، مشهد المنطقة فى الفترة التى أعقبت خروج الاستعمار يشى بالعقبات التى وضعها فى سبيل استعادة المنطقة مقوماتها الفعلية من استقلال وسيادة وحرية فى اتخاذ القرار، فضلاً على التقدم فى المجالات المختلفة.

رفع الاستعمار الغربى يده ـ بصورة فعلية ـ عن دول آسيا، فأتيحت لها فرص التقدم، لكنه ترك فى منطقتنا العربية ـ الأمر نفسه فى إفريقيا ـ ما يجعل من تقدمها مجرد أمنية مستحيلة!

العرب.. والعالم

هذه المنطقة العربية، تمتد فى مساحة ١٤ مليون كيلو متر مربع، يحيا فوقها أكثر من ٣٣٠ مليون إنسان، غالبيتهم الساحقة ما بين الخامسة عشرة والخامسة والثلاثين، وذات طبيعة آمنة نسبياً (هل أذكرك بفواجع الطبيعة فى مناطق العالم الأخرى؟) ومناخ معتدل فى المثير من أقطاره، وموارد زراعية هائلة، وأيد عاملة ماهرة رخيصة، وإن احتاجت إلى إعادة توزيع، واحتياطيات نفطية تبلغ ٦٠ ٪ من احتياطيات النفط العالمى، واحتياطيات غاز تمثل ٣٠ ٪ من احتياطيات الغاز فى العالم، واحتياطيات نقدية مودعة ـ للأسف ـ فى المصارف الأجنبية، تبلغ أرقاماً يصعب عدها، لأنها تزيد بصورة مطردة، خاصة فى ضوء تنامى الخط البيانى لأسعار النفط.

والحق أننا نتصرف ـ أحياناً ـ مثل جانوس Janus إله الأبواب والممرات فى الأساطير الإغريقية، فهو يسير فى اتجاهين متعارضين، بمعنى أنه ينظر إلى الماضى والمستقبل فى وقت واحد، والمعنى جيد فى ظاهره، لكن نظرتنا التى تصل بين الماضى والحاضر، يغلب عليها الارتباك والتحير وعدم الفهم، نحن نطمئن تماماً إلى التراث والموروث، نجد فيهما الخلاص وتأكيد الهوية، وفى المقابل، فإننا نتطلع إلى المستقبل فى صورته الغربية المطلقة، دون اعتبار لقيمنا وهويتنا.

لا يختلف المؤرخون فى أن مصر عاشت دائماً، وغالباً، فى خطر، ويكاد الخطر الخارجى يتناسب ـ طردياً ـ مع خطورة الموقع، وأهميته، وغناه، ومع الاثنين يتناسب الثمن تناسباً طردياً أيضاً.

ولعل أهم آراء المصرى النبيل جمال حمدان، وأخطرها، أنه مادامت

إسرائيل موجودة، فلابد أن نفترض أن مكانة مصر وقيمتها قد هوت فى الحضيض، ومن يتحدى - والكلام لحمدان - فإن عليه عبء الإثبات!

إن ما تهدف إليه إسرائيل، هو أن تصبح قطباً، بينما تتحول الدول العربية إلى أجرام تدور فى فلكها.

الرؤية المستقبلية - أساساً - هى الفارق بين الفعل العربى والفعل الصهيونى، وهى رؤى موجودة - بالنسبة لإسرائيل - من قبل أن تنشأ الدولة الصهيونية بعشرات الأعوام، انتزعت العديد من الوعود، واشترت الأراضى، واستولت على الإعلام العالمى، ونقلت أحدث معطيات التكنولوجيا الغربية.

المقابل لما تملكه إسرائيل من أسلحة استراتيجية وتكتيكية، وتقدم علمى وتكنولوجى، واقتصاد قوى - بصرف النظر عن الممول! هو تعافى الجسد العربى، ولعلى أشير إلى ما ذكره اقتصادى لبنانى كبير هو حسين كنعان عن الاستراتيجية الأمريكية فى العالم العربى، وأنها تستهدف إرهاق دوله بديون خارجية من خلال إضعاف الاحتياطى لبيت المال المركزى فى كل دولة عربية، وتبديد الطاقات، وتحويلها إلى أفراد يصبحون بثرائهم الضخم جزءاً من الشركات العملاقة التى ترعاها الولايات المتحدة، ولا يخلو من دلالة قول مسئول فى مجلس الأمن القومى الأمريكى: "لا تزال لدينا مصلحة ثابتة فى التدفق الحر لنفط الشرق الأوسط بأسعار معقولة، ولدينا مصلحة ثابتة فى تبادل صداقة من أولئك مع الولايات المتحدة، ولا تزال لدينا مصلحة ثابتة فى أمن وبقاء وخير دولة إسرائيل" (العربى - العدد الأول)

☆☆☆

ثمة تقرير لوكالة التنمية الأمريكية (١٩٩٦) يؤكد أنه إذا كان يراد لمصر أن تدخل العالم الحديث بالكامل، فإن الحافز والوسائل يجب أن تأتى من الخارج، وهو قول ينطوى على مغالطة مؤكدة.

بتعبير محدد، فإننا يجب أن نتجاوز النظرة التى برر بها اليهود مجيئهم إلى المنطقة، ومحاولة استيطانها: أنهم جنس أسمى وأرقى من العرب الذين أخفقوا فى استثمار بلادهم أو تمدينها، لذلك فإن الاستيطان اليهودى إفادة من العبقرية اليهودية المتميزة لمساعدة العرب على تحقيق التقدم.

النموذج الغربى الذى تنتسب إليه دولة إسرائيل، ليس هو النموذج الوحيد فى التقدم، ولعلى أضيف أنه يعتمد على الدعم المطلق للولايات المتحدة والغرب.

التجربة اليابانية ـ على سبيل المثال ـ تهبنا نموذجاً مغايراً، أشد خصوصية وتمايزاً، إذا كنا قد اكتفينا بالتعامل مع الغرب كمشترين، كمستهلكين، فإن اليابان قد حاولت أن تفيد من التقدم فى الغرب، أن تقلد وتطور وتضيف.

كانت اليابان ـ إلى أواسط القرن التاسع عشر ـ إقطاعية فى نظامها الزراعى، أما الصناعة فكانت تعتمد على الورش الصغيرة التى تفتقر إلى التكنولوجيا الحقيقية، وكان المجتمع اليابانى بعامة، منغلقاً على نفسه فى مواجهة رياح العصر.

وكان العام ١٨٥٨ هو بداية التقدم الذى قطعت فيه اليابان ـ فيما بعد ـ خطوات مذهلة، أجبرتها القوى الأجنبية على فتح أبوابها أمام الاستيراد، فتأثرت صناعاتها المحلية الضعيفة، وواجهت تحدياً يتمثل فى احتمالين: إما أن تخضع لاكتساح المنافسة الأجنبية، أو تحاول اللحاق بالعصر، وتحقيق التقدم فى كل المجالات، وقررت اليابان قبول الاحتمال الثانى، والسعى فى اتجاهه، بدأت اليابان ـ عقب الحرب العالمية الثانية ـ برنامجاً ضخماً لنقل التكنولوجيا من الغرب، وكانت تدفع مقابلاً لحقوق الملكية الفكرية، وتنفذ برنامجاً مهماً ومطلوباً للانتقال من مرحلة نقل التكنولوجيا إلى مرحلة إبداع التكنولوجيا، اقتبست التكنولوجيا الغربية، وأنشأت ـ فى موازاتها، وتشابكت معها ـ التكنولوجيا اليابانية، ثم تجاوزت ذلك إلى التكنولوجيا اليابانية الخاصة، والمتطورة، أنت تستطيع أن تتعرف على تقدم التكنولوجيا اليابانية من مشاهدتك لأحد الأفلام الأمريكية ـ الأمريكية! ـ فجهاز التليفزيون الذى يشاهده بطل الفيلم ماركة "سونى"، والكاميرا التى يصور بها حبيبته ماركة "ياشكا"، وهكذا، انتقلت إبداعات التكنولوجيا اليابانية من موطنها إلى العالم، حتى الولايات المتحدة التى تعد تعبيراً متفوقاً عن التقدم التكنولوجى، هى الآن مستوردة للتكنولوجيا اليابانية، والدلالة واضحة فى إشارة الباحث الكبير السيد يس عن تحول المركز الأمريكى فى طوكيو ـ والذى أسس لتدريب اليابانيين على نظم الإدارة الحديثة ـ إلى تدريب الأمريكيين على طرق الإدارة اليابانية الأكثر تطوراً (الأهرام ـ ٢٠٠١/٥/٣١)

بالإضافة إلى ذلك، فقد أدركت اليابان أنها يجب أن ترفق بتقدمها العلمى والتكنولوجى رسالة ثقافية عالمية، فبدأت فى تقديم إسهامات مهمة فى مجال الإنسانيات، ولأن اللحظة الحضارية - كما قلت - أقرب إلى الأوانى المستطرقة، فإن اليابان أصبحت تقود العالم فى ميادين الاختراع، وعدد الروايات المنشورة، وانخفاض معدل الجريمة، وخفض نسبة التلوث، وتعلم اللغات الأجنبية، ووفرة وسائل النقل والمواصلات، وبناء السفن، وتصدير الأسمنت والترانزستور، وإجراءات حفظ الأمن، ومجالات الترفيه، وتجارة الأسماك، إلخ.. وتلاميذ المدارس اليابانية يحصلون على المرتبة الأولى فى الاختبارات الدولية للتحصيل فى الرياضيات والعلوم وغيرهما.

الأرقام تقول إن عدد أبناء الشعب اليابانى يبلغ ١٢٦ مليون نسمة، وأنهم يعيشون على مساحة ٢٢٧ ألف كيلو متر مربع، أى ثلث مساحة مصر، ٧٣ ٪ منها جبال (هناك فرق!)، شعب اليابان يمارس حياته إذن على مساحة لا تزيد عن مساحة مصر العليا، وإذا كانت مصر تمتلك الكثير من الموارد الزراعية والمعدنية، فإن اليابان لا تكاد تمتلك موارد طبيعية من أى نوع، فضلاً على أنها مهددة دوماً بالزلازل المدمرة والبراكين والأعاصير، مع ذلك، فإن ١٥ ٪ من مجموع الناتج العالمى من إنتاج اليابان!

أدى العلم خدمات مهمة للبشرية، لكن النظرة إلى العلم نظرة مطلقة، سيوقع الجانب المعنوى والأخلاقى لحياة الإنسان فى وضع عسير، ومعه تراث المجتمع وثقافته (إحسان تراقى: التراث والتطور - ١٩)

واللافت أن اليابان استوعبت معطيات الغرب فى العلم والتكنولوجيا، بحيث أسهمت فيهما بصورة مؤكدة، لكنها حافظت - فى الوقت نفسه - على تراثها الثقافى المتسم بالحرص على الجوانب الروحية، ومع العادات والتقاليد التى تعبر عن الجماعية والتكافل، مقابلاً للفردية التى تعكس الواقع الثقافى الغربى.

الثقافة اليابانية أصيلة، تحمل تراكماً تراثياً يمضى - تاريخياً - إلى عشرة قرون مضت، لكن من المستحيل أن ننفى عن تلك الثقافة صفة المعاصرة، إن اليابان تخلو من الموارد الطبيعية، لكنها اعتمدت على الإنسان قبل أن تعتمد

على أى شىء آخر، اعتمدت على طاقات شعبها وقدراته فى تقديم نموذج للتقدم يصعب تكراره، ويقول الرجل فى رواية شريف حتاتة "الرئيسة" : "كل هذا الكلام عن معجزة اليابان محاولة للدوران حول الحقيقة، اليابان بدأت تطورها متأخراً مثل البلاد النامية، لكنها لم تستعمر أبداً، فمرت بالمراحل الطبيعية من الإقطاع إلى أعلى درجات الرأسمالية، إلى الاستعمار والشركات المتعددة الجنسية" (الرئيسة ـ دار المستقبل العربى ـ ٧٩)، وكما يقول أستاذنا يحيى حقى، فقد أعلن الرأى العام المصرى اعتزازه باليابان حين انتصرت على روسيا القيصرية فى ١٩٠٥، وجد المصريون فى ذلك الانتصار مخرجاً من الحيرة العظمى التى كانوا يحيون فى إسارها، فقد انتصرت اليابان لأنها اقتبست من الغرب علمه وصناعته وفنون حربه وآلاته ـ وأتحسر على سذاجة سلطاننا الغورى الذى رفض أن يحارب العثمانيين بغير السيف سلاح الإسلام، فهزموه!، سأل السلطان سليم الأمير كرتباى الجركسى عن بواعث هزيمة المماليك أمام قوات العثمانيين، قال الرجل فى ثقة وبساطة: إن الشجاعة لا تنقصنى وزملائى، لكن العسكر الذين تحت قيادتكم يستعملون الحيلة التى تحيّلت بها الإفرنج، وهى هذه البندق، لكن نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد، وهى الجهاد فى سبيل الله بالسيف!..

اليابان وهى تقتبس إمكانات التقدم الغربى، وتجارى الغرب فى ملبسه الخارجى، لم تتخل قط عن تقاليدها وشعائرها القديم، واستطاعت أن توفق ـ عدا استثناءات تؤكد القاعدة ـ بين القديم والجديد (يحيى حقى: صفحات من تاريخ مصر ـ هيئة الكتاب)، إن الجمع بين تعاليم الدين من ناحية، واستيعاب التقدم العلمى والتكنولوجى من ناحية ثانية، ليس معضلة صعبة الحل، ومجرد استقراء تاريخ الدولة الإسلامية فى ذروة عطائها، يوضح إسهامات علماء المسلمين فى المسار الإنسانى..

أذكر أن عالم الاجتماع الهندى شرما ناقش قضية التخوف من ذوبان الهوية القومية أمام المتغيرات التى يفرضها العلم والتكنولوجيا، والأخذ بأساليب الحياة العصرية، وانتهى إلى القول إن العلم والآلة يمكن أن يغيرا ـ مستقبلاً ـ فى أسس الحياة الهندية، لكن تلك التغيرات لن تؤثر ـ فى قليل ولا كثير ـ على تمايز الحضارة الهندية، والهوية القومية الهندية الخاصة، ولعلى

أشير إلى قول إحسان تراقى: "إن علينا ـ نحن أهل الشرق ـ أن ننتبه، وألا نضحى بحضاراتنا وتراثنا مرة واحدة، فى مقابل صناعة الغرب وتقنيته. علينا أن نولى اهتمامنا إلى استيعاب العلوم والصناعات الحديثة، وأن نستثمرها فى تيسير أمور الحياة، ودفعها نحو الأفضل.. لكن علينا ـ ضمن ذلك ـ أن نحذر أن ندير هويتنا الثقافية فى فلك العلم والصناعة، بل علينا أن نسعى إلى وضع العلم والصناعة فى فلك هويتنا الثقافية الأصيلة" (إحسان تراقى: التراث والتطور ـ ت عبدالوهاب علوب ـ هيئة قصور الثقافة ـ ١٨)

القول إنه عندما استيقظ الغرب فى بعثه الصناعى استغرق العرب فى نوم أهل الكهف، يعنى تضاداً مزعوماً بين التراث والعلم، يدحضه سعى دول العالم الثالث لإبداع التقدم العلمى والصناعى، وانتزاعه من مخاضها الذاتى، بحيث تنتسب بنوته إليها بصورة صحيحة، إن اعتبار العلم الحديث حتمية فى موازاة اعتبار الحضارة والتراث القومى سلفية ينبغى إهمالها، هذان الاعتباران يقابلهما ـ فى وجهات نظر أخرى ـ اعتبار التراث والحضارة حتمية متواصلة، ومسخّرة، فهى ترفض التجديد والتطور والسعى للحاق بالعصر، وكل هذه الاعتبارات ـ فى تقديرى ـ خطأ، لأن الإسراف فى تبنى وجهة نظر ما، ربما يأتى بنقيض النتيجة المرجوة.

وعلى سبيل المثال، فإن مفهوم التقدم ومجالات تحقيقه، تختلف ـ بالضرورة ـ بين مجتمع وآخر، إن الوحدات الإنتاجية الصغيرة قد تكون أنسب فى المجتمع اليابانى أو الصينى، بينما الوحدات الصناعية الضخمة هى الأنسب فى المجتمعات الغربية.

كانت هزيمة الهنود الحمر، هزيمة للبداوة أمام التكنولوجيا المتقدمة ـ بلغة العصر طبعاً ـ انتصر ذوو الوجوه الشاحبة ـ التسمية التى كان يطلقها عليهم الهنود الحمر ـ لأنهم كانوا يملكون مدنية واعدة، بينما كان الهنود الحمر يملكون حضارات مندثرة.

ولعلى أستطيع أن أقرر ـ فى ثقة ـ أنه لو ظللنا محاطين بأسوار التخلف والتواكلية والاعتذارية والإحباط، فإن الاندثار هو المصير الحتمى، تماماً مثلما اندثر الهنود الحمر، والقلة التى سيتاح لها البقاء، ربما تمضى ـ كتكوينات فولكلورية ـ فى مقدمة احتفالات الآخر بأعياده الوطنية!

من السـذاجة تصـور أنى أدعـو إلى مـوقف الضـد من المدنيـة الأمـريكيـة ـ الحضـارة غيـر واردة! ـ فهى ـ فى المحصلة النهائيـة ـ ظاهـرة ثقـافيـة إنسـانيـة، هـى ليست قـوة قاهـرة يصعب ردها، ولا هـى مـجـرد قـوة غـالبـة تحـمل شـراً خالصـاً، وبالتأكيد، فإن المنجـزات التكنولوجية التى تفرزها المدنية الأمـريكية، تعد إسهاماً، وإضافة إلى التقدم الإنسانى فى إطلاقه.

مـا أدعـو إليه أن ننظر إلى وجهى العملة، إلى الوجه الآخـر للحقيقـة، وأن التقدم العلمى والتكنولوجى الذى تتفوق به الولايات المتحدة ـ لأسبـاب معلنة! ـ على دول العـالم، يقـابله، أو يوازيه، مـحـاولات للهـيمنة والسيطرة واسـتـلاب الشعوب مقدرات حياتها.

استـوقفنـى فى مقـالة لمحـمد زكى عويس قـوله: "إن من واجب العـالم العـربى الآن، السـعى إلى تحـقـيق التكامل والاندمـاج بين عنـاصـر قـوته العلمـيـة والتكنولوجـيـة والمادية والبـشـرية وغـيـرهـا، حـتى نسـتطيع تكوين قـوة مـوازية للأخطار التى تتربص به، وإلاّ فإنه سوف يتعرض لمزيد من الانشطار المتسلسل على أيدى القـوى المعادية، بحيث يفقد السيطرة على مصيره، ولا تبـقى لديه القوة على تجميع إرادته المستقلة مرة أخرى" (الأهرام ١٩/٥/١٩٩٥)

لقد شهد الوطن العربى منذ بداية القرن العشرين أخطر انقـلاب ـ وأضع تحت هذه الكلمة خطاً ـ تعرض له منذ فجر الإسـلام، الصحارى الشـاسعة فى جزيرة العرب، والتى كان معظم أبنائها من البدو الرحل تفجرت بالبترول، بكل مـا يعنيـه ذلك من إمكانات للتطوير والتـقـدم، والقـرية المصـرية تخلت عن الآلات والوسـائل اليـدوية التى كـان يلجـأ إليـهـا المزارعـون فى فـلاحـتـهم وحـصـادهـم، والمواطن اليـمنى الذى عـزله حكم الأئمـة داخل أسـوار بلاده مـتـوهمـا أنهـا كل العـالم، نفض عنه غـبـار آلاف السنين من الظلم والتـخلف، واقتحمت حياته مقومات جديدة لم تكن واردة، إبان حكم الأئمة.

إن العلم والتكنولوجيا والأيديولوجيات السياسـيـة والتيارات الأدبيـة والفنيـة، وغيرها مما ينتجه الغرب، ونستهلكه نحن، إنما هو تجسيد للتحدى الحضـارى الذى نواجـهـه، لكن مـسـتـقـبل البـشـرية لن تقـرره النظريات السـيـاسـيـة، ولا الأيديولوجـيـات المتـبـاينـة، إنه سـيـتـقـرر ـ فى الدرجـة الأولى ـ بواسطة العلم والتكنولوجيا. والتقدم ليس مجرد علم وتكنولوجيا، ولا مؤسسات أكاديمية، ولا

قوة مسلحة، ولا مظاهر مدنية، إنه ذلك كله، وهو أيضاً مجموعة من المقومات المهمة، مثل الحرية والديمقراطية والصلة الحقيقية - المطلوبة - بين الدولة والمواطنين (فى قصتى الرائحة كانت ملاحظة الطبيب المحب لعبد الناصر، على ثورة يوليو أنها قلصت الديمقراطية، وزادت فى أعداد الأميين!)، وإن عابت آراء ما يرين على التقدم الغربى من جفاف للعلاقات الإنسانية، وسيطرة الماديات والاحتكارات، وفقدان الأمن الشخصى، وتفكك الروابط الأسرية.

غابت عن مجتمعاتنا العربية دلالات الصيحة التى أطلقها - يوماً - المفكر العربى أمين الريحانى "أنا الشرق عندى فلسفات، فمن يبيعنى بدلاً منها طائرات؟ "، غاب عنهم أن سبب الانتصار الإسرائيلى يعود - فى بعض جوانبه - إلى أن جذور الصهيونية قد نبتت فى الحياة الأوروبية الحديثة، فى حين أن القسم الأعظم منا لم يزل بعيداً عن هذه الحياة، وليس فى مستواها" (قسطنطين زريق - معنى النكبة - ٣٤)، وفى كتاب الكواكبى"أم القرى" يعلل أحد المندوبين أسباب ضعف المسلمين بأنهم "أصيبوا باقتصارهم على العلوم الدينية، وإهمالهم الدنيوية، كالرياضة والطبيعة والكيمياء، على حين أن هذه العلوم نمت وترقت فى الغرب، وظهر لها ثمرات عظيمة فى جميع الشئون المادية والأدبية، حتى صارت عندهم كالشمس لا حياة لهم إلا بنورها".

أخيراً، فإنى أذكر بما قاله عبدالناصر فى خطاب له، أول مايو ١٩٦٧ - أى قبل النكسة بفترة قليلة - أن بناء مصنع يعنى - بالمعنى المتقدم - حرب إسرائيل، وإنشاء مشروع يعنى - بالمعنى نفسه - حرب إسرائيل. وإذا كانت الهزيمة قد أجهضت ما تحمله تلك النظرة المستقبلية، فإن استعادتها - فيما بعد - كانت ضرورة لازمة.

إن متوسط ما ينفقه الفرد العربى على التسلح سنوياً يبلغ ٣٠٣ دولارات، ولو تصورنا أن هذا الإنفاق الذى فرضته ظروف الاستعمار الاستيطانى الصهيونى، وتهديداته للمحيط العربى خارج الحدود الفلسطينية - وجه إلى عمليات التنمية، فلابد أن الأوضاع الاقتصادية ستتبدل تماماً، وقد طرح توفيق الحكيم تصوراً بأنه لو أن ما أنفق على التسليح فى مواجهة الخطر الصهيونى قد أنفق على التنمية الاجتماعية، فستتحول كل قرانا العربية إلى نموذج القرى السويسرية.

الثقافة.. والسياسة

من معايبنا أننا نخلط بين المعرفة والثقافة، فنحن نعتبر التحصيل المعرفى ثقافة، والحاصل على المعرفة مثقفاً.. وهو رأى يحتاج - فى تقديرى - إلى مراجعة شديدة.

إن البعض قد تتاح له المعرفة، فهو يقرأ ويشاهد ويستمع ويتعرف إلى الخبرات.. لكن ذلك كله يغيب فى آرائه وتصرفاته، فى سلوكيات حياته اليومية، وفى علاقاته مع نفسه، ومع الآخرين.

المواطن الذى يفيد من المعرفة فى العمل السياسى، إنما هو مواطن مثقف يفيد من ثقافته فى الانشغال بقضايا بلاده، ربما جاء فعل السياسة محمّلاً بالإيجابيات التى تسعى إلى الإضافة والتطوير والتقدم، وربما اتسم بالسلبية التى تعنى بالانتهازية، وبتحقيق المكاسب الشخصية مقابلاً لسلب مكاسب الآخرين.. لكن الفعل ينتسب فى الحالين إلى مثقف حاول أن يفيد مجتمعه - أو نفسه - بما حصل عليه من مخزون معرفى.

دور المثقف فى العمل السياسى لا يقتصر على التأريخ للأحداث السياسية، أو المشاركة فى الأحداث السياسية القائمة، لكنه يتجاوز ذلك إلى تحليل التطورات، واستقرائها، ووصل الحاضر بالماضى واستشراف المستقبل، التنبؤ بالأحداث ارتكازاً إلى استقراء أحداث سابقة ومعاصرة، مهمة أولى للمشتغل بالعمل السياسى، وهو ينطلق فى تلك الرؤية الشاملة - كما أشرت - إلى معرفة عميقة وفهم لتطورات الأحداث، ووصل النتائج بأسبابها.

والمفروض أن مشاركة المثقفين فى العمل السياسى لا تعتمد على المهارة فى الخطابة، ولا إعداد البيانات، ولا محاولات الإثارة والتهييج، بل ولا حتى

النيل من الخصوم بالمعايب الشخصية، إن مشاركة المثقف ينبغى أن تصدر عن المعرفة والفهم والإدراك، لتشرح وتوضح وتضيف وتطور..

نحن نلحظ - على سبيل المثال - أن العالم الإنجليزى ج، هالدين لم يقصر اهتماماته على العلم وحده، لكنه انشغل بالعمل السياسى، انطلاقاً من يقين بأن العلم يجب أن يجعل حياة الناس قائمة على الحرية والعدل والجمال، وعندما حدث الغزو الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ قدم هالدين استقالته من منصبه الجامعى، وسافر إلى الهند، وطلب منحه الجنسية الهندية، وقال: "إن انجلترا دولة مجرمة منذ قامت بهذا الغزو. أنا لا أريد أن أموت إنجليزياً، لكننى أريد أن أموت حاملاً جنسية أكثر مدنية".

☆☆☆

ولاشك أن صورة المشتغل بالعمل السياسى فى العقود الأخيرة - على مستوى الأقطار العربية - تختلف - إلى حد كبير - عن الصورة التى ألفها مجتمعنا العربى قديماً.

لم تكن القيادة ولا الجندية ولا السياسة شأن المواطن العربى مهما تبلغ ثقافته، قد يتاح له التعبير عن رأيه فى قضايا بلاده، لكنه لا يستطيع أن يؤطر تلك الآراء فى تنظيم، أو فى تنظيم يتولى قيادته على أقل تقدير، وحتى عندما أتيح للمثقفين العرب أن يمارسوا العمل السياسى، فقد كانت القيادة دوماً للطبقات العليا فى المجتمع.

تلك كانت صورة المجتمع العربى إلى نهاية الفترة العثمانية، وكان الحزب الوطنى - حزب مصطفى كامل عند قيامه فى ١٩٠٧ - رغم أن معظم قياداته كانت تنتمى إلى طبقة السراة من المصريين - استثناء بين الأحزاب التى أنشئت فى العام نفسه، كانت قياداتها من طبقة الرأسماليين والإقطاعيين، وبلغت المأساة حد تزعم النبيل عباس حليم لحزب العمال المصرى!

☆☆☆

إن الهم السياسى، والفعل السياسى بالتالى - تفرضه عدة عوامل مهمة:

- الحرية، وما يتصل بها من أسس الديمقراطية، والحقوق الطبيعية للإنسان، والتعامل مع كل المواطنين باعتبارهم ينتسبون إلى وطن واحد.

- العامل الاقتصادى وتأثيره البالغ على المواطن فى مراحل حياته المختلفة، وانعكاس ذلك العامل - بصورة أشد - على المواطن الذى أتيحت له فرص التعلم، فهو يعانى التأثيرات، ويدرك بواعثها فى الوقت نفسه، بحيث أنه قد

يجاوز الرأى إلى الفعل، بمعنى أنه قد يشارك فى بعض التنظيمات السياسية أو التى تعنى بالسياسة، كالأحزاب و الهيئات الأهلية.

ـ المؤامرات الاستعمارية على المنطقة، والتى بلغت أقصى تجسيداتها فى زرع الكيان الصهيونى فى قلب الوطن العربى.

إن الأهداف المعلنة لدولة إسرائيل، واتجاهها إلى التوسع، والسيطرة على مقدرات المنطقة، تفرض على مواطنى المنطقة ـ بصرف النظر عن مستويات تعليمهم، أو مخزونهم المعرفى، أو حظهم من الثقافة ـ أن ينشغلوا بأبعاد الصراع العربى الصهيونى، لأنه لا يتصل بمجرد الحق التاريخى، ولا الجغرافى، ولا وجوب أن يمارس الشعب الفلسطينى استقلاله على ترابه الوطنى، وإنما هو يتصل بالتطورات الآنية فى المنطقة واستشرافات المستقبل.. والصورة ـ فى عمومها ـ تتطلب الوعى والتنبه والانشغال بالأحداث السياسية فى مستوياتها المختلفة.

على سبيل المثال، لقد فرضت القضية الفلسطينية على المثقف العربى، والمواطن العربى بعامة، وعياً متنامياً بالقضايا المشتركة، وبالمصير المشترك، فى مواجهة التحديات الاستعمارية التى كانت إسرائيل تجسيداً بشعاً لها.

وإلى قيام إسرائيل بالاعتداء على كتيبة مصرية فى سيناء، عقب قيام ثورة ١٩٥٢ بعام واحد، كانت الشعارات المعلنة يغيب عنها الحس القومى من مثل الاتحاد والنظام والعمل، والتعاون، وغيرها.. ثم كان ذلك الحدث إنذاراً مؤكداً بالخطر القابع وراء الحدود، ومن ثم بدأت عملية البحث عن السلاح، التى اصطدمت بغطرسة أمريكية، انتهت باللجوء إلى الاتحاد السوفييتى (سابقاً)، وما تلا ذلك من سحب أمريكا عرضها بالإسهام فى بناء السد العالى، وأحداث العدوان الثلاثى، وغيرها.

وبالطبع، فثمة عوامل أخرى فرضتها العولمة، وثورة الاتصالات، وثورة المعلومات، وتقدم العلم، والتكنولوجيا، تحول العالم إلى ما يشبه القرية الصغيرة، الواحدة، إن ورقة السياسة تختلط بأوراق كثيرة، بل إنها تدخل فى نسيج حياتنا اليومية، السياسة هى الواقع الذى نحياه، حتى الرياضة لها صلة مؤكدة بالسياسة، ولعلنا نذكر أن الرياضة هى التى أعادت العلاقات بين الصين والولايات المتحدة، بعد أعوام طويلة من العداء.

٭٭٭

ونطرح السؤال: هل أصبح شبابنا المثقف أشد ابتعاداً عن السياسة، قياساً إلى ما كانت عليه الأحوال منذ بضعة عقود؟ هل يشى منع التنظيمات السياسية غير المعلنة، ومنع المظاهرات والإضرابات بغياب اشتراك الشباب المثقف فى العمل السياسى؟

فى مصر، كانت هناك تنظيمات القمصان الزرق، والقمصان الخضر، والعشرات من التنظيمات المعلنة والسرية التى استوعبت فى أنشطتها شباباً مثقفاً من الجنسين، وكانت انتخابات الاتحادات الطلابية فى الجامعات تعبيراً عن ذلك كله، ثمة تيار إسلامى، وتيار ماركسى، وتيار ليبرالى، إلخ، ولكل تيار أنصاره وخصومه.

والحق أن اتهام شباب الجيل الحالى بعدم الجدية، تنقصه المبررات الموضوعية، إنه يقرأ فى السياسة، ويناقش القضايا السياسية، ويحلم لنفسه وللوطن، ويعيب على الحكومة بعض تصرفاتها، ويأخذ على الأحزاب بعض اتجاهاتها.. لكن ذلك كله يظل فى حدود السلب، لا يجاوزها إلى الإيجابية التى يحققها بالفعل، فعل السياسة مرتهن بإرادة أخرى غير إرادة الشباب، إنها إرادة السلطة التى تهب الحدود، وتقرر المسموح والممنوع.. فبعد أن كانت المظاهرات ظاهرة مألوفة فى حياتنا، ذوت الظاهرة، أو تلاشت، فى ظل تسمية القلة المنحرفة، والتى تشمل كل من يحاول أن يجاهر برأيه على أى نحو، وشغل العام الدراسى جميعاً بالمقررات، وبالامتحانات، وحظر النشاط السياسى عن الأسر الجامعية بصورة معلنة أو مضمرة. المهم ألا تشهد الجامعات نشاطاً سياسياً من أى نوع، ولنا أن نستعيد المظاهرات التى كانت تهتف بسقوط الاستعمار والملك وأحزاب الأقلية، ونقارن بين ما كان عليه الحال، وما أصبح عليه الآن.

✯✯✯

أخيراً، فلعله يجدر بى أن أذكّر بقول أستاذ الاقتصاد الأمريكى كينيث جالبريث: "إن التقدم العلمى والصناعى ليس وحده الدليل على تقدم المجتمع، التقدم الفنى والثقافى مهم أيضاً، إن المثقفين هم الذين يقولون الكلمة الأخيرة عن تقدم هذا المجتمع أو ذاك".

لكن الأرض تدور!

"ويقول العلماء: العرب انقرضوا

فى القرن العشرين انقرضوا

كانوا أهل حضارة

أنكون شهود المأساة؟

أأكون أنا آخر أبناء أبى؟ "

أحمد عبدالمعطى حجازى

" إن العدو على الأبواب، والمسألة مسألة حياة أو موت "

جدانوف

".. ومع ذلك، فإن الأرض تدور "

جاليليو

من أطرف المعارك التى يرويها التاريخ المصرى، تلك التى خاضها رفاعة الطهطاوى لتأكيد أن الأرض مستديرة، أما لماذا هى معركة، فلأن القول باستدارة الأرض ـ فى أواسط القرن التاسع عشر ـ كان ـ فى البيئة المصرية المتدينة، وفى البيئة الأزهرية على وجه التحديد ـ زعماً مثيراً، وإنكاراً

لمعتقدات ثابتة. كتب الطهطاوى يقول على لسان بعض العلماء الأجانب: "إن القول بدوران الأرض واستدارتها، لا يخالف ما وردت به الكتب السماوية، وذلك لأن الكتب السماوية قد ذكرت هذه الأشياء فى معرض وعظ ونحوه، جرياً على ما يظهر للعامة، لا تدقيقاً فلسفياً، مثلاً ما ورد فى الشرع أن الله تعالى أوقف الشمس، فالمراد بوقف الشمس تأخير غيابها عن الأعين، وهذا يحصل بتوقيف الأرض عن الدوران، وإنما أوقع الله الوقوف لأنها هى التى يظهر فى الأعين سيرها".

وبصرف النظر عن أن العبارة منسوبة إلى عالم أجنبى، فقد كانت ـ فى الحقيقة ـ من أفكار رفاعة نفسه. كان الطهطاوى حريصاً على أن يتسلل بفكرته إلى العقل المصرى، دون أن يجازف بخوض معارك لم يكن الفكر الإصلاحى ـ فضلاً عن التقدمى ـ قد استعد لها.

ثم أكد يعقوب صروف فى "المقتطف" (١٨٧٦) أن موضوع دوران الأرض حول نفسها، وحول الشمس" صار أشهر من نار على علم، وأوضح من الصبح لذى عينين، وتحققت صحته لكل ذى عقل سليم يطالع ويفهم".

لكن الشيخ رافع الدجوى ـ وينسب نفسه إلى علماء الأزهر ـ أصدر بعد عشرات الأعوام من نشر تلك الكلمات، كتيباً عنوانه "كذب على الله من قال إن الأرض كروية"!

والحق أن رأى الشيخ الدجوى ليس بدعاً ولا مفاجأة، ثمة قصة لكبلنج عن قرية أصرت على أن الأرض مسطحة، بمعنى أن الآراء الساذجة ليست وقفاً علينا، فعندهم من يؤمن بها، حتى على مستوى الجماعة.

الغريب أن المقريزى أصدر ـ منذ مئات السنين ـ كتاباً علمياً هو "المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية"، تحدث فيه عن كروية الأرض، وأن المياه تحيط باليابسة من كل الجهات"، وقال أبوالقاسم عبيد الله بن خرد ذابة ـ فى منتصف القرن التاسع الميلادى ـ: "الأرض مدورة كتدوير الكرة، موضوعة فى جوف الفلك كالمحاة فى جوف البيضة، والنسيم حول الأرض وهو جاذب لها، لما فى أبدانهم من الخفة، والأرض جاذبة لما فى أبدانهم من الثقل، لأن الأرض بمنزلة الحجر الذى يجتذب الحديد".

ولعلى أذكر ما كتبه الصديق الدكتور عاطف العراقى عن عالم كبير

للجغرافيا، قام بتدريس مادته فى دولة يؤمن بعض رجالها بأن الأرض ثابتة وليست متحركة، أراد الأستاذ أن يدرس الحقائق الجغرافية، وخشى ـ فى الوقت نفسه ـ غضب هؤلاء، نسب الحقائق إلى أكاذيب الكفار، فهو يبدأ المحاضرة بالقول: يقول الكفار ـ والعياذ بالله ـ إن الأرض متحركة، إلخ (الأهرام ١٩٩٢/٦/٢٨)

لقد تغير الزمن، لم أعد فى حاجة لاتقاء غضب الشيخ الدجوى بأن أعتذر بجهلى، مثلما فعل جاليليو، ثم أهمس فى تأكيد: لكن الأرض مازالت تدور!، أطمئن إلى أن زمن العلم الذى أحيا فيه، لن يرغمنى على ما فعله جاليليو حين أراد الفرار من السجن، فأعلن تنكره للأفكار التى يؤمن بها، وهى أن الأرض تدور حول الشمس، ولن أواجه ـ بالطبع ـ مصير كوبرنيكس عندما ألقى فى النار، لأنه أعلن أن الأرض تدور حول الشمس، فهى كروية إذن!

لقد أكد إيراتوسطين القورينى ـ فى عهد البطالمة ـ أن الكون مستدير الشكل، فإذا سافر شخص من إسبانيا ناحية الغرب، فإنه يصل ـ فى النهاية ـ إلى الهند، وقال القورينى إن كل بحار العالم مرتبطة ببعضها البعض، وتطوق الأرض بطوق كالحزام، لذلك فإنه يسهل على كل إنسان أن يدور حول القارة الإفريقية، وقال ابن خرداذبة: إن الأرض مدورة كتدوير الكرة، موضوعة فى جوف الفلك، وقال ابن رستة: إن الله وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة ـ أجوف دواراً، والأرض مستديرة أيضاً كالكرة، مصمتة فى جوف الفلك، وقال المسعودى: إن الشمس إذا غابت على بحر الظلمات، كان ظهورها بعد ذلك على شواطئ الصين الشرقية.

☆☆☆

إذا كانت اجتهادات الشيخ الدجوى لم تجاوز تسطيح الأرض، فإن النظرة إلى شارب القهوة تحددت ـ لأعوام طويلة ـ فى أنه كافر، وكان الجلد جزاء من يجلس على المقاهى، فضلاً على أن إغلاق المقاهى كان قدرها المؤكد.

وقد ظلت الطباعة ـ بعد اختراعها ـ محرمة على مدى ثلاثة قرون فى بعض الأقطار الإسلامية، واستطاعت المدنية الأوروبية ـ فى أثناء ذلك ـ أن تمضى خطوات هائلة فى طريق التقدم.

وحين ظهر الراديو أبدى البعض فزعه من كلام الحديد، وتنبأ الحاج

أسعد فى رواية السحار "فى قافلة الزمان" من أن يوم القيامة قد اقترب!

ذلك ما تكرر حينما ظهرت السينما، والتليفزيون، والريكورد كاسيت، والترانزستور، والفيديو، والأقمار الصناعية، إلخ.

تغير الزمن، وتغيرت العقليات، لكن شيخنا يصر على اعتقاده بأن الأرض بسطت، وحرام أن ندّعى دورانها!

***

أذكرك بما رواه المؤرخون عن السبب الوحيد لانتصار قوات العثمانيين على السلطان الغورى فى غزوهم لمصر، وأنه رفض نصيحة وزرائه بأن يستخدم الأسلحة المتطورة ـ حينذاك ـ فى معاركه ضد قوات العثمانيين، قال إن حرب المسلمين بالسيف وحده، وهو لا يستطيع ـ كمسلم ـ إلا أن يفعل ذلك.

وانتصر العثمانيون!

كان الفارس هو البطل القديم فى الحروب، يدعو أقوى الخصوم لمنازلته، ومن يصرع الآخر فإن قوات الخصم تنسحب من القتال، أما الآن، فإن الفارس هو الآلة، التكنولوجيا، القمر الصناعى، التليفزيون، الكومبيوتر، الروبوت، ومفردات أخرى كثيرة.

وإذا كان القرن الماضى، وما سبقه من قرون بالطبع، قد مهد للإنجازات التى تحققت فى القرن العشرين، فإنه من البديهى أن يضيف القرن الحادى والعشرون إلى ما تحقق خلال عشرات الأعوام التى سبقته. الثورة العلمية والتكنولوجية التى رافقت القرن العشرين ستشهد تعميقاً مؤكداً وإضافة فى القرن الحادى والعشرين.

***

وبداية، فإنه من المستحيل أن تخلو صورة المستقبل المصرى من البعد العربى، إن تصور أى دور لمصر فى المستقبل لابد أن يكون فى الإطار العربى، مصر جزء من الأمة العربية، إنها قطر عربى، ينتسب إلى الوطن العربى، سواءٌ بالقومية العربية، أو الوحدة العربية، أو المصالح المشتركة، أو المصير المشترك، أو الخطر الذى يتهدد الجميع.

وبالنسبة للوطن العربى بعامة، فقد تعلم التلاميذ فى المدارس أن الأقطار

العربية تجمعها وحدة طبيعية متجانسة، قوامها الأرض والدين والتاريخ واللغة والواقع المتماثل والمصير المشترك، لكننا لم نتعلم الأبعاد السلبية كالقبلية والتسلطية والديكتاتورية وغياب الديمقراطية والتخلف والاكتفاء بالاستهلاك دون الإنتاج إلخ.. مما يكاد يشكل الصورة الفعلية لواقع هذه المنطقة.

نحن نؤثر عدم المصارحة، نغلق على ما بنفوسنا بالضبة والمفتاح، يحتضن كل منا الآخر، يقبل دعوته إلى شرب القهوة، يؤكد الماضى المشترك والحاضر المشترك والمستقبل المشترك، لكن الحائط الهش ما يلبث أن يتصدع ـ وربما ينهار ـ فى أول صدام، مهما تبلغ تفاهته.

واللافت أن سقوط المعسكر الاشتراكى يقابله ظاهرة الوحدة الأوروبية، وظاهرة النمور الاقتصادية الآسيوية، وتأكيد دور الصين كقوة عالمية لها وزنها، والظواهر الدينية والقومية التى تتحقق فى أجزاء واسعة من آسيا وإفريقيا.

مارتن أنديك.. دبلوماسى أمريكى، عضو قيادى فى المنظمة الصهيونية الأمريكية "إيباك"، ومارس من خلال هذه العضوية، وبحكم منصبه فى الخارجية الأمريكية، دوراً مؤثراً فى محادثات كامب ديفيد التى جرت بين الرئيس الفلسطينى الراحل ياسر عرفات وبين كل من الرئيس الأمريكى كلينتون ورئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود باراك، وكان من بين مناصبه سفير واشنطن فى إسرائيل، ومناصب أخرى تشى بولائه للدولة العبرية، وإن كانت الوظائف أمريكية، تابعت محاورة فى إحدى القنوات الفضائية عن أحوال شرقنا العربى، قاطع أنديك المحدث عندما أشار إلى ضرورة تطوير التعليم، وإنشاء المستشفيات والمؤسسات العلمية، إلخ، قال إن ذلك كله لن يجدى لكى تنجح السياسة الأمريكية فى الشرق العربى، وطرح تعبيرات كثيرة من بينها "فرق تسد".

☆☆☆

لست أذكر القائل إن العرب يمتلكون كل عناصر القوة الشاملة، لكنهم يعجزون عن حشد تلك العناصر وتنظيمها، وتحويلها إلى قدرة فاعلة تفرض وجودها وتأثيرها على تطور الحياة فى العالم..

نحن ننتمى إلى مجتمعات الفرص الضائعة، ثمة فرص الوحدة، أو الاتحاد،

ومغالبة التخلف، والتحول من الإنتاج إلى الاستهلاك، والديمقراطية، والقضاء على النوازع القبلية، لكننا نستهلك الوقت والجهد فى المفاضلة بين الصح والخطأ، ونحن نرفض، وندين، ونحرص على المصلحة الشخصية أكثر من حرصنا على صالح الجماعة، ونكتفى بترديد الشعارات الباهرة دون محاولة حقيقية لتطبيقها، ونقبل بنظرة العالم لنا باعتبارنا ظاهرة صوتية: ندين ونشجب ونصرخ وننظم المظاهرات والمسيرات، وربما لجأنا إلى العنف داخل أقطارنا، فندمر ما نملكه، ثم نلزم صمتاً غير حكيم، ونحن نتبادل الاتهامات، ونرفض الآراء المختلفة، وربما وصل الأمر حد التصفية الجسدية لأصحاب تلك الآراء.

والتقدم هو التحدى الذى يمكن أن نفلت به من عنق الزجاجة المسمى بالتخلف، هو صنع القوة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية الموازية لقوى الآخرين.

والحق أن البديل لإيجاد القوة العربية الشاملة، لمجاوزة التخلف، والتحول من مجتمعات استهلاكية إلى مجتمعات إنتاجية، والديمقراطية، والرؤية المستقبلية.. البديل لذلك هو القبول باحتلال موقع هامشى فى مسار حركة العالم، أو القبول بأخطار متوقعة، وربما القبول بالسقوط فى مزبلة التاريخ، وقد وصف واينبرجر وزير الدفاع الأمريكى الأسبق شعبنا العربى بأنه "نفاية البشرية" فلم يرتفع صوت قائد أو مثقف، أو حتى مواطن عادى، يحتج على المسئول الأمريكى عنصريته واستعلاءه وقلة أدبه.

أفلحت إسرائيل - وهو ما كان يعيه الغرب جيداً حين ألقى بذورها فى التربة العربية - فى امتصاص كل قدرات العرب وإمكاناتهم وتطلعاتهم إلى التنمية والاستثمار والتقدم، وكان الاحتلال الصهيونى عاملاً مباشراً فى سيطرة بعض الأنظمة الرجعية والديكتاتورية على أقطار الوطن العربى، بدعوى محاربة التوسع الصهيونى، بينما أفرزت حياة إسرائيل فى المنطقة العربية اتساعاً فى مساحة الأرض، واعترافاً متبادلاً، وتغلغلاً اقتصادياً، وحصاراً على مستقبل دول المنطقة، وهو ما نستطيع أن نتعرف إليه فى تحركات إسرائيل فى أريتريا، ومنابع النيل، وجنوب السودان، وشمال العراق، إلخ..

إن كل اقتراحات النضال ضد المخططات الصهيونية تتركز فى التفاوض، مثل مخاطبة الداخل الإسرائيلى، واعتماد سياسة هجوم السلام التفاوضى، وعدم السماح للجانب الإسرائيلى بالتنصل من تنفيذ التزاماته الدولية، وتأكيد الدور الأوروبى فى العملية السلمية، والعمل السياسى والإعلامى المكثف دعماً للمفاوض العربى، وكشفاً للمناورات الصهيونية، إلخ.

وفى تقديرى أن الاقتراح الأهم لمواجهة المخططات الصهيونية، أن يكون استشرافنا للتقدم، وسعينا فى اتجاهه.

هذا هو التحدى الذى يجدر بنا أن نواجهه.

إن أبعاد التفوق العربى أقوى بما لا يقاس بأبعاد التفوق الإسرائيلى، ممثلاً فى الكثافة السكانية، والوفرة الاقتصادية، والهوية الحضارية والثقافية الواحدة، ومواجهة الخطر نفسه المزروع فى قلب المنطقة العربية.

لى قصة بعنوان "رسالة السهم الذى لا يخطىء" تناولت فيها مأساة الهنود الحمر - لم تكن هذه تسميتهم الحقيقية! - كيف تخلوا عن حضارتهم، وأقبلوا على مستحدثات المدنية الغربية، ألغوا عقولهم، وتحولوا إلى تابعين، بل إنهم لم يحاولوا مواجهة الفكر الغربى المتقدم بما يساويه، أو يقترب منه، لم يلجأوا فى حضارتهم المؤكدة إلا إلى الأبعاد السلبية من سحر وأسطورة وأغنيات لا تعيد حقاً ولا ترد باطلاً!..

احتفالات الأمريكان بيوم الاستقلال، يسبقها - فى المقدمة - طابور من أبناء البلاد الأصليين، لقد تحولوا إلى مجرد فرجة، يرى فيهم الناس ماضياً طريفاً مضحكاً، استطاعوا القضاء عليه، وبناء مدنيتهم المتقدمة محله، أصر على التأكيد بأنه لا توجد حضارة فى الأمريكيتين، فالتاريخ بعد مهم فى الحضارة.

الحضارة هى ما كنا، ومازلنا، والمدنية هى ما نحن الآن، وسكان الأمريكيتين - فيما عدا استثناءات معروفة - ينتمون إلى بلاد أخرى بعيدة وقريبة، لها حضاراتها التى تختلف عن الحضارة التى كانت للأبناء الأصليين، ومن المؤكد - فى إجماع كل علماء الأنثربولوجيا - أنه كانت لأبناء البلاد - بمقاييس الحضارات القديمة - حضارتهم المتفوقة!

أخشى أن تلك هى صورة المستقبل لشعبنا العربى، لو أنه ظل يواصل السير فى طريق الهنود الحمر.

سألنى صحفى شاب: كيف ترى نهاية الصراع العربى- الإسرائيلى فى ضوء التطورات المتلاحقة؟..

قلت: أخشى أن يأتى اليوم الذى أقدم فيه على تصرف بطل رواية "عائد إلى حيفا" للراحل غسان كنفانى. أمضى إلى الشارع الذى كنت أسكن فيه، أغالب التردد أمام البيت، ثم أصعد بالخطوات المترددة إلى شقة بالذات، هى الشقة التى كنت أسكن فيها قبل أن يحتلها اليهود، فأبدى رغبة هامسة أن يتيح لى قاطنوها الجدد فرصة استعادة الذكريات، ربما لا يحدث ذلك فى حياتى، لكنه قد يحدث ـ إن سرقنا الزمن ـ مع أبنائى أو أحفادى!..

المكانة الأرفع فى عالم اليوم للأقوى، وسبيل القوة ليس رفع الشعارات الباهرة، ولا التغنى بأمجاد السلف، ولا دعوة الأعداء للمبارزة بالسيف.. لكنه بالإصرار على التقدم، على تحقيق التنمية الشاملة فى كل مجالات الحياة، والبقاء فى عالم الغد لن يكون إلا للأقوياء وحدهم، والقوة ليست مطلقة، بل إنها لا تعنى مجرد القوة المسلحة، فقد كان للاتحاد السوفييتى قواته المسلحة التى تمثل القوة العظمى الثانية فى العالم، لكنه انهار كنمر من كرتون حين حاصرته الظروف الاقتصادية القاسية، القوة هى التقدم فى كل مجالات الحياة، التقدم العلمى والتكنولوجى رهان هذا العصر، وهو الضمان الوحيد لأن يجد أى شعب موضعاً له بين شعوب العالم.

ولا يخلو من دلالة أن الرئيس الأمريكى الأسبق ريجان، لم يجد حديثاً يجاوز به المشكلات التى كان المجتمع الأمريكى يواجهها فى نهاية عهده، مثل زيادة العجز فى الميزانية، وتفاقم مشكلة المخدرات، ومرض الإيدز، وتزايد خطر الجفاف والتلوث، وارتفاع معدل الجريمة، إلخ.. لم يجد ريجان إلا أن يتحدث عن الإنجازات العلمية التى حققتها بلاده، تحدث عن التقدم باعتباره السبيل إلى مستقبل أفضل.

☆☆☆

الأمن لم يعد يتحقق ـ فى عالمنا المعاصر ـ بمجرد التفوق العسكرى، بل يجب أن يوازيه، ويتسق معه، استراتيجية سياسية، وتفوق اقتصادى

واجتماعى وحضارى، وقد يأتى التفوق العسكرى فى النهاية من ذلك كله، والمثل الذى يحضرنى هو اليابان بكل ما تمثله فى عالمنا المعاصر من قوة يصعب التقليل من شأنها، ولعلى أذكر قول ماكنمارا وزير الدفاع الأمريكى الأسبق، ورئيس صندوق النقد الدولى فيما بعد، إن "مفهوم الأمن قد أصبح مبسطاً أكثر مما ينبغى، فلم تعد مشكلة الأمن عسكرية فحسب، ومن الواضح أن القوة وحدها لا تضمن الأمن"..

واللافت أن متوسط إنفاق التسليح فى العالم العربى، يبلغ ١٤٪ من الدخل القومى، فى حين تنفق سائر دول العالم على التسلح ٤,٧٪ من دخلها القومى على التسلح.

***

إن استعادة الماضى مطلوبة، بل هى مهمة، شريطة ألا يستولى الماضى على مساحة الحاضر، إن علينا أن نستعيد الماضى لنتواصل معه، لنفيد منه فى صياغة الحاضر والمستقبل، فلا نكتفى باجترار الماضى، بمجرد الحياة فيه، كمن يضع عينه فى قفاه، ساءنى قول فهمى هويدى ـ وإن كان صحيحاً: إن الدول الكبرى تتعامل ـ الآن ـ مع العرب باعتبارهم حبات فى مسبحة منفرطة! (الأهرام ٢٥/١٠/١٩٩٤)، ولعلى أستعير كذلك كلمات الصديق صلاح الدين حافظ "إننا ـ العرب ـ أصبحنا وسط دوامة هائلة من الأحداث المتلاحقة والتطورات الجذرية، وعلينا أن نتدبر أمورنا ببصيرة نافذة، إن كان لنا أن نستمر فى البقاء، ولا نصبح كالحيوانات المنقرضة، تتفرج علينا الحضارات الصاعدة بعنفوان مثير" (الأهرام ١٢/١/١٩٩٤)

لم تعد مقولة الجبرتى "ذلك ما لا تسعه عقول أمثالنا" مقبولة فى عصرنا الحالى، فلابد ـ لكى نحيا ـ أن تسع عقول أمثالنا كل إنجازات العصر، لا نكتفى بالدهشة والانبهار، وإنما ننتج ونطور، ولا نكتفى بالاستيراد والاستهلاك.

إن رهان المستقبل ليس على تحقيق التقدم فى كل مجالات الحياة فحسب، إنما هو نتيجة حتمية، إن لم تتحقق ـ ولو نسبياً ـ فإن المصير المؤكد ـ مهما يبد قاسياً ـ هو ما جرى للهنود الحمر، ما يصنعه العالم الآن، وما يتوقع أن يصنعه فى المستقبل، يصعب ـ إن لم يكن من المستحيل ـ أن يكتفى فيه الوطن

العربى بدور المتفرج، أو بدور المستهلك فى أقصى تقدير، هذا الدور قد يسكت عنه العالم مادامت المنطقة تملك مصادر مهمة للطاقة، ولكن ماذا سيكون الوضع حين تنضب الطاقة، أو تحل طاقة بديلة؟..

إن الأسئلة التى تطرح نفسها هى: هل نطور التكنولوجيا، أم فى الأقل نصنعها، أم نكتفى باستيرادها؟.. هل نعد خريجاً يعمل لصالح أمته، أو للهجرة إلى الخارج؟.. هل نعد لمجتمع أصيل، أم نكتفى بتقليد المجتمعات الأوروبية؟..

وتقديرى أن التقدم العلمى هو التحدى الأول فى مستقبل العلاقات العربية الإسرائيلية، إنه كلمة السر فى مستقبل الوجود العربى نفسه، فى موضعه بين دول العالم، فى مجاوزته للتخلف والهامش إلى دور أكثر فعالية واستيعاباً لتطورات العصر، وإذا كان أمين الريحانى قد أعلن فى مطالع القرن العشرين ـ بصوت الشرق ـ أنه يملك فلسفات، ويريد أن يحصل ـ بدلاً منها ـ على طائرات، فإن هذا القول أشد ما يكون حاجة إلى تطبيقه فى عصرنا الراهن، بعد أن أصبحت السيادة للعلم والتكنولوجيا، الفاصل فى تحقيق التقدم، هو الفاصل بين من يعلم ومن لا يعلم، من يبتكر ومن يحيا على ابتكارات الآخرين، من ينتج ومن يستهلك. وبكلمات محددة، فإن استيراد التكنولوجيا لا يخلق تقدماً، لا يخلق دولة عصرية.

التقدم فى مجال العلوم والتكنولوجيا قضية مصيرية، تعنى استمرار الحياة أو توقفها، أن نظل مصريين وعرباً، أو نندثر.

ليس التقدم مجرد قنوات فضائية وفيديو وتليفزيون وتليفون محمول ومترو أنفاق، إنه منظومة متكاملة فى التعليم والابتكار والعمل والإنتاج ومحاولة اللحاق بإيقاع العصر بخطوات مناسبة، التقدم يعنى التخلى ـ حالاً ـ عن الأنماط الاستهلاكية، نستعمل ما فكر فيه الآخرون، وما اخترعوه، وصنعوه، فتحل ـ بدلاً منها ـ أنماط إنتاجية ضرورية، لا لمجرد تحقيق التقدم، وإنما لتفادى المصير المؤكد بالحياة ـ إن توفرت ـ على هامش التاريخ والعصر والمستقبل، ولا يخلو من دلالة أن توصف إسرائيل بأنها دولة صناعية، بينما تصنف الدول العربية دولاً نامية، وقد صارح بيريز الدول العربية بأنها تستورد كل شىء، كل شىء، من السلع الاستهلاكية من دول الغرب، كما

تستورد معظم المعدات الصناعية من دول الغرب كذلك، وأشار بيريز إلى أن كل ما تستورده الدول العربية تنتجه إسرائيل.

والحق أن التبعية العلمية، بمعنى الاتكال العلمى والتكنولوجى على الدول المتقدمة - سيؤدى بالضرورة إلى تبعية فى المجالات المختلفة، من بينها التبعية السياسية، الدول المنتجة، المتقدمة، لن تعطى إلا ما يتبقى منها، وبالصورة التى لا تؤدى إلى منافستها.

وعلى سبيل المثال، فإن الاتحاد السوفييتى السابق صدر لمصر وسوريا والعراق، وغيرها من الدول التى اعتبرها صديقة له - قبل أن يدخل المرحلة الجوربتشوفية - طائرات الميج ٢١، لكنه احتفظ لنفسه بسر الجيل الثانى من هذه الطائرات، وهى الميج ٢٣، فلما اخترع جيلاً ثانياً، صدّر للدول الصديقة ما كان يعتبره سره الخاص، واحتكاره الذى يجب ألا ينافسه فيه أحد، وهكذا إلى آخر أرقام الميج، نعم، أنت صديقى، لكن من المستحيل أن أكشف كل أوراقى على المائدة أمامك، من حقى - وواجبى - أن تكون لى إنجازاتى التى لا يشاركنى فيها الآخرون، حتى لو كانوا خاصة الأصدقاء!

إن العلم الذى نشتريه، غير العلم الذى نحققه بتأملاتنا وأبحاثنا وتجاربنا، فشراء العلم يتساوى فيه المتقدم والمتخلف، أما إنتاج العلم فيقتصر على المتقدم وحده، ولاشك أننا نمتلك الطاقات والقدرات والإمكانات، لكننا عاجزون عن امتلاك الوسائل التى نحسن بها استخدام ذلك كله.

وقد لاحظ برنامج الأمم المتحدة للبيئة، أن الجهود الحديثة للتنمية فى المنطقة العربية، اعتمدت - ربما بحكم الضرورة - على النقل المكثف للتكنولوجيا من الخارج، فكانت التكنولوجيا تنقل - فى أغلب الأحيان - فى صورتها المجمعة، كآلات مدينة كاملة التركيب، وهو ما أدى إلى إعادة تطوير القدرات الذاتية فيما يتعلق بالتعامل مع التكنولوجيا، مثل الخبرة الفنية، وبرامج وأنظمة التشغيل، وفيما يتعلق بفهمها وفك طلاسمها وتقييمها، ومن ثم تكييفها واستغلالها بصورة اقتصادية فى إطار نظم الإنتاج القومى.

ولعل أوضح مثال على ابتعادنا عن التكنولوجيا، أن الفلاح حصل على التراكتور ليحقق به زيادة فى الإنتاج، فاستخدمه كوسيلة مواصلات، وانخفض الإنتاج بالتالى! بل إن الحقيقة التى قد لا يعرفها الكثيرون، أن

الدول العـربيـة لم تصنّع "الموتور" بعـد. ربما تضـيف إلى الآلة الكثـيـر من إنتـاجـهـا، تجـرى تعـديلات وإضـافـات وتحـسينات، لكن الموتور يظل إنجـاز الآخرين، ولابد أن تستورده..

فهل نحن نحيا - كما قيل - أسرى حضارة الإبل؟!..

إن اليـابان لا تملك أى مـصـادر طبـيـعـيـة، مع ذلك فـقـد حـقـقت تقـدمـا تكنولوجياً مذهلاً فى مجالات الاتصالات، والفضاء، والمعلومات، والحاسب الآلى بأجياله، والإلكترونيات الدقيقة، والهندسة الوراثية، واستنباط عقاقير وعناصر جديدة، وصناعة مواد جديدة بديلة للمواد الخام الطبيعية فى الصناعة، واستحداث محاصيل جديدة، وحل مشكلات التلوث، وكشف مناطق لم تصل إليها أقدام البشر، واستخدام طاقة الفضاء فى مشروعات التنمية بالأرض، ورصد الكواكب فيما وراء المجموعة الشمسية، والانتقال من التكنولوجيا الإلكترونية إلى التكنولوجيا الرقمية، بتحويل المعلومات المسجلة إلى الصورة الرقمية، وأساسها الصفر والواحد، فتترجم الكتابة والأصوات إلى هذه الصورة، وهى الآن تفوق الولايات المتحدة، فى حجم أرصدتها من الأصول المالية.

أما المنطقة العربية، فإنها تتمتع بكل المصادر الطبيعية التى يمكن أن تصنع تقدماً، فالموارد تبدأ بالزراعة، وتنتهى بالسياحة، وتمر بالثروات المائية والمعدنية والبترولية، ووفرة العمالة، ورسوم الممر المائى، إلخ..

لكن الفارق بين اليابان والعرب هو الفارق بين المنتج والمستهلك، فارق بين الذى استكان إلى حضارة قديمة، والذى يصر على أن يخلق مدنيته الحديثة، وأشير إلى كتاب بعنوان "اليابان يمكن أن تقول لا" - لاحظ الدلالة! - يقول الكاتب "إن الإبداع الوافر لليابانيين لا يقتصر وجوده على عدد قليل من الصفوة، لكنه شىء يمكن مشاهدته فى حياة المواطنين اليابانيين بصورة عادية".

***

يقول المثل: من لا يملك غذاءه، لا يملك حريته.

والوطن العربى مثله فى ذلك مثل الكثير من دول العالم الثالث، لا يملك

غذاءه.. فهو يدفع نحو ٣٥ مليار دولار سنوياً لشراء مواد غذائية، من المتوقع أن ترتفع مع بداية القرن الحادى والعشرين إلى ٦٠ مليار دولار.. وهى تعادل ثلث الدخل القومى العربى.

مأساة!..

كانت معظم الدول العربية - حتى بداية الستينيات - مصدِّرة للكثير من السلع الغذائية والمنتجات الزراعية، فقد اشتهرت سوريا بتصدير القمح الذى كان يزرع فى منطقة حوران، والتى كانت تسمى "إهراء روما"، واشتهر العراق بتصدير الشعير الجيد إلى أوروبا، واشتهرت الجزائر بتصدير القمح إلى دول أوروبا، وفى مقدمتها فرنسا، واستطاعت الدول العربية عموماً - إبان الحرب العالمية الثانية - تزويد جيوش الحلفاء باحتياجاتها من الطعام، وكانت مصر - إلى الستينيات - تكفى نفسها من القمح، لكنها الآن من أكثر دول العالم استيراداً له، حتى صادرات مصر من القطن - الذى يعتبر محصولها الرئيس - لم تعد تكفى لسد العجز فى وارداتها من القمح، لقد التقطت الأقمار الصناعية، بالاستشعار عن بعد، صورة بانورامية لمدينة ملوى بصعيد مصر - وهذا مجرد مثال - ظهر فيها أن المساحة السكانية قد احتلت كل كردون المدينة الزراعية، لم تعد هناك أرض زراعية داخل المدينة الريفية، وهى ظاهرة تنسحب - بدرجات متفاوتة - على معظم المدن والقرى فى دلتا مصر وصعيدها، ومحاولات استصلاح الأراضى تبدو قاصرة بالقياس إلى الأراضى الخصبة التى يلتهمها التبوير والتجريف، وتضطر مصر إلى استيراد منتجات كانت تفيد من عائدات صادراتها فى السابق.

إن المنطقة العربية تشهد تدهوراً مستمراً لقطاعها الزراعى، منذ بداية السبعينات، وقد تعددت الاتهامات حول بواعث ذلك التدهور ما بين التجريف والتبوير وسوء استخدام التربة ومضار المبيدات والكيماويات وفساد التقاوى وهجرة الفلاحين إلى المدن إلخ.. لكن النتيجة التى يعانى تأثيراتها الجميع، هى تفاقم مشكلة العجز الغذائى فى المنطقة العربية، وقد هبطت نسبة الاكتفاء الذاتى من الحبوب على مستوى العالم العربى من ٦٩٪ خلال النصف الأول من السبعينات، إلى ٥٠ ٪ خلال النصف الأول من الثمانينات، والمتوقع أن تنخفض إلى ٤٣ ٪ فى أول القرن إذا استمرت على معدلاتها الحالية..

وعن القمح تحديداً، فقد كانت نسبة الانخفاض خلال الفترة نفسها من ٥١ إلى ٣٥ ٪، والمتوقع أن تنخفض هذه النسبة إلى ٢٣ ٪ فى مطالع القرن.

وللتدليل على خطورة مشكلة الغذاء فى العالم العربى، فلعله يكفى الإشارة إلى أن واردات الأقطار العربية من الغذاء فى ١٩٩٠ بلغت نحو ١٣,٢٥ مليار دولار، بما يعادل ٥٨٦٪ من قيمة واردات الفترة من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٢، وكما يقدر الخبراء، فإن المنطقة العربية تمثل الآن أكبر منطقة عجز غذائى فى العالم، وهو عجز لا يقتصر تأثيره ـ للأسف ـ على النواحى الاقتصادية، لكنه يمتد فيبين عن آثار غاية فى الخطورة، نتيجة التعرض للضغوط الخارجية، وفقدان حرية اتخاذ القرار، فضلاً على التهديد المباشر للأمن القومى.

والحق أن التقدم فى مجال التكنولوجيا الزراعية ـ وما سبق مجرد مثال ـ لابد أن يلازم التقدم فى المجالات العلمية والتكنولوجية الأخرى، التقدم أقرب إلى نظرية الأوانى المستطرقة، فما يتحقق فى مجال يتوازى ـ بالضرورة ـ مع سائر المجالات، والعكس ـ بالطبع ـ صحيح، عدا استثناءات تؤكد القاعدة!

★★★

يصف البعض ظاهرة الإقبال على الثقافة الغربية، مقابلاً لابتعادنا عن ثقافتنا العربية، بأنه "انتحار".. وهو رأى أميل إلى الموافقة عليه، وإن كان مما يحتمل المناقشة قوله إن ذلك ما فعلته دول جنوب شرقى آسيا، عندما تخلت عن موروثها الثقافى دفعة واحدة، وارتمت فى حضن الثقافة الغربية، بكل أبعادها الإيجابية والسلبية.. فقد حققت اليابان ـ على سبيل المثال ـ تقدماً علمياً مذهلاً دون أن تفقد هويتها الحضارية والمدنية، وحين بدأت اليابان ـ فى القرن التاسع عشر ـ رحلة التقدم، فإنها رفعت شعاراً، بأن يدعم كل ما هو عالمى كل ما هو وطنى.

والواقع أن معظم التكنولوجيا اليابانية مأخوذة من الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، ثم استطاعت اليابان تطوير ذلك كله من خلال إنفاق باذخ فى مجالات البحوث يفوق إنفاقها على الاستثمار الرأسمالى. والملاحظ أن الحائزين على جائزة نوبل فى العلوم الأساسية من اليابانيين قلة، بالقياس إلى الحائزين على الجائزة العالمية من الدول المتقدمة الأخرى، ويفسر المحللون ذلك بأن المخترعات الأمريكية والأوروبية كانت على الدوام فى

متناول الصناعة اليابانية، وأن البناء التعليمى اليابانى يعتنى بالهندسة أكثر من عنايته بالعلوم، وفى حين تخرج الولايات المتحدة تسعة علماء و١٢ مهندساً فى العام لكل مائة ألف من السكان، فإن اليابان تخرّج تسعة مهندسين وعالمِيْن فقط.

أخيراً، فإن الصناعة اليابانية كانت تركز على البحث من أجل الإنتاج، وتوفير المنتجات فى الأسواق، فلما بدأت الدول الصناعية فى إغلاق أبوابها العلمية أمام اليابان، زادت اليابان من إنفاقها فى الاستثمار على بحوث التطوير، وفى تقرير سرى للجنة العلوم بوزارة الدفاع الأمريكية عام ١٩٨٩، عن الهندسة الإلكترونية: "إذا تركت اليابان تسير على ما هى عليه، فسيكون من المستحيل على الولايات المتحدة أن تستعيد مركز الصدارة مرة أخرى "، وإذا كان من الصعب ـ فى المدى القريب ـ أن تستعيد اليابان قوتها العسكرية الهائلة، فتصبح من قيادات العالم العسكرية، فإن الاقتصاد اليابانى ـ الذى يعد الآن ثانى القوى الاقتصادية فى العالم ـ سوف يستمر فى تدعيم بنيانه حتى يصبح قوة اقتصادية هائلة، يصعب إغفالها فى القرارات الدولية المصيرية، وبما يغنيها ـ إلى حد كبير ـ عن استعادة المكانة العسكرية الغائبة!

ومن السهل ـ بالطبع ـ تبين تكرار مثل اليابان فى الصين وماليزيا وأندونيسيا وتايلاند وغيرها من نمور آسيا الشهيرة..

✯✯✯

المشكلة ـ ببساطة أرجو ألا تكون مخلّة ـ أن دول الغرب حققت ما سمى ـ فى مجموعه ـ بالتقدم، وكان على دول العالم الثالث أن تبلغ هذا التقدم، لذلك فقد حاولت تقليد النموذج الغربى فى مجالات الحياة المختلفة، حتى لو لم يكن التقليد متوائماً مع قيم الدول التى أقدمت عليه، مع موروثها العقائدى والثقافى والمجتمعى.

ولعلى من غلاة المؤيدين للرأى بأننا اليوم "فى أزمة حضارية طاحنة، تستدعى تمسكاً شديداً بالهوية، مقابل الآخر الغاصب المتفوق" (د. سيد القمنى: الإسلام والقضية الإسرائيلية ـ أخبار الأدب ١٩٩٦/١٠/٢٧).

نحن نعانى انفصاماً حاداً بين الفكر والفعل، بين الطموح والواقع، بين

الشعار والممارسة اليومية، وقد اكتفت الفلاحة بائعة اللبن بتمنى صورة المستقبل، فلما انسكب اللبن تلاشت الأمنية، الحلم، تماماً.

أذهلنى فى زياراتى للعديد من الأقطار العربية - أزعم أن رحلاتى شملت معظم مناطق الوطن العربى - حرص القيادات على بناء القصور التى تحوى أعظم المنجزات التكنولوجية والعلمية، لكنها لا تلجأ إلى ذلك كله، لا تحيا فيه، وإنما تفضل الحياة فى خيمة!.. ونحن نلحظ - فى أعقاب كل خلاف عربى - أن أحد طرفى الخلاف يعلن أنه خلاص كفر بالعروبة، وأنه قرر أن ينكفئ على نفسه، ويبتعد عن العالم العربى بصراعاته وخلافاته وتخلفه.

الطريف - والمؤسف - أن بعض تلك الدول عربية الجذور، لا شبهة تداخل بأجناس أخرى فى هويتها، قد لا يدهشنا هذا الرأى من مثقف مصرى قهرته نزعته الوطنية - وإن كنا نرفضه - فهو يعلن انتماءه إلى الفراعنة - مثلاً - كما فعل - ذات يوم - محمد حسين هيكل وسلامة موسى ولويس عوض وغيرهم، أو انتماءه إلى حوض البحر المتوسط كما فعل طه حسين وحسين فوزى وغيرهما، أو انتماءه إلى الجنوب، إلى إفريقيا السوداء، كما فعل بطرس غالى، وقد يعلن هذا الرأى مثقف عراقى أو سورى أو لبنانى، بدعوى انتمائهم إلى أصول بابلية وأشورية.. إلخ.

لكن المأساة تبين عن ملامحها القاسية عندما ينصح مثقف خليجى مواطنيه بالانسلاخ عن العروبة، بتطليقها، والابتعاد عن العالم العربى بصراعاته ومشكلاته وتخلفه.. فإن لم تكن الجزيرة العربية هى مهد العرب، هى الأصل والمنشأ والبداية، فما معنى "الوطن العربى" إذن؟..

***

نحن أصحاب حضارة، لكننا لسنا أصحاب مدنية.

من هنا كانت الدعوة إلى الأصالة والمعاصرة التى تبناها - فى أعوامه الأخيرة - أستاذنا الراحل زكى نجيب محمود، الحفاظ على التاريخ والتراث والأصالة، تواصلاً مع محاولة التحدث والتخاطب بلغة العصر.

أوافق العالم الكبير أنور عبدالملك فى أن الوفاء لإرثنا الحضارى وإنجازات تاريخنا الحديث، لا يمثل عبئاً يصد أبواب الغد، وكأن التراث الحى على

نقيض مع العمل والتجديد والتنقيب والإبداع (الأهرام ١٩٩٦/١٢/٣١)، الإفادة من التراث مطلوبة، فالماضى هو الثوابت الحضارية، شريطة أن يتفاعل ذلك مع إضافات خلاقة، تضيف، وتطور، وتثرى.

نحتاج إلى التكنولوجيا المتقدمة التى يملكها الغرب، لكننا نحتاج - فى الوقت نفسه - إلى الاحتفاظ بهويتنا الحضارية، بتواصلنا مع الماضى، انتقالاً إلى المستقبل، وبتعبير آخر، فإننا نحتاج إلى التقدم العلمى والتكنولوجى فى الغرب، لكننا - بالضرورة - لسنا فى حاجة إلى قيمه ومثله، إن لنا قيمنا ومثلنا التى تختلف - بصورة مؤكدة - عما يحياه الغرب، لا نرفض الثقافة الغربية، ولا المدنية الغربية، لكننا نرفض أن نكون مسخاً مشوهاً لثقافة الغرب ومدنيته، لا نريد أن نفقد هويتنا ولا ذاتيتنا، نحن عرب بكل ما تنطوى عليه المقولة من معنى، هذه حقيقة يجب أن نعتز بها، ونحرص عليها، أذكر قول راجيف غاندى: "التقدم فى تقديرنا هو ألا نفقد جذورنا وأصولنا، وأن نحافظ على تراثنا وثقافتنا وتقاليدنا، ليس بضمها إلى متحف الأموات، وإنما بإبقائها حية داخل مجتمع اليوم، علينا أيضاً أن نزيل السيىء فى تراثنا الثقافى، وفى تقاليدنا، علينا أن نتعلم كيف نعيش معاً".

والقول إن الحروب الثقافية هى ما سيشهده القرن الحادى والعشرون من حروب، يعنى أنه سيكون قرناً للثقافة، لتأثيرات الثقافة ونتائجها الإيجابية والسلبية، لعمليات الغزو الثقافى ومحاولات صدها، للإسهام الفعال فى الإنجازات التى تتحقق فى مجالات العلوم والتكنولوجيا، للصراع بين الحضارات.

إن الهوة تتسع بين الدول المتقدمة، القليلة، والدول المتخلفة، الكثيرة، وظنى أن تلك الهوة ستزداد اتساعاً، ما لم تحدث تغيرات حقيقية وملموسة، وإن غابت - حتى الآن - فى الأفق.

من الخطورة - فى ظل الثورتين العلمية والتكنولوجية اللتين تسودان العالم المتقدم - أن يغيب المنهج العلمى عن فهم المتغيرات من حولنا، إن صورة المستقبل يجب أن تصدر عن تبصر بحقائق التاريخ، وتفهم للواقع، واستشراف للمستقبل، واعتماد الحوار الحضارى الذى يقوم على التبادل

وليس الأخذ، أى تبادل المنجز العلمى والتكنولوجى، وليس الاكتفاء باستهلاك ما يصدره إلينا العالم المتقدم.

وحتى الآن، فإن عالمنا العربى بعيد عن الإنجازات التى قامت فى هذا العصر: ثورة المعلومات، ثورة التكنولوجيا، ثورة الاتصالات، غزو الفضاء، اقتحام أعماق الكون، كشف أسرار الجينات، ثورة الهندسة الوراثية، الروبوت، الكومبيوتر، إلخ..

ولعلنا نتذكر قول أستاذنا شكرى عياد "إن بعضنا عرّب التكنولوجيا، فقال التقنية.. لكن التكنولوجيا نفسها لم تعرّب بعد!

إن التقدم فى المجال الزراعى - مثلاً - يعنى دراسة التكنولوجيات الجديدة، واستخدامها فى مجالى علم الوراثة والهندسة الزراعية، وفى مقدمتها المكافحة المتكاملة للآفات، والزراعة بوسائل الرى الحديثة، القائمة على الاستهلاك المخفض للمياه مثل الرى بالتنقيط، وإنتاج سلالات نباتية لها صفات جديدة باستخدام الهندسة الوراثية، والاستخدام المرشّد للمياه، ومياه الصرف، وإعادة التأهيل البيئى للمناطق التى فقدت صلاحيتها للإنتاج الزراعى بتأثير التملح الثانوى للمياه.

لقد أعلن العديد من الأقطار العربية عن ثورة خضراء، وعن مشروع قومى، وغير ذلك من الأسماء الباهرة، لكنها لم تجاوز الأمنيات، فلم يتحقق تطبيق عملى من أى نوع، بل إن العكس هو ما يحدث، فمساحات الأراضى الزراعية تتناقص بالتجريف والتبوير، والإمكانات تهدر.

ثمة رأى، أن "الأمة العربية تحولت إلى كتلة غير منتجة، وهى غير مبالية بفقدان قدرتها على الإنتاج، نظراً لتوافر الأموال النفطية، وما يصيب من فتات هذه الأموال، الدول العربية غير النفطية.. فسواء من الناحية الزراعية، أو من الناحية الصناعية، أو من الناحية العسكرية، أصبحت الأقطار العربية جميعها فى تبعية اقتصادية شاملة تجاه العالم المتقدم صناعياً، والإنتاج المخصص لإشباع الحاجات الأساسية للشعب العربى يتزايد سنة بعد سنة، بفعل انخراط الأقطار العربية المتزايد فى خطط الشركات المتعددة الجنسيات، فى حين أن الثروة الأساسية الناضبة للأمة العربية، وهى النفط، تذهب إلى الدول المتقدمة، مقابل أرصدة مالية تذوب تحت وطأة

التضخم، ومقابل عقارات فى تكساس وفلوريدا وكان ونيس ولندن. ويالها من مفارقة!".

التكنولوجيا لا تعنى شراء الموبايل والكومبيوتر والفيديو والتليفزيون و"الدش" والمكيف والسيارة والطائرة، لكنها تعنى استصلاح الأراضى للزراعة، وإنشاء المصانع والمعامل، وبناء الجسور، وشق الطرق، وإنتاج الأسلحة، ومحاولة تحقيق التقدم فى كل المجالات.

وتقول الإحصاءات إن نسبة الاعتمادات المخصصة للبحث والتنمية فى عالمنا العربى تبلغ نحو ربع نسبتها فى البلدان الصناعية، وإن نسبة عدد العلميين والمهندسين المشتغلين بالبحث والتنمية إلى مجموع السكان، لا تزيد عن واحد من كل عشرة آلاف، بينما تصل النسبة فى البلدان المتقدمة إلى عشرة فى المائة.

ولا شك أن الطاقة البشرية، العلمية، الهائلة، فى بلادنا، تستطيع - بالتخطيط الاستراتيجى السليم - أن تحقق التقدم للمنطقة، بالاستخدام الأمثل للتكنولوجيا، بدلاً من الهجرة إلى الدول الصناعية..

إن مجرد القبول بالحياة على أى نحو، يذكرنى بمقولة سقراط "والبهائم تعيش"، وأخطر المشاهد بالنسبة للواقع العربى المعاصر أن القافلة تسير بدونهم، والتاريخ لا يصنع فى محيطهم، واستمرارية التخلف تعنى - والقول للمؤرخ المغربى الكبير محمد عزيز الحبابى - "أن نستمر خائفين، جائعين، مقلدين" (الأهرام ١٩٩٢/٥/٢٠)، ثمة متغيرات فى العالم يجب أن نتكيف معها، ونتحرك فى إطارها، الوطن العربى - كما أشرنا - ليس واحة فى صحراء، ولا جزيرة فى محيط، وإنما هو جزء من قرية صغيرة، اسمها العالم!

وبتعبير محدد، فإن الرؤية المستقبلية هى المفتاح السحرى الذى يكفل لنا موضعاً فى هذا العالم.

احذروا تسونامي البشر

إذا كانت زيادة السكان تمثل مشكلة فى بلادنا، منذ كان عبدالحليم حافظ يغنى لعبد الناصر: اطلب تلاقى ٣٠ مليون فدائى، هم عدد المصريين فى الستينيات، ثم فى إنشاء الرئيس السادات مراكز تنظيم الأسرة، وتعالى الدعوة إلى تحديد النسل فى زماننا الحالى، بداية من إعلانات التليفزيون عن حسنين ومحمدين إلى وقفة مصرية التى تتجه إلى أكثر من ثمانين مليوناً.. إذا كانت هذه المشكلة هى العائق الأهم الذى يواجهه المجتمع المصرى فى خطط التنمية، فإن الصين - التى فاق عدد سكانها المليار والثلاثمائة مليون نسمة - أعلنت - مؤخراً - أنها تبحث عن عمالة من غير مواطنيها لسد احتياجاتها فى الصناعة والتنمية.

طرف خيط الخبر الذى نشرته وسائل الإعلام، فى زيارة هيساو دنج الشهيرة إلى الهند فى السبعينيات. عرفت الصين المعنى الحقيقى للتخطيط والاستراتيجية، والعمل وفق المتغيرات العالمية، دون أن يفقد المجتمع شيئاً من قناعاته الإيديولوجية، أو يعتبر زيادة السكان عاملاً سلبياً.

واللافت أن الحزب الشيوعى الصينى هو الذى يقود الآن ثورة التنمية فى بلاده - ثورة ليبرالية بكل المقاييس - والتى ترشحها فى المدى القريب، لتكون أولى دول العالم فى التصنيع، وفى التصدير.

٭٭٭

أما فى مصر، فإن الزيادة السكانية - فى تقدير صانعى القرار - هى المتسبب فى كل الأزمات التى تعانيها البلاد، والتى تجد تعبيراً لها فى حالة

الغليان التى تسود الشارع المصرى، بمعنى أن تحديد النسل هو الحل الوحيد لكل مشكلاتنا، وهو زعم ينطوى على تسطيح للحالة المصرية، ويغفل سلبيات كثيرة، منها تفشى الفساد، والمحسوبية، والإثراء السريع، وبيع أصول القطاع العام، والغلاء غير المبرر، والتنازل عن الهوية، وغياب المثل الأعلى، والتعامل مع الوطن بمنطق الشقة المفروشة، وعوامل أخرى كثيرة أثق أن البطالة نتيجة لها، وليس العكس.

الملاحظ أن الاعتصامات والإضرابات صارت ظاهرة قومية، يشارك فى تجسيدها كل فئات المجتمع وطوائفه، حتى الفئات التى لم يكن من المتصور أنها تأخذ موقفاً سلبياً من الدولة، شاركت معظم قطاعات المجتمع المصرى فى تنظيم الإضرابات، تعبيراً عن مواقفها الرافضة لسياسات الحكومة وقراراتها، وبخاصة فيما يتصل بحقوق العاملين، ثمة ممثلون للنقابات العمالية والمهنية وهيئات التدريس بالجامعات، حتى عمال مصانع حديد أحمد عز، أحد القيادات المهمة فى الحزب الوطنى، واصلوا إضراباً تخلله تظاهر ورفع شعارات، ولافتات تدين وتحذر.

ولم يكن أمام أحمد عز ـ للحفاظ على وجوده السياسى ـ إلا استرضاء العمال بما يدفعهم للتخلى عن إضرابهم، ولا يخلو من دلالة قرار عز برفع أسعار الحديد ٨٥٠ جنيهاً دفعة واحدة للطن الواحد.

حتى أصحاب المعاشات والمعوقين، لم يجدوا ـ للمطالبة بحقوقهم ـ إلا الإضراب والاعتصام، وترديد الشعارات التى تطالب باستعادة الحقوق المسلوبة.

لم تقتصر الظاهرة على القاهرة وحدها، لكنها امتدت إلى مناطق أخرى داخل البلاد، دليلنا ما حدث فى المحلة الكبرى وطنطا والإسكندرية والمنيا وغيرها من المدن المصرية.

لقد اتهم سلم نقابة الصحفيين ـ لسنوات ـ بأنه يسهم بدور سلبى فى الاعتصامات والإضرابات التى يقوم بها من فوقه ممثلو النقابات والهيئات، حتى أن أهم ما وعد به مكرم محمد أحمد عند توليه منصب النقيب أنه لن يأذن بجعل سلم النقابة موضعاً لمظاهر الاحتجاج!

ثم أثبت انتقال المضربين والمعتصمين إلى مجلس الشورى، أن المشكلة

أعقد من أن تنسب إلى سلم النقابة، المشكلة هى حقوق المواطنين، بصرف النظر عن المواقع التى ينتسبون إليها، وهو ما عانوا فى سبيل الحصول عليه، مقابلاً لرفض قيادات الحكومة، وتقاعس ممثليهم فى النقابات والهيئات، بحيث صار الإضراب، أو الاعتصام، هو المتاح الوحيد.

ولأن الأمن أهمل نظرية القلة المنحرفة، فقد وجدت ظاهرة الإضرابات والاعتصامات أمام مجلس ممثلى الشعب، موضعاً يسهل منه وصول احتجاجاتهم وهتافاتهم، فضلاً على احتشادهم، إلى ممثليهم فى البرلمان.

✮✮✮

لماذا كانت تطلق تسمية الشرذمة، أو القلة، المنحرفة على كل من يحاول التعبير السلمى عن مطالب مشروعة لبعض قطاعات المجتمع المصرى؟ ولماذا تتاح الآن - إلى حد ما - محاولات التعبير، مثل الاعتصامات والإضرابات؟، أما المظاهرات فهى ممنوعة - بالطبع - حتى إشعار آخر.

أخشى أن الدولة تضع فى اعتبارها، وهى تأذن بتعبير قطاعات المجتمع عن مطالبها فيما يشبه الظاهرة، ما فعله الملك فؤاد حين كان يوعز إلى نجيب الريحانى - والرواية ليحيى حقى - حتى يقدم مسرحية مثل "٣٠ يوم فى السجن" تناقش أحوال الموظفين، وعندما يجد الموظفون أنفسهم فى المسرحية، يطمئنون إلى أن السلطة تعرف ظروفهم جيداً، ويضحكون على شخصية الريحانى التى تعبر - بالمواقف الكوميدية - عن ظروفهم، وينتهى الأمر.

وفى الستينيات، كان جمال عبدالناصر يطلب من محمد حسنين هيكل أن يسخر صلاح جاهين - فى لوحاته الكاريكاتورية الرائعة - من الظروف القاسية التى يواجهها المجتمع المصرى فى بعض الفترات، من غياب احتياجات مادية مهمة، ويطالع قراء الأهرام كاريكاتير جاهين، مذيلاً بتعليق ساخر، ويعيدون موقف مشاهدى مسرحيات الريحانى، فيطمئنون إلى أن مشكلاتهم ليست خافية على عبدالناصر، وأنه سيتولى الأمر بما يلغى مجرد التفكير فى الاحتجاج!

كشفت هذه الظاهرة تقاعس، إن لم يكن فشل النقابات المهنية والعمالية، فى أداء دورها، طبيعى أن يكون مجلس إدارة كل نقابة هو المعبر عن مطالب

العاملين فى قطاع ما، وأن يحاول الحصول على حقوقهم المشروعة، بحيث يأتى الاعتصام، أو الإضراب، خطوة أخيرة، ليحصل العاملون على ما يرون أنه حق لهم.

أذكر أن المركز القومى للبحوث الجنائية والاجتماعية أثبت ـ فى أحد استبياناته ـ أن نسبة ٨٢٪ من أبناء الشعب المصرى يعانون تأثيرات الإحباط، مبعث هذه التأثيرات هى الأوضاع القاسية التى يعانيها المصريون، وهى تأثيرات تنعكس على أحوالهم الأسرية والوظيفية.

وحتى الآن، فإن التعامل مع هذه الظاهرة الخطيرة ينطوى على عبث وسذاجة مؤكدة، نحن ننسبها إلى ظواهر المد السياسى، فهى مثل الأمواج التى تلامس الشاطئ، لكنها تعد بزيادة المد، تتحول إلى نوة، تكتسح كل ما تلقاه أمامها.

أختلف مع الرأى بأن توالى الأيام سيكفل النظر إلى هذه الظاهرة باعتيادية، فهو لن يتوقف أمامها، وسيعبرها، ذلك تصور خاطئ، كل شىء يكتسب ديناميته من داخله، ومن الظروف المحيطة، هى التى تهبه قوة الدفع، والتحول إلى الفعل.

ما نعيشه يذكرنى بقصة لى عنوانها "نبوءة عراف مجنون "، بدأ الرجل احتجاجه بالتبشير بالنصر القريب، ثم علا صوته، وبدت تصرفاته أقرب إلى الهستيريا، قبل أن تبين عن الخطر الذى لم نكن نتوقعه ولا تصورناه.

لن تظل الظاهرة محلك سر.

احذروا تسونامى البشر.

العمارة.. والعشوائية

العمارة من عشرة طوابق، كل طابق تفنن أصحابه فى إضفاء اللمسات الجمالية عليه، بحيث يبدو - فى ذاته - مثلاً متفوقاً لفن العمارة، فإذا نظرت إلى العمارة فى مجموعها، بدت مسخاً مشوهاً يعانى العشوائية المطلقة، فلا طابق يشابه الآخر فى أى شىء، كأن كل طابق بناية مستقلة لا شأن لها ببقية الطوابق، ثمة من جعل الشرفة بامتداد الواجهة، ومن جعل بدلاً من الشرفة نافذتين، ومن اكتفى بنافذة واحدة، ومن جعل الحائط مصمتاً، أما المكيفات، فقد تناثرت كالبقع فى واجهة العمارة.

هذه العمارة مثل للعشوائية التى تتسم بها الآن معظم مبانى القاهرة، أنت ترى العمارة البرج التى تجاوزت الأربعين طابقاً، واجهتها من الزجاج، تقليداً ساذجاً للعمارة الأوروبية التى تعبر عن بيئة جغرافية مختلفة - تعتبر ظهور الشمس حدثاً ينبغى الإفادة منه، أما الشمس فى بلادنا، فهى على امتداد العام، وقد يلاصق العمارة البرج فيلا من طابقين ذات طراز عربى جميل، أما البناية الثالثة فقد تكون مخزناً من طابق واحد.

منتهى العشوائية!

كانت مساحة القاهرة فى ١٨٠٠ خمسة كيلو مترات مربعة، وزادت فى ٢٠٠٠ إلى أكثر من ٥٠٠ كيلو متر مربع، وكان لذلك الاتساع الهائل تأثيره على العمارة القاهرية، بداية من القصور والفيلات، وانتهاء ببيوت العشوائيات.

العمارة القاهرية تبين عن تناقضات حادة، بانتمائها - فى زمن حاضر - إلى عصور مختلفة، ثمة العمارة الفاطمية، والعمارة المملوكية، والتركية،

والإيطالية، والعمارة التى يصعب نسبتها إلى عصر ما، إلا أنها وليدة هذا الزمان، مجرد أوعية أسمنتية، يجد فيها الناس مأوى لهم!

مظاهر المدنية الحديثة تشمل البنايات ذات الطابع الموحد، والمميز، والشوارع الواسعة، المستقيمة، والميادين الفسيحة، والحدائق، والأشجار، وكما نعلم، فقد كان ذلك تصور الخديو إسماعيل، حين أمر بإنشاء مدينة القاهرة، وعلى الرغم من الفترة القصيرة - نسبياً - التى أمضاها فى حكم مصر، فإن ما سمى بعمارات الخديو امتدت فى مساحة هائلة من القاهرة، بل إنها الطابع الغالب لمنطقة وسط البلد.

المعلم الأهم فى بنايات وسط البلد هو كلاسيكية الطابع، لقد أنشئت ما بين عهدى الخديو إسماعيل والخديو عباس حلمى الثانى (ذكر عباس حلمى أنه كان يشرف بنفسه على عمليات بناء العمارات المنسوبة إليه فى شارع عماد الدين، باسم عمارات الخديو).

والحق أن العشوائية لا تقتصر على المناطق التى تنشأ فى غيبة من إشراف الدولة، لكنها تشمل المناطق التى تعد - بدرجة وبأخرى - واجهة للعاصمة، ثمة العمارة العربية والإسلامية، والعمارة الإيطالية، والعمارة الصينية، واليابانية.. إلخ..

فإلى أى نسق ينتمى هذا "السكلانس" الذى يتوزع فى بلادنا؟

على سبيل المثال، فإن ذلك البناء الزجاجى الغريب القريب من ساحة الجندى المجهول بالإسكندرية، يبدو كالبقعة السوداء فى محيط معمارى متجانس، والفضيحة المعمارية التى شوهت ميدان أبى العباس تستدعى محاسبة متشددة لمرتكبيها، بل وإلغاؤها، مع إلزام "الجناة" بدفع التكاليف!

لعل المثل "سمك، لبن، تمر هندى" ينطبق جداً وجيداً على العمارة المصرية الآن، المدن الكبرى - مثل القاهرة والإسكندرية - تعانى الفوضى الجمالية التى لا تواجه قيوداً من أى نوع، فالألوان مختلطة، والأشكال متنافرة، والخليط المرئى يصدم العين، بما يحقق تعبير "التلوث البصرى".

وحتى رفع تمثال الفرعون رمسيس من ميدان محطة العاصمة الذى سمى باسمه، فقد كان - التمثال - يواجه ميدان المحطة بملامحه الإسلامية،

وبالقـرب منه ـ بالملامح نفـسـهـا ـ جـامع الفـتح، على نـاصـيـة رمـسـيس والجمهورية، وفى مواجهة التمثال كانت عمارة "إفرست" العالية بنموذجها الذى يصعب وضع تسمية له، ولآلاف البنايات المتشابهة، إلا أنه مجرد مكان للمأوى، بلا طابع حقيقى، يعبر عنه، أو ينتمى إليه.

حتى الطريق الزراعى الذى ظل بعيداً عن اعتداءات الكتل الخرسانية وطوابق الأسمنت، دخل دائرة العشوائية، تقلصت الخضرة التى ألفناها فى أسفارنا، وحلت بدلاً منها بنايات متفاوتة الحجم والارتفاع.

الهوية المعمارية لمدينة ما، لابد أن تتصل بانتمائها الحضارى، من غير المتصور أن تعبر عن توالى الحضارات الفرعونية والبطلمية والقبطية والعربية الإسلامية، هوية معمارية أوروبية أسمنتية!

إن للمدن شخصيتها ـ أو هذا هو المفروض ـ تجد التعبير الأبلغ عنها فى فن العمارة، نحن نستطيع التعرف إلى هوية المدينة، بالتعرف إلى الطابع المعمارى، العمارة انعكاس لثقافة أى شعب، لحضارته، لحسه الجمالى، ولن يتحقق ذلك إلا بالانسجام والتناسق، وقد لا يعلم الكثيرون أن المواطن الأوروبى يزور جاره فى البيت المقابل، يخبره باعتزامه طلاء واجهة بيته، ويسأله عن اللون المناسب، فإذا كان هو صاحب البيت، فإن الجار هو الذى سيشاهد واجهة البيت، ومن حقه أن تطلى الواجهة باللون الذى يفضله!

وأذكر أنه قد صدر فى ١٩٧٥ قانون يفرض تخصيص نسبة مئوية من تكاليف المبانى والمنشآت العامة للإنفاق على إضفاء اللمسات الفنية عليها، ويبدو أن صفحة هذا القانون طويت بمجرد صدوره، فلا لمسات فنية من أى نوع، بالإضافة إلى التنافر الذى تطالعنا به بنايات هذا الزمان.

إن نمطنا المعمارى ليس الواجهات الزجاجية، ولا الشرفات الألوميتال، ولا الطوابق السكلانس، كل طابق يختلف عما تحته وفوقه.

الشخصية المعمارية ترفض السكلانس، لا معنى لتداخل الطابع الفرعونى والطابع العربى الإسلامى والطابع الحديث، قد يصح إقامة أحياء بكاملها، أو مدن بكاملها، بطابع معمارى معين، لكن الطابع العام يجب أن يكون متقارباً أو موحداً، يجب أن يتسم بالقسمات التى تهبه شخصيته المتفردة.

ولعل أشد ما تواجهه البنايات الحديثة من تشويه وإفساد للذوق، أنها ترتكز إلى الإسكان على أى نحو، أنت تريد شقة فى بناية، نحن نوفرها لك على أى نحو، فلا تسرف فى التطلع!

لا أستطيع أن أنفى مسئولية مهندسى الأحياء، فتوقيعاتهم على إنشاء بناية ما، يجب أن يسبقها دراسة ومعاينة على الطبيعة، دون أن يمثل فتح الأدراج إغراء من أى نوع!

عندما ابتعدت عن أسرتى فى الإسكندرية للمرة الأولى، سكنت فى بناية بأرض شريف، سماها صاحبها يافا، ملاصقة لبناية أكبر منها سماها الرجل حيفا، وكانت البنايتان مثلاً للتشوه المعمارى فى شارع مهم، فى قلب القاهرة، يكفى أن أشير إلى الأبواب والنوافذ المصنوعة من خشب الصناديق، دون أن يعنى صاحب البنايتين بإزالة العبارات الأجنبية والأرقام التى تتحدث عن بلد المنشأ، والبلد المستورد، وتاريخ التصنيع، وسنة الانتهاء، والتحذير من أن البضاعة داخل الصندوق عرضة للكسر!

والحق أن فساد الثقافة الجمالية ليس مقصوراً على المواطن البسيط، لكنه بعض ما يعانيه الكثير من المتعلمين، الخط البيانى للوعى الجمالى حده الأعلى أرقام متدنية.

لم يعد ذلك المالك القديم حالة ضمن حالات، لكنه تعدد، وتكاثر، واتسع، فصار ظاهرة.

النسق المعمارى مطلوب، سواءٌ على مستوى مجموعة البنايات فى الحى، أو فى الشارع الواحد، أو على مستوى طوابق البناية الواحدة، الحرية لا تعنى الفوضى ولا الهرجلة، الطابع المعمارى ليس لمجرد تأكيد الهوية - وهو أمر مطلوب - وإنما لمجاوزة فساد الذوق.

السائر فى القاهرة القديمة - الجمالية وما حولها - يسهل عليه - رغم البيوت المستحدثة! - تبين الطابع الموحد فى العمارة، قد لا يتفق ضيق الشوارع مع اتساع حركة المرور، لكن العمارة الإسلامية - واسألوا الخبراء العالميين - تظل هى الأنسب لحياتنا التى تعانى الحر ثمانية أشهر فى السنة!، المشربية - على سبيل المثال - تجمع بين الفائدة والجمال، أجد فيها تعبيراً عن العمارة العربية، فلا تذوى، أو تتلاشى، أمام العمارة الحديثة، ليست المشربية

مجرد نقوش بديعة، لكنها أنسب النوافذ لظروف البيئة المصرية، والتى يمتد فيها الصيف معظم فصول السنة، تصميمها يأذن بدخول الهواء، دون أن يبين البيت عما بداخله.

عندما بدأت الشركات الأجنبية فى إنشاء المدن والأحياء المصرية الجديدة، فقد حرصت أن تستمد مقوماتها من فنون العمارة العربية، ويشير المهندس محمد فؤاد إلى مبانى مصر الجديدة الحديثة، "فلولا استحسان الأجانب لفنون العمارة العربية، وتفضيلهم إياها، ما قاموا بهذا العمل الجليل" (الأهرام ١٩/١٠/١٩١٥)

وفى ١٩٣٠ كتبت "الأهرام" رأياً لسيدة إنجليزية، عابت على مصلحة التنظيم قيامها بفتح شوارع جديدة فى القاهرة، قالت: "إذا كنتم تريدون أن تحيلوا القاهرة إلى صورة عاصمة من عواصم أوروبا، فماذا نأتى نشاهد فى بلادكم؟ وإذا كان الزائر الأوروبى ينتقل من شارع فى بلاده إلى شارع مثله فى بلادكم، فإن دياره أولى به، إن لكل بلد تقاليده وآثاره، فما بالكم تطمسون معالمها، فإذا أنتم لا تاريخ لكم؟".

المؤسف أن لدينا أقساماً للعمارة فى جامعاتنا، ولدينا الآلاف من المهندسين المعماريين والفنانين التشكيليين.. لكن النظرة الإستراتيجية، التخطيط الموحد الذى يلتزم الجميع بالعمل فى ضوئه، غائب تماماً.

والحق أن المشكلة ليست مصرية فقط، وإن طرحت نفسها فى العقود التالية لمطلع القرن العشرين. فالناظر إلى المدينة الحديثة ـ والملاحظة للناقد الإيطالى باولو بورتوجيزى ـ" إلى ضواحيها المتشابهة، الخالية من أى ملامح مميزة، إلى تلك البيئة الحضرية، الخاوية من القيم الجماعية، التى تحولت إلى غابة من الأسمنت وعنابر للنوم، لقد فقدت شخصيتها المحلية وارتباطها بالمكان، وأدى ذلك التشابه المرعب فى أساليب العمارة، إلى تحول مشارف كل المدن الحديثة فى جميع أنحاء العالم، إلى صور مكررة من بعضها البعض، حتى بات من الصعب على ساكنيها أن يميزوا مدينتهم من غيرها" (نك كاى: ما بعد الحداثية والفنون الأدبية ـ ٢)

☆☆☆

لقد شكلت محافظة الإسماعيلية ـ منذ سنوات ـ لجنة باسم "الطابع

المعماري، ولا أدري: هل مارست تلك اللجنة - بافتراض التعميم - عملها؟ أم أنها ظلت حبراً على ورق؟.. لكن ما أرجوه أن تتشكل لجان مماثلة، فعلية، في كل محافظات مصر، تحرص على الطابع العام، الموحد.

أعترف أني أميل إلى الطابع الإسلامي في العمارة، الفن الإسلامي العربي لا يعبر عن خصائص بيئية محددة، وإنما يعبر عن خصائص روحية، خصائص دينية مطلقة، زخارف تشكيلية تنطلق من رؤية جمالية خاصة، تتجه في عمومها إلى التجريد لا إلى التجسيد، تبهرني العمارة الفرعونية بفنيتها المتفوقة، بدقتها الهندسية، بميلها إلى الضخامة والارتفاع.. إلخ.. لكنها لا تثير في داخلي ما يجتذبني إليها، ما يحرك مشاعري ووجداني، وهو ما أجده في العمارة الإسلامية، أفتقد في عمارة الفراعنة هذه الشحنات الروحية التي أجدها في العمارة الإسلامية العربية، وحتى الآن فإنني عندما أدخل مسجداً، أتذكر قول الفرنسي رينان: "لم أدخل مسجداً دون أن أهتز خشوعاً، وأشعر بالحسرة لأني لست مسلماً".

أذكر أن البارون إمبان حاول - عند تخطيطه لبناء ضاحية مصر الجديدة - أن تكون الضاحية مثلاً للمزاوجة في أسلوبها المعماري بين الحضارتين العربية والغربية، وما تبقى من البنايات التي شيدت بهذا الأسلوب يؤكد "التميز" (ليس الامتياز بالضرورة هو المعنى) الذي خطط له بناء الضاحية، ثمة القصور، والفيلات، والبنايات ذات البواكي - بما يلائم طبيعة الجو الحار - والحدائق العامة، ومضمار سبق الخيل (كانت الضاحية تعد للأجانب، وللأرستقراطية المصرية!) والمناطق الصناعية المستقلة، والبعيدة نسبياً، بالإضافة إلى نسبة كبيرة من الحدائق الخاصة والعامة، والتي بلغت حد اشتراط نسبة معينة للخضرة في كل بيت، وأيضاً وصل الضاحية بمدينة القاهرة، بواسطة خط مترو مشابه لمترو باريس.

وظني أن الطابع العربي الإسلامي - وليس أي طابع آخر - هو الذي يدلنا على هذه الشخصية، القبور هي ما خلّفوه لنا، وليست بيوت الحياة المعيشة، تمثل طابعاً لمنازل الآخرة، والطابع الأوروبي أبعد ما يكون عن بيئتنا المشمسة والحارة معظم أيام السنة.

الطابع العربي، المشربيات التي تتيح دخول الشمس والظل والهواء والبواكي التي تحمي المارة، حتى الشبابيك الخشبية تختلف عن نوافذ الزجاج المصمت

الذى يقدمه لنا النسق المعمارى الأوروبى، حتى لو كان من "الفيميه".

احتياجات البيئة تختلف، والأذواق أيضاً!

☆☆☆

ولعل ارتفاعات الشقق الحديثة، بالقياس إلى ارتفاعات الشقق القديمة، تدلنا على سبب مهم آخر فى لجوء السكان إلى استخدام أجهزة التكييف، النوافذ العالية، والشرفات الواسعة، وارتفاع أسقف الحجرات، والمناور.. ذلك كله يكفل تلطيف الجو، عكس ما نراه فى البيوت الحديثة التى تحول غالبيتها إلى أماكن للإيواء، مجرد صناديق حجرية، مكتنزة الحجم، فرضتها سياسة التمليك التى تستهدف الحصول على العائد الكبير من التكلفة القليلة.

يحزننى التشوه الذى يحيق بالبنايات المصرية فى زمننا الحالى، هذه البثور الضخمة التى تتناثر على واجهاتها، أقصد أجهزة التكييف التى يمكن أن تشكل مظهراً جمالياً، لو أحسن تنسيق مواضعها فى واجهات البيوت، لكن تناثرها بلا أى حس فنى أو جمالى، يجعلها مثل البثور فى واجهات المبانى، إضافة إلى ظاهرة أخرى تتصل بها، هى خراطيم المكيفات التى تمثل فعلاً قبيحاً بامتياز.

التحية واجبة للمهندسين المعماريين الذين فطنوا إلى هذه الظاهرة السلبية، فحددوا مواضع لتركيب أجهزة التكييف، وهو ما يفرضه المناخ الخليجى الحار الذى تعيشه مصر منذ سنوات، ستمتد - بالقطع - إلى السنوات القادمة.

بالإضافة إلى ذلك، فإن غياب الصيانة الدورية، مقابلاً لسوء شبكات المياه والصرف الصحى فى البنايات الحديثة، عاملان يجدر الإشارة إليهما فيما يهدد البنايات الحديثة، ويعجل بانهيارها.

دفعت ستة آلاف جنيه، وهو ما دفعه جيرانى الأحد عشر، كى ينقذ المهندس الاستشارى بيتنا من الانهيار، بتأثير زلزال ١٩٩١، أحاط أعمدة الطابق الأرضى بقمصان تعين البناية على التماسك، والسبب - كما عرفنا - أن المقاول الذى بنى العمارة لبيعها، استخدم نوعاً رخيصاً من الأسمنت، قيل إنه مجرد رماد بركانى استورد من رومانيا!

☆☆☆

نخطئ لو أطلقنا صفة العشوائيات على الأحياء التى أنشأتها الضرورة فى منشية ناصر والدويقة والطالبية وفيصل وساقية مكى وأرض اللواء وعزبة الصفيح إلخ، العشوائية هى الصفة التى تليق بمواضع وبنايات فى أحياء القاهرة المتمدنة، قد يكون السبب أنها نتاج شركات تقسيم الأراضى، فالشوارع أضيق مما حدده علماء محمد على لعرض الشارع (جملين يحملان حطباً) والبناية ذات الطابق الواحد تتضاءل إلى جانب البناية ذات الطوابق العشرة (القانون يحدد ارتفاع البناية بما يبلغ عرض الشارع الذى تطل عليه مرة ونصف المرة.

ولأن معظم البنايات على نظام التمليك، فإن كل شقة تختلف عن سائر الشقق بما يعكس فساداً فى الذوق والحس الجمالى، بصرف النظر عن المبالغ الهائلة التى أنفقت، حتى تصبح البناية حقيقة، وباعتبار أن كل مليم (أجيالنا الحالية لا تعرفه!) ينفق، سيحصل المقاول الذى شيد البناية لحسابه على أضعاف ما أنفقه. العشوائية، السكلانس، الخلطبيط، لا تقتصر ـ كما قد نتصور ـ على الأحياء الفقيرة.

وحين شب حريق فى بناية أثرية بشارع رمسيس، استعادت الأذهان قضية ـ أو لنقل مشكلة ـ تناسيناها، وسط هموم حياتنا اليومية، وهى مشكلة الهوية المعمارية لمدينة القاهرة، أو كما يسميها المصريون "مصر المحروسة".

منطقة القاهرة الخديوية، ما بين ميدان التحرير وميدان رمسيس، وزاوية المثلث فى ميدان العتبة، هذه المنطقة تضم بنايات موحدة الطابع فى معظمها، وكان ذلك الحرص حين بدأت عمليات الإنشاء فى عهد الخديو إسماعيل، ثم من بعده الخديو عباس ـ أتجاوز "توفيق" لأنه كان مشغولاً بعمالته للإنجليز! ـ الذى روت زوجته الأميرة جويدان عن إشرافه الشخصى على العمارات المنسوبة إليه حتى اكتمال بناؤها.

تصورت امتداد هذه المنطقة، توسيعها، من خلال استراتيجية الإحلال والتبديل، ليظل الطابع المميز هو السائد فى وسط القاهرة، لكن المنطق العشوائى ظل يفرض نفسه، مجرد حوائط وجدران وأعمدة وأسقف، دون دلالة تاريخية أو جمالية أو تعبير عن خصوصية ما.

مخزن للسيور فى داخل واحدة من هذه البنايات، تطل على الشارع الأهم

فى العاصمة، تسبب فى حريق كاد - بفضل التقصير المعلن! - يدمر المنطقة كلها.

ما أسهل إصدار القوانين التى تحرم، وتجرم، لكن الصعب - بالفعل - هو تحويل تلك القوانين من مجرد مواد وأرقام وبنود إلى واقع فعلى، ليس بالتخويف العقابى، وإنما بتأكيد الحرص على كل ما يعبر عن الهوية المصرية، والعمارة - بالطبع - فى مقدمتها.

المثل المصرى يتحدث عن اختلاط السمك واللبن والتمر هندى، بمعنى الظواهر السلبية التى تسود حياتنا، فلا اتفاق على الحد الأدنى من الحرص على التراث الحضارى والذوق الجمالى، وحين بدأ تمليك الوحدات السكنية - ربما من أوائل السبعينيات - فقد كان المأمول أن يهب هذا الأسلوب إحساساً بالملكية فى نفوس الملاك الجدد، وكان غالبيتهم من أبناء الطبقة الوسطى الذين يتعرفون إلى التمليك للمرة الأولى، بحيث يؤدى هذا الإحساس إلى الحرص على الملكية ومقوماتها البنائية والجمالية، لكن النتائج أفضت إلى عكس المأمول تماماً، فصاحب الشقة - حتى لو كانت حجرات قليلة فى بناية هائلة - يتصرف فى شقته كأنها جزيرة لا شأن لها بما حولها.

وعلى الرغم من إقامة اتحادات للملاك، فإن الظواهر السلبية تزداد تفاقماً، أدعوك إلى مشاهدة أية بناية حديثة مملوكة لعدد من المواطنين، لا نافذة مشابهة للنوافذ الأخرى، وثمة شرفة بامتداد مساحة الشقة، وأخرى استبدلت بها نافذة من الزجاج الفيميه، وتناثر المكيفات بعشوائية غريبة، والخراطيم الثعبانية تطل من الواجهة، تشى بالفردية وفساد الذوق، باختصار، فإن السكلانس هو ما ينطبق على المشهد الكلى للبناية.

الطريف، والمحزن، أن ذلك كله يحدث فى القاهرة، رغم وجود وزارة للبيئة، وجهاز للتنسيق الحضارى، ومحافظ يتبعه نواب ورؤساء أحياء، وغيرها من المؤسسات ذات المسميات المهمة!

أغنيات الغوازي

"أسمعونى أغنيات أمة من الأمم، أحدثكم عن مدى حضارتها ونصيبها من الرقى"

كونفوشيوس

حين أراد نوبل أن يكفّر عن سيئات الديناميت - اختراعه الذى أراد به صالح البشرية - فطوع العسكريون الاختراع لصالح السيد "مارس" - إله الحرب الأسطورى - فإنه كان يؤكد بديهية أن الإنجاز العلمى الذى يستهدف الإضافة الإيجابية والتطوير، قد يتحول - فى أيدى البعض - إلى نتيجة مغايرة، إن لم تكن مناقضة تماماً.

الأمثلة - بالطبع - لا تعوزنا، يكفى أن نشير إلى اختراع الأوفست فى الطباعة، الذى أفلح المزورون أن يطبعوا - بواسطته - ملايين النسخ من المؤلفات التراثية والمعاصرة، وحققوا من بيعها أرباحاً خيالية، دون أن يتقاضى المؤلفون - موتى! - مقابلاً لإبداعاتهم!

والريكوردر كاسيت اختراع مفيد، ولعله من أهم الإضافات العلمية فى حياتنا المعاصرة، لكن أهل المغنى، الذين طالبهم العظيم بيرم التونسى - يوماً - أن يريحوا أدمغتنا بالسكوت، يحرصون على الإفادة بالسلب - ينال ذلك بالقطع من أذواقنا! - فتتوالى موسيقاهم وأغنياتهم الفجة والساذجة: مئات الكاسيتات التى تحمل أصواتاً سدّت أمامها أبواب الشرعية من إذاعة

وتليفزيون وغيرهما، فجعلت أحمد عدوية مثلاً يحتذى، وتحول كل مغن لنفسه فى الحمام إلى مطرب يطبع أغنياته فى كاسيتات، تجد ـ للأسف ـ منً يشتريها.

فى الإذاعة والتليفزيون تمتحن الأصوات الجديدة، وتناقش الألحان والكلمات، فلا يصل إلى المتلقى إلا ما هو فى المستوى الفنى المقبول، فلماذا لا تشكل لجان للموافقة على الأصوات التى تحاول النفاذ إلى المتلقى من باب اللا شرعية: الكاسيت؟!

كان البسطاء من أمثالنا يتعرفون على قاموسهم اللغوى فيما يستمعون إليه من أغنيات، أما الآن، فإنهم يلحون فى السؤال ومحاولة الفهم، فيما تتضمنه أغنيات هذه الأيام من كلمات لا يصادفونها فى مألوف حياتهم، إنها كلمات مما يتبادله جلساء القهاوى، وقعدات الحشيش، والأركان المظلمة، كلمات مهومة، لا تنطلق من معنى، ولا تهدف إلى معنى، مجرد مفردات وتعبيرات مما يتبادله أهل الكأس والجوزة والتعميرة.

فإذا كانت الأغنية الحقيقية التى يطمئن الوجدان إليها، ويستعيدها، هى ـ على حد تعبير بيرم التونسى ـ حياة الروح، يسمعها العليل تشفيه، وتداوى كبد مجروح، يحتار الأطبا فيه، فإن المغنى لم يعد حياة الروح كما غنت أم كلثوم، إنه شىء آخر.

✮✮✮

العادة أن المغنى الشعبى فى قرى الصعيد، وربما الوجه البحرى أيضاً، ترافقه غازيتان لا يجاوز أداؤهما الذى لا يزيد عن اهتزاز جسدى ثابت، مجرد إضفاء لمسة أنثوية، جمالية، عنصر مشهدى، إلى العنصر السمعى، هذا هو ـ كما ترى ـ حال الأغنية الفردية فى هذه الأيام، لا قيمة لصوت المطرب، ولا لأسلوب أدائه، ولا لاقترابه من الطرب، أو ابتعاده عنه، المتعة الجمالية يحققها جسد الأنثى لا صوت المغنى!

حين يهمس المتلقى ـ أو يعلو صوته ـ بالقول: الله!.. فإنه يعبر ـ بتلقائية ـ عن حالة الطرب التى أحدثها فى نفسه صوت المطرب، المطرب هو الذى ينقل غناؤه حالة من الطرب إلى وجدان المتلقى، يحرك الشجن والحنين، والعديد من المشاعر التى تخلو من الحسية، أو تكتفى بالنقر على الغرائز، وهو ما

تفعله أغنيات الغوازى التى نستمع إليها هذه الأيام، الطرب هو وسيلة المؤدى، والمؤدى المطرب يختلف عن المؤدى المغنى. وسيلة الطرب هو الصوت الغنائى الحقيقى، وليس الصوت الذى يعتذر بالأنفلونزا، أو بتعب الصوت، إن لم يلامس فمه ميكروفون بالغ الحساسية!

لقد انتقلنا من أغنية الأذن إلى أغنية العين، من الأغنية التى نسمعها إلى الأغنية التى نراها.

إن الخطر العظيم الذى يواجهه عالمنا المعاصر ـ كما يقول الإسبانى تاراجوثا ـ ليس مقصوراً على تلوث البيئة التدريجى، لكنه يشمل كذلك تلوث عقل الإنسان.

***

هذا هو ـ كما ترى ـ حال الأغنية الفردية فى هذه الأيام، لا قيمة لصوت المطرب، ولا لأسلوب أدائه، ولا لاقترابه من الطرب، أو ابتعاده عنه، المتعة الجمالية يحققها جسد الأنثى لا صوت المغنى!

المطرب هو الذى ينقل غناؤه حالة من الطرب إلى وجدان المتلقى، يحرك الشجن والحنين، والعديد من المشاعر التى تخلو من الحسية، أو تكتفى بالنقر على الغرائز، وهو ما تفعله أغنيات الغوازى التى نستمع إليها هذه الأيام، الطرب هو وسيلة المؤدى، والمؤدى المطرب يختلف عن المؤدى المغنى، وسيلة الطرب هو الصوت الغنائى الحقيقى، وليس الصوت الذى يعتذر بالأنفلونزا، أو بتعب الصوت، إذا لم يلامس فمه ميكروفون بالغ الحساسية!

أذكر أن محمد التابعى كتب يصف المطربة العظيمة فيروز، قال إن صفة الطرب يجب ألا تطلق إلا على من تطربنا أصواتهم بالفعل، وكان رأيه أن صوت فيروز ليس كذلك، وإنما هو صوت مؤدٍ.. فبماذا نصف الأصوات التى تصفعنا هذه الأيام فى الطريق، وفى السيارات، وفى الأماكن العامة؟!

***

لعل إلصاق تهمة الخفة المسرفة بكلمات الأغنية الحديثة، يحتاج إلى مراجعة متأملة، أذكر ـ مثلاً ـ أغنية محمود شكوكو التى لحنها عبدالوهاب: من ناحية قلبى ونار قلبى واد حبيب موت.. وحبيبى لو غاب يوم عنى أفقع ميت صوت "،

أو أغنية شكوكو "حمودة فايت يابنت الجيران التى يقول فيها لسعاد مكاوى: "إدينى بوسة.. أنا زى اخوكى.. ناولينى ناولى يا بنت الجيران"..

إن الجهاز الإعلامى الأخطر الآن هو المئات من سيارات الأجرة، فى داخل المدن وخارجها، من شروط الإذعان لراكبيها سماع أغنيات عدوية وكتكوت والأسمر، وغيرهم من "مطربى" هذه الأيام.

إليك عينة مما يقدمه لنا أخطر جهاز إعلامى: سيارات الأجرة وعربات النقل ودكاكين الحرفيين: إيه الأستوك ده.. اللى ماشى يتوك ده، طبل لى طبّل على طبلى.. خليك حنيّن طبطب لى، إش إش إش.. الشايب داخل على غش.. البنت آخر حلاوة.. والواد لازم يقش، اعتذرى للى حاييجى بعدى.. وخليه يسامحنى.. أصل أنا خدت كل حاجة فى عهدى.. أحمد حلمى اتجوز عايدة.. كتب كتابهم الشيخ رمضان.. يا إيه يا آه.. يا إيه يا أوه، أنا مش مندوب جوازات.. ولا بجوز فى الأموات.. أنا مش مندوب جوازات.. ولا برقص فى الأموات، جوزى أشويه وأقليه.. أفرده واكويه.. أعمله بولوبيف، لما الجو احلو وراق.. رقّصت أنا مترو الأنفاق.. اسمع منى أنا بحرى غويط.. وأنا اللى رقصت العفاريت، وثمة أغنيات: إحنا اللى خرمنا التعريفة.. تلات طبقات وأستك.. السح الدح امبو.. أنا مش خرنج.. باحبك يا حمار.. حجرين على الشيشة.. وهناك أغنية تقول: إمتى الولد ييجى.. أجيله ع المحطة.. أجيله وادبح له بطة.. ييجى على بيتنا.. يجى وادبح له وزتنا، ومن أغنية عن خناقة بين حى روكسى (الذى تقطنه الطبقة الوسطى وما فوقها) وحى بولاق (الشعبى): روكسى اتخانق ويّا بولاق.. قال له: يا بلدى يا حى فقير.. ياللى مصاحب الوراق.. أما أنا صاحبى يبقى سفير.. رد بولاق قال: بس يا فافى.. كنت زمان طول عمرك حافى، رد روكسى وقال: يايى ياه.. راح أوريك وحياة ببّاه.. وأخليك يا بولاق تندم، رد بولاق: اتأدب ياه!

استمعت إلى ما كان يسمى الأغنية الشبابية، أغنيات تعتمد على الإيقاع السريع، والأداء اللاهث، والإفادة من التقنيات الحديثة، فى مداراة عيوب الصوت، (أصارحك أنى لم أستطع استساغتها) ومشاركة الأداء الحركى الجسدى، للأداء الصوتى، وحث الجمهور المشاهد أن يصنع بتصفيق الأيدى إيقاعاً مساوياً للإيقاع الموسيقى.

أغنيات هذه الأيام يؤديها بعض المغنين بالجسد، لا يقتصر الأمر على الحسناوات، لكنه يشمل الرجال أيضاً، المرأة تهمس، وتغنج، وتفح، وتتلوى، وترتدى العرى، والرجل - هل يستحق التسمية؟ - يتأود، ويتثنى، فيلغى قناعتك بجمال الجسد البشرى!

استغنت الأغنية عن غوازى المطربين الشعبيين، استبدلت بها رقصات للمغنى نفسه، أو للمغنية نفسها، ترافقها دعوة بالأيدى للمستمعين - المشاهدين! - كى يشاركوا فى حمى الرقص!

حتى صلاح جاهين، تنازل فى "خللى بالك من زوزو"، فكتب ما لا يصح انتسابه إليه.

✯✯✯

فى سنى انشغالى بإعداد بطاقات كتابى "مصر فى قصص كتابها المعاصرين"، لاحظت دور الأغنية فى تصوير المجتمع المصرى عبر عصوره المختلفة، أفدت من ذلك فى تقديمى لدراسة عن عبدالحليم حافظ، بدأت بكلمات المغنى المصرى القديم، مروراً بأغنيات نهايات القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين التى رددها سلامة حجازى وسيد درويش ومنيرة المهدية وفتحية أحمد وعشرات المغنين والمطربين، وانتهاء بمطرب جيلنا عبدالحليم حافظ.

أنت لا تحتاج إلى قراءة صحف، ولا مراجعة أرشيف وسائل الإعلام، كل المطلوب أن تستمع على السى دى إلى مراحل متتالية من الأغنية المصرية، ينفسح أمامك - بالضرورة - مشهد بانورامى، مفرداته الشخصيات والأحداث والأماكن والأزمنة المختلفة.

هذا هو - فى تقديرى - علم الاجتماع الغنائى، إذا كانت التسمية غير موجودة، فإن هذا العلم الذى اخترعت تسميته، لابد أن يطالعك فى مجموع الأغنيات التى استمعت إليها، شريطة أن تنتسب هذه الأغنيات إلى الحياة المصرية فى عصورها المتوالية.

ناوشتنى فكرة إعداد دراسة مطولة عن علم اجتماع الأغنية، استمراراً لكتبى فى علم الاجتماع الأدبى: مصر فى قصص كتابها المعاصرين.. مصر

المكان.. مصر الأسماء والأمثال والتعبيرات.. لكن تقدم السن فرض محاذير، فاكتفيت بالتمنى أن يجد دارس شاب فى حصيلته الفنية، وقدرته على البحث، ما يدفعه إلى تقديم صورة المجتمع المصرى ـ فى أحقابه المختلفة ـ من خلال الأغنية.

كانت مفردات الأغنية المصرية ـ من قبل سيد درويش ـ هى العوازل، والهجر، والدلال، والسهاد، والدموع، لا تكاد تخلو أغنية من مفردة أو أكثر، أو كل المفردات، إنها المفاصل التى تصل سطور الأغنية، أفلح سيد درويش فى ست سنوات ـ هى عمره الفنى ـ أن ينتقل بالأغنية العربية من التطريب الشكلى إلى الألحان التى تجمع بين دقة الكلمات، وجمال اللحن، وعذوبة الأداء.

يصفون العبقرى بأنه من ينسج على غير منوال، يرفض المسايرة والمحاكاة، ويقدم ذاته الفنية، المتفردة، اقترب من وادى عبقر عدد قليل من الموهوبين، فى مقدمتهم بيرم التونسى، ثم فؤاد حداد وصلاح جاهين ومجدى نجيب وعبدالرحمن الأبنودى وسيد حجاب، وغيرهم قلة لا تحضرنى أسماؤهم.. ثم اردم!

ولأن عبدالحليم حافظ هو مطرب جيلنا، ارتبط صوته وأغنياته بتطورات حياتنا اليومية، فقد أردت أن أكتب عنه، ورجعت إلى الكثير من الكتابات التى تعرض لأحوال الأغنية منذ تخليها عن البشارف والسماعيات التركية، وتبينت أن التقابل، أو التضاد، فى كلمات الأغنية المصرية سمة حتى فى أغنيات سيد درويش..

من الصعب ـ فى زماننا الحالى ـ أن تؤدى مغنية مثل هذه الكلمات: إن كنت تايه عن بيتنا، بيتنا قدامه دحديرة.. إن كنت خايف من أبويا، حشاش وواكل داتورة.. وان كنت خايف من جوزى، دا جوزى سافر المنصورة..

بدأت ظاهرة أحمد عدوية فى ١٩٧٣، غنى السح الدح امبو، تلتها أغنية "سلامتها أم حسن" للمطرب نفسه، للأديب عبدالعال الحمامصى صورة بالغة الطرافة عن انتشار العدوى ـ هل يصح التعبير؟! ـ بحيث على المرء أن يفر منه، يذكرنا بالقصيدة القديمة التى وصف فيها الشاعر من يحكمه بأنه كالليل الذى هو مدركه، وإن خال أن المنتأى عنه واسع!، عدوية ورفاقه وأبناؤه

وحفدته هم حكام الأغنية فى بلادنا الآن، هواة الموسيقا الكلاسيك، أو حتى أغنيات عبدالوهاب وأم كلثوم وفايزة والأطرش وعبدالحليم وفيروز ونجاة، يعزفون عن شراء تسجيلات تلك الأصوات الحشيشية - فسر المعنى بما شئت! - يرفضون سماعها، يجدون فيها تعبيراً بالغ الدلالة عن الانحطاط الذى تدنت إليه الأغنية المصرية، لكن الأصوات التى يرفضونها تصل إليهم أينما كانوا، أذكرك بالشاعر وسطوة الحاكم التى كأنها الليل، إنهم يستمعون إليها - هل يصمّون آذانهم؟! - فى الشارع، فى التاكسى، فى المقاهى، فى أى مكان يغادرون بيوتهم إليه، بل إن ما يرفضونه يصل إليهم بما لا يقوون على منعه داخل البيوت.

الطريف - والمؤسف - أن الطشت قال لى، سلامتها أم حسن، السح الدح أمبو.. لم يحصل أصحابها على تصريح من الرقابة على المصنفات الفنية، أذيعت - وانتشرت - بعيداً عن الرقابة، ثم قدمت فى الإذاعة.

إذا كانت الأغنية تقوم على الكلمات واللحن والأداء، فإنى أتأمل الكلمات جيداً، أرفض الكلمات السهلة، أو الساذجة، أو الخالية من المعنى، يجتذبنى تضفير الكلمات والموسيقا، بما يصنع لحنا ذا قيمة، ومن المهم - عندى - أن يكون الصوت المؤدى، فضلاً على عذوبته، معبراً بالفعل عن جمال الكلمات واللحن.

لعبد الغنى السيد أغنية تقول: أنا وحدى يا ليل سهران.. بافكر فى اللى ناسينى، الكلمات حزينة، لكن اللحن راقص.

منتهى السذاجة كما ترى.

لحن الأغنية يجب أن تكون معبراً عن كلماتها، وهو ما يجب أن يفعله المغنى المؤدى، للأغنية أبعادها الثلاثة المترابطة: الكلمة، اللحن، الأداء، إذا طال بعد أو قصر عن البعدين الآخرين، فإن البناء كله يختل، يصبح معيباً.

أشير إلى قول المفكر الإسبانى تاراجوثا: "إن الخطر العظيم الذى يواجهه عالمنا المعاصر ليس مقصوراً على تلوث البيئة التدريجى، لكنه يشمل كذلك تلوث عقل الإنسان".

النيل

فى قصيدة شوقى..
ولحن السنباطى..
وصوت أم كلثوم

أصارحك أن التحدث عن انطباعات ذاتية، بالتوقف أمام أبيات قصيدة النيل هو هدف هذه الكلمات، ليست دراسة من خلال قصيدة شعرية، ولا شرحاً لأبيات هذه القصيدة، لكن الهدف هو مناقشة التأثيرات التى تحدثها أبيات القصيدة فى النفس العاشقة للنيل، المحبة لإبداعات الثلاثى: شوقى والسنباطى وأم كلثوم، والتى تجد فى أغنية "النيل" - تحديداً - إيماءات ودلالات وصوراً رافقت النفس، منذ استمعت إليها فى سنى الطفولة الباكرة، حتى الآن.

النيل - فى تقديرى - هى أروع قصائد شوقى على الإطلاق، أرفض المقاييس الفنية إطاراً لكلماتى، وإن كنت أوافق شوقى ضيف على أنها "جسدت شخصية النيل المعنوية بجانب شخصيته الجسدية "، ولعلى أضيف أن الشاعر قد أجاد التصوير بدرجة مذهلة، جعل الحياة فى النيل قريبة من أعيننا ونفوسنا.

☆☆☆

يقول شوقى فى تقديمه لقصائد مجموعته الأولى - ومعظمها يدور حول القصر، والعاملين فيه، والقريبين منه - أن هناك ملكاً كبيراً ما خلق الشعراء إلا ليتغنوا بمدحه، ويتغنوا بوصفه، ذاهبين فيه كل مذهب، آخذين منه بكل نصيب، وهذا الملك هو الكون، وكما يقول أستاذنا محمد خلف الله أحمد، فقد كان هذا كلاماً جديداً "لعله يقال لأول مرة فى تاريخ الأدب العربى، وهو يمثل تحولاً لابد لمؤرخ الأدب الحديث أن يسجله، وسواء كان التزام شوقى به، فى مستقبل حياته الفنية، كلياً أم جزئياً، فإن الذى لا شك فيه أن الفكرة قد

وجدت طريقها إلى الفكر العربى من مصادر متعددة، وأنها أثّرت بعد ذلك على اتجاه الشعر العربى الحديث تأثيراً ملحوظاً " (بحوث ومحاضرات مجمع اللغة العربية ـ الدورة الخامسة والثلاثون).

هو مصرى المولد والنشأة والموطن، ومن أبوين كل منهما مصرى المولد والنشأة والموطن، وإن كان فى أصوله أرومة جركسية.

لكن المكانة التى استطاع شوقى أن يحققها فى مجتمعه، كانت هى مبعث اعتزازه الأول، فضلاً عن عدم تبعيته لعظيم، أو لحزب من الأحزاب، وكان يحرص ـ فى قصائده ـ على التأكيد على وظيفته التعليمية، وأن دوره فى توجيه الشباب إلى درب الوطنية، لا يقل عما أداه الزعماء السياسيون، ففى قصيدته « إلامَ الخُلف بينكم إلامَ» يقول:

أتذكر قبل هذا الجيل جيلاً ... سهرنا عن معلمهم وناما

مهار الحق بغضنا إليهم ... شكيم القيصرية واللجاما

لواؤك كان يسقيهم بجام ... وكان الشعر بين يدى جاما

من الوطنية استبقوا رحيقاً ... فضضنا عن معتقها الختاما

غرسنا كرمها فزكا أصولاً ... بكل قرارة وزكا مداما

☆☆☆

أنا من أشد المعجبين بصوت السنباطى وهو يغنى: كل شيء هادئ البهجة حولى هاهنا .. أيها الساقى إذا شئت اسقنا، ثم اسقنا، فضلاً عن ذلك، فإنى أوافق على القول إن رياض السنباطى هو صانع أجمل غناء فى القرن العشرين، بدايته تتفق ـ إلى حد كبير ـ مع بداية أم كلثوم، هو من مواليد فارسكور محافظة دمياط فى ٣٠ مارس ١٩١١، الاسم لقب العائلة، وليس ـ كما يشى الاسم ـ مدينة سنباط محافظة الدقهلية. كان والده ـ محمد السنباطى ـ مطرباً شعبياً، وكان يصحب "رياض" الصغير فى الأفراح والموالد التى يقوم بإحيائها فى نادى مديرية الدقهلية، وتأثر رياض بأبيه، وتعلم منه

العزف على آلة العود، كما غنى ـ برعايته ـ أدواراً قديمة شائعة، لداود حسنى وعبدالحى حلمى وغيرهما.

ولعل سيد درويش كان أول أساتذة السنباطى، يشى بذلك ما رواه السنباطى نفسه أن سيد درويش أعجبه بعزفه على العود، وطلب أن يصحبه معه إلى الإسكندرية، ويرعاه فنياً، لكن والد رياض رفض هذا الطلب. وأدى السنباطى ألحان سيد درويش فى البداية، ثم التحق (١٩٣٠) أستاذاً للعود بمعهد الموسيقى العربية.

لحن السنباطى وغنى ٧٥٨ أغنية، غنى له ٤٢ مطرباً ومطربة، حظيت أم كلثوم بأعلى نصيب فيها: ١٨٣ قصيدة وأغنية وطقطوقة، قدم صوت أم كلثوم ألحان السنباطى منذ ١٩٣٦، الكلمات لشعراء كبار: شوقى وحافظ ورامى والتونسى ومحمود حسن إسماعيل وأباظة وأحمد شفيق كامل ومصطفى عبدالرحمن وناجى وإقبال وجرداق وغيرهم، ومن هذه الأغنيات: ياللى كان يشجيك أنينى، يا ظالمنى، جددت حبك ليه، أغار من نسمة الجنوب، ذكريات، ولد الهدى، النيل، نهج البردة، أنا لن أعود إليك، شمس الأصيل، حيرت قلبى معاك، مصر تتحدث عن نفسها.. إلخ، والإطلال هى درة قصائد السنباطى التى غنتها أم كلثوم، وكما يقول، فقد كانت أصعب ألحانه، بل إنه لم يكن واثقاً ـ للمرة الأولى فى حياته ـ من أداء أم كلثوم، لكن أم كلثوم ـ بحنجرتها الذهبية، وأدائها الاستثناء ـ قضت على مخاوفه، وتحققت للأطلال مكانتها المتقدمة بين أغنيات العصر.

يحيى حقى يتحدث عن موسيقا السنباطى، فيرى أن المستمع إليها يشعر بالثراء والتدفق والكرم، كنوزه أضخم من أن يتسع لها قالب، فهى تفيض من على الجنبين بشىء من الاختلاط والتدافع الذى لا يخلو من ضجة، إن نوره منبعث من إشعاع كأنه التصادم بين قرارات متعددة متناثرة، فهو يحب أن يحشد، لا أن يختار وينتقى.. وهو لم ينقل الموسيقا الشرقية ـ فى تقدير حقى ـ نقلة نقول معها إننا انتقلنا من عهد إلى عهد (المساء ١٩٦٧/٤/١٧)

القيمة الأولى لألحان السنباطى أنها تمزج بين اللحن ومعنى الكلمات، بحيث يضيف اللحن إلى الكلمات، ولا ينبو عنها، عبدالوهاب يضع لحناً فى غاية الرقة والطراوة، يعبر به عن مشاعر محب، يخاطب الراية وهو فى

طريقه إلى جبهة القتال، أغنية "فلسطين: لا تفترق - فى خصائصها اللحنية - عما قدمه فى أغنياته العاطفية، بينما استطاع السنباطى - فى قدرة فائقة - أن يهبنا الجو الدينى من خلال ألحان أم كلثوم الدينية، والإحساس بالوطن من خلال "مصر التى فى خاطرى" و"مصر تتحدث عن نفسها" وغيرها.

ومات السنباطى فى ٩ سبتمبر ١٩٨١.

☆☆☆

النيل - كقصيدة - تحض قارئها على تخيل المسار، الطريق التى شقها النيل بنفسه عبر البلاد والمدن والغابات والأحراش والوديان والجبال، منذ المنابع فى وسط إفريقيا، إلى رشيد ودمياط على البحر المتوسط، وهى - فى لحن السنباطى - تفيض بالكثير الكثير من الصور الموحية، القضية - عند السنباطى - ليست فى مجرد النغم الجميل، النغم الذى يطرب، لكنها قضية التوافق بين الكلمات واللحن، وطبيعة الصوت المؤدى، ويروى محمد عبدالوهاب أنه ميز لحن قصيدة النيل من بين ألحان السنباطى، أعجب بما بذله من جهد، وقال الناقد الفنى كمال النجمى إن السنباطى لحن القصيدة بأسلوب تفوق فيه على نفسه.

☆☆☆

لا أذكر من القائل: "آذان الناس تربت على صوت أم كلثوم "، لكنه قول صادق إلى حد بعيد.

كان العرب يجتمعون - مساء الخميس الأول من كل شهر - على ثلاث أغنيات، ثلاث وصلات، الوصلة الواحدة تستغرق نحو الساعة ونصف الساعة، والوصلات الثلاث تبدأ فى العاشرة حتى الثالثة من صباح اليوم التالى.

الظاهرة التى يتفرد بها صوت أم كلثوم أنه بلا شبيه، تسمعه فتعرف أن أم كلثوم تغنى، يصعب أن يقترب من خصائصه صوت آخر، تسمع مغنية فترى أن صوتها يقترب - أحياناً - من صوت فايزة أحمد، وأحياناً أخرى من صوت وردة، ومغنية تذكرنا بشهرزاد فى بعض أغنياتها، وهى وردة فى أغنيات أخرى، عفاف راضى تذكرنا بفيروز، اقتراب فى الذبذبات الصوتية، والمساحة، وطريقة الأداء، مع الفارق النسبى لهذا الصوت أو ذاك، أما

أم كلثوم فإن قماشة صوتها من نسيج متفرد، بلا شبيه، لا أتحدث عن "التفوق"، فتفوق صوت أم كلثوم حقيقة يصعب مناقشتها، أنا أتحدث عن "التفرد"، صوت أم كلثوم - فى التحليل العلمى للدكتورة سمحة الخولى - من الأصوات القادرة من ناحية الاتساع والنوعية وعدد الذبذبات والأصوات التوافقية فى كل نغمة، وينفرد صوتها باللون المميز، وبنوع من الدرامية فيه، فالنغمة تغنيها أم كلثوم لها لون يختلف عن النغمة نفسها عندما يؤديها آخرون، ثمة النهر والخضرة والنخيل والسواقى وجنى القطن وليالى الحصاد.

ينتسب صوت أم كلثوم إلى الغناء المصرى، العربى، انتساباً أصيلاً وواضحاً، بلا شبهة استعارة أو إفادة من أصوات أخرى، أو موسيقا أجنبية، استوعب صوت أم كلثوم طفولتها، نشأتها الريفية، آيات القرآن والمدائح النبوية والابتهالات والإنشاد، وحين بدأت تعلم الغناء - بأسلوب علمى - كان ذلك على يدى الشيخ أبوالعلا محمد، وكان أول ما تلقته منه أداء القصائد العربية، استطاعت أستاذية الشيخ أبوالعلا - فى تطويعه البارع لصوت أم كلثوم - إبعاد العجمة العثمانية والفارسية والغجرية التى دانت لها الغلبة على أصوات المطربين عشرات الأعوام، بتأثير الغزوات الوافدة، لذلك جاء منطوق الكلمة عند أم كلثوم سليماً ومقتدراً، وإن ظل على فطرته.

مفردات صوت أم كلثوم هى المساحة الصوتية الواسعة، النبرات الصافية، استقامة موسيقا اللغة العربية، الحصيلة المعرفية، النطق الصحيح لمخارج الألفاظ، الدقة فى تخريج النغمات، الحفاظ على الطابع الشرقى الأصيل.

فى المؤتمر الدولى للموسيقا العربية (القاهرة ١٩٦٩) قال عالم الموسيقا الدانمركى بول أولسين: "إن كل الخصائص الدرامية متوافرة فى صوت أم كلثوم، وإن حنجرتها قادرة على أداء حركات صوتية وأوبرالية، تحتاج منا إلى دراستها، لكى نثرى بها أساليب الغناء الحديث فى أوروبا".

ويقول الناقد الموسيقى عادل الهاشمى "إن علاقة الزمان بالصوت البشرى علاقة استهلاكية، لكن هذه العلاقة فى صوت أم كلثوم خلقت بنياناً داخلياً، تأكد فيه ذلك التصاعد الملموس فى إمكاناته وقدراته الفائقة المتنوعة بصورة شكلت ما يمكن تسميته بالتحدى للقوانين الطبيعية المفروضة، بقى صامداً لتقلبات المحيط الزمنى، بل إن تقادم السنين زاده خبرة وصقلاً وتجانساً، لم

يكن شائخاً، متعباً، خائراً، مترجرجاً، أو مخذولاً.. إنه صوت لم تغادره العراقة والنصاعة، امتلأ بثقة زاهية بالتجدد، هو متناغم ونبيل، ومنتج، وصاحب جاذبية ملغزة".

***

من القلائل الذين تحولوا ـ فى حياتنا الثقافية ـ إلى ظاهرة: طه حسين، العقاد، الحكيم، نجيب محفوظ، يوسف إدريس، عبدالوهاب، أم كلثوم، عبدالحليم حافظ، خاطبت الدكتور مراد كامل ـ يوماً ـ بلقبه العلمى، طالبنى أن أناديه بالأستاذ، فقد تخرج على يديه العشرات من حملة الماجستير والدكتوراه، أتصور أن تلك هى المكانة التى تحققت للمشاعل الثمانية فى حياتنا الثقافية، ثمة العشرات الذين أتيحت لهم مكانة متقدمة بين مبدعى العصر، باختلافات فى مدى المكانة، أما هؤلاء الثمانية، فقد جاوزوا التقديرات والنسب، وحققوا رأياً عاماً لا يتناقض ولا يختلف.

صوت أم كلثوم هو الصوت الذى حقق إجماعاً عربياً، تحول إلى "ظاهرة" تأخذ تجسيدها فى الخميس الأول من كل شهر، كانت أم كلثوم تغنى فى مسرح الأزبكية، وفى سواه من المسارح ـ فيما بعد ـ فتجتمع الآذان فى كل البلدان العربية حول أجهزة الراديو، ظاهرة لم تتكرر مع مطربة أو مطربة من قبل، وظنى أنها لن تتكرر فى قادم الأعوام.

أم كلثوم إبراهيم البلتاجى، قيل إنها ولدت فى ١٨٩٨، وقيل إنها ولدت فى ١٩٠٤، وفارق السنوات الست يجب ألا يجاوز إطاره، ولدت فى قرية طماى الزهايرة التابعة لمركز السنبلاوين، كان أبوها قارئاً، فتعلمت منه تلاوة القرآن، وصلت إلى القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٩٢٣، وهو اليوم نفسه الذى توفى فيه الشيخ سيد درويش.

العادة أن المغنى يبدأ بتقليد المعروفين من مطربى الفترة قبل أن يقدم أغنيته الأولى، أم كلثوم لم تقلد أحداً، أنشدت المدائح والابتهالات الدينية وألحان الفطرة، قبل أن تتعلم أصول الغناء على يدى الشيخ أبوالعلا، فلما بدأت الغناء فى المدينة لم يكن صوتها قد هجر أصالته، أو حاول التقليد، بالإضافة إلى أنها لم تغادر ظروف نشأتها، حتى بعد أن تحقق لها التفرد فى ساحة الغناء العربى، بمعنى أنها كانت تحرص على اختيار الكلمات واللحن،

عدا بعض الأغنيات الخفيفة التى اضطرت لأدائها فى بواكير البداية، من هنا يأتى تفوقها على مغنية متفوقة فى وقتها، هى منيرة المهدية، أو "الغندورة" كما كانت تسمى، تمسكت منيرة - والرأى للناقد الفنى عادل الهاشمى - بأشكال غنائية تجاوزها الزمن، ولما حل الصراع بين ما تمثله هى، وما يمثله الجديد النابت، لم تدرك أبعاد هذا الصراع، وتصرفت - بتمسك لا يتزعزع - بتقاليد الغناء فى ذلك العصر، لكن الجديد كان يحمل فى داخله ديمومة البقاء، فانتصر، وتجاوز المرحلة التى أصرت منيرة المهدية على استلهام معاييرها.

حتى عندما استعان ملحنو أم كلثوم (كانت موافقتها، بالطبع، شرطاً أولاً!) ببعض الآلات الغربية، الأكورديون - مثلاً - أو البيانو، أو الأرغن - فى النسيج اللحنى لأغنياتها، فإن ذلك لم يأت على حساب "شرقية" اللحن بعامة، لا إفراط فى استخدام تلك الآلات، إنما تحدد استخدامها فى مقاطع معينة فى اللحن، كنوع من إثراء التعبير الموسيقى.

السهل الممتنع، لا أجد ما هو أكثر انطباقاً على هذا التعبير، أو أن هذا التعبير أكثر انطباقاً عليه من صوت أم كلثوم، يعانق العفوية فى صداقة حميمة وطول معاشرة، لكنه متمكن ومقتدر بلا حد، لا يخطئ حتى فى قصائد الفصحى.

أحمد رامى ينصح محبى الشعر - صقلاً لمواهبهم - أن يقرءوا الجيد من الشعر العربى والعالمى، ويكثروا من الاستماع إلى أم كلثوم، أم كلثوم تجلو الألفاظ، تجعلها واضحة مشحونة بالعاطفة، وتخلق لدى من يسمعها إحساساً عميقاً بالكلمة والنغم وعذوبة الأداء.

والحق أن أم كلثوم لم تكن مجرد صوت جميل، لكنها - رغم حصيلتها المعرفية المحدودة - كانت اختياراً جميلاً، فهى قد حرصت على اختيار الكلمة واللحن، بل المؤلف والملحن، وكما يقول سيمون جارجى فى كتابه "الموسيقا العربية" (١٩٧١) فإن "السحر الذى تمارسه أم كلثوم على جمهور الموسيقا العربية لا يعتمد على الطرب فقط، لكنه ينهض أيضاً على الخامة الممتازة، والرائعة، لصوتها، وعلى إتقانها المثالى لفن الغناء، مع احتفاظها بالتقاليد الفنية التى سبقتها، بالإضافة إلى تطويرها وتنميتها، مما جعل فنها يقف شامخاً، متحدياً الزمن نفسه"،

كانت عاملاً مباشراً فى اكتشاف القدرات الكامنة، والتى لم تعد تستغل فى ملحنى عصرها، وعلى سبيل المثال، فقد لحن محمد القصبجى ـ قبل تعرفه إلى أم كلثوم ـ لمنيرة المهدية ورتيبة أحمد وفاطمة قدرى ونعيمة المصرية، كان أول ألحانه لها: قال إيه حلف ما يكلمنيش، اللحن بداية طريق جديدة لكليهما، ثم تخلصت أم كلثوم من فرقة المنشدين، وكونت فرقة موسيقية قوامها: القصبجى عازفاً للعود، محمد العقاد عازفاً للقانون، سامى الشوا عازفاً للكمان، محمود رحمى ضابطاً للإيقاع، ثم توالت ألحان القصبجى لأم كلثوم، والتى تكفى الإشارة لتبين ما أضافته ألحان القصبجى لأم كلثوم، وما أضافه صوت أم كلثوم لألحان القصبجى: أن يغيب عن مصر سعد، إن حالى فى هواها عجب، أيها الفلك على وشك الرحيل، طالت ليالى البعاد، خاصمتنى وأنا حيران من أمر الخصام، سكت والدمع اتكلم، فين العيون اللى سابتنى، طالت ليالى البعاد، يا غائباً عن عيونى وحاضراً فى خيالى، ياللى رعيت العهود، يا ما ناديت من أسايا، أنت فاكرانى، ليه تلاوعينى، تبعينى ليه أنا ذنبى إيه، حبيت ولا بانش عليّه، مدام تحب بتنكر ليه، يا بهجة العيد السعيد، ليه يا زمان، يا طير يا عايش أسير، ياللى ودادى صفالك، منّيت شبابى يا مجد، ياللى صنعت الجميل، نامى يا ملاكى، طاب النسيم العليل، يا صباح الخير، نورك يا ست الكل، وغيرها.

كان السنباطى واحداً من ملحنى عصره، فلما اكتشفه صوت أم كلثوم ـ أقصد المعنى تماماً ـ ظهر كموسيقى كبير، بل إن قيمة عبدالوهاب الموسيقية ـ وهى قيمة يتفق فيها الجميع ـ أضافت إلى نفسها الكثير من خلال "أنت عمرى" أول الألحان التى غنتها له أم كلثوم، ثم ما تلا ذلك من الألحان، وعلى الرغم من عشرات الأصوات التى غنت من ألحان فريد الأطرش، فإن أمنية حياته، وعقدة حياته أيضاً ـ باعترافه ـ هى أن ألحانه لم تعرف طريقها إلى صوت أم كلثوم.

☆☆☆

من حديث أنس فى حديث المعراج، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة.

قلت: ما هذا يا جبريل؟

قال: هذا سدرة المنتهى.

وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران.

قلت: ما هذا يا جبريل؟

قال: أما الباطنان فنهران فى الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات (خطط المقريزى - ٩١/١)

لقد ظهرت الأراضى الخصبة فى مصر مع نهر النيل، الذى حول طبيعة الأرض فى الوادى والدلتا من صخور رملية فى الجنوب، وجيرية فى الشمال إلى تربة رسوبية بما يطرحه فوقها من طمى "، يقول ابن فضل الله العمرى: "ساقه الله تعالى إلى مصر، وأحيا به بلدة ميتة، وسقاه أمة عظمى، وإن لم تكن هى المنفردة بنفعه، فإنها كالمنفردة".

وسيدى أبوالعلا هو حامى النيل، كم منع التماسيح من السير فى النيل شمالاً، وأجبرها على العودة إلى الجنوب، وظلت أعدادها فى تناقص، حتى اختفت تماماً.

النيل من المنبع إلى المصب يمـــر فى تسع دول هى: بوروندى، رواندا، الكونغو الديمقراطية، تنزانيا، يوغندة، كينيا، أثيوبيا، السودان، مصر.

وإذا كانت مصر هبة النيل، فإن النيل هو الذى اختار موقع القاهرة عاصمة لمصر، ذلك لأنه عند هذا الموقع يلتقى الوادى بالدلتا، الممتدة إلى الشرق والغرب.

وثمة ظاهرة يجدر بنا التوقف أمامها، وهى أن توالى الأديان والمذاهب والحكام على مصر، لم يحل بين المصريين والاحتفال بوفاء النيل، ظل الاحتفال عادة ثابتة، متكررة، لا يكتفى الحاكم - أيا يكن - بقبولها، لكنه - حتى ولو مسايرة لمشاعر الناس! - كان يشارك فيها بحضوره الشخصى، أو بإنابة بعض وزرائه.

كان رصد المقياس يسبق - دائماً - احتفال فتح الخليج، بلوغ النيل ستة عشر ذراعاً يؤذن بوفاء النيل، وببدء المهرجانات احتفالاً بالمناسبة العظيمة، يعلق على الشباك الكبير، فى الجبهة الشرقية من دار المقياس، ستر أصغر ليعلم الناس

بالوفاء، وتوقد القناديل والشموع، ويحضر كبار الأمراء والوزراء والكتبة والقادة، وتوزع الخلع والهبات، ويتناوب القراء تلاوة آيات القرآن الكريم، كما يؤدى المغنون أغنيات تعبر عن الفرحة بقدوم المناسبة، إذا حل الوقت، ولم يصل النيل إلى معدله المعتاد، صلى الحاكم ركعتين، وطالب القضاة بالابتهال إلى الله حتى يفيض النهر بمياهه، فإذا وصل المنسوب إلى معدله المطلوب، بدأت الاحتفالات، ويأمر الحاكم بكسر سد الخليج لتدخله مياه النيل.

النيل هو ترمومتر الحياة فى الأرض المصرية، يعلو النداء: عوف الله! عوف الله! يعلم الجميع أن النيل أتى من الجنوب، محملاً بالمياه والطمى والحياة، فإذا ارتفع الفيضان، أغرق ما على الضفتين، وأتلف المزروعات، وارتفعت أسعار الغلال، أما إذا امتنع ورود الفيضان، فإن مياه النيل تقل، وتتناقص مياه الرى بالتالى، وتجف المزروعات، ويقل الإنتاج الزراعى، وترتفع الأسعار، وربما زادت الظروف من قسوتها، فتنتشر الجدب والموت والدمار.

كان فيضان النيل إحدى العجائب فى رأى الشاعر الرومانى "لوكريتوس" لأنه النهر الوحيد فى العالم الذى يفيض فى الصيف، يبلغ أقصى ارتفاعه فى شهر مسرى، ما يقابل أغسطس فى التقويم الغربى الحديث، لم يحدث - مرة واحدة - تأخر وروده إلى شهر توت، أو سبتمبر، من هنا جاء المثل "لا خير فى زاد ييجى مشحوط، ولا نيل ييجى فى توت "، وكان المصريون يستقبلون النيل فى بدايات الفيضان بقولهم: "شباب رعاياك وأطفالك يهللون فرحاً بقدومك، والرجال يحتفلون بك كملك راسخ القوانين، عندما يوافى الوجه القبلى والوجه البحرى، ويروى الناس من ظمأ، ويقر الحزين، ويبتهج كل قلب، إن مصر وادى النيل، ووادى الدين "، وفى نشيد النيل الذى نقله "إرمان" عن قدماء المصريين، أنهم كانوا يفضلون النيل على البحر: "إنه النيل الذى يأتى بالخيرات والغنى والطعام، وخالق الطيبات، يغمطه من يقرنه بالبحر الذى لا ينبت قمحاً، وبالصحراء التى لا تؤتى خيراً، ومادام الناس لا يأكلون اللازورد الحر، فالشعير أحسن".

الأسطورة تقول إن فيضان النيل مصدره دموع إيزيس، حين كانت تبكى حزناً على موت زوجها وأخيها، أوزوريس وحورس.

ولعل ابن عبدالحكم هو أول من تحدث من المؤرخين العرب عن احتفال

المصريين بزفاف عروس مصرية إلى النيل فى موعد الفيضان، قال إنه حين فتح عمرو بن العاص مصر، قال له أهلها عند قدوم شهر بؤونة: أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها، قال لهم: وما ذاك؟، قالوا: إنه كلما جاءت الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى النيل، فقال لهم عمرو: هذا لا يكون فى الإسلام، وإن الإسلام يجب ما قبله، فأقاموا شهور بؤونة وأبيب ومسرى، والفيضان لا يأتى، وكتب عمرو إلى الخليفة عمر، فكتب إليه عمر: قد أصبت، فإن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك برقعة، فألقها فى النيل إذا أتاك كتابى، وقرأ عمرو ما فى الرقعة" من عبدالله أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجرى، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك، فلنسأل الله الواحد القهار أن يجريك، وألقى عمرو الرقعة فى النيل، وكان أهل مصر - على حد تعبير ابن عبدالحكم - قد تهيأوا للجلاء عنها، والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصلحتهم إلا النيل، وأصبحوا وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة.

واللافت أن الكثير من المؤرخين اليونانيين والرومانيين الذين قاموا بزيارة مصر قبل الفتح العربى، لم يتناولوا - ولو بالإشارة السريعة - تلك الحكاية المثيرة عن النيل الذى يتزوج عروساً كل يوم.. نسخة سابقة من شهريار ألف ليلة!

الحكاية مثيرة بلا جدال، ولو أنها تنتسب إلى الصحة، فمن المؤكد أنها كانت ستجد حفاوة فى كتابات مؤرخى اليونان والرومان.

وفاء النيل يعنى قدوم الفيضان فى موعده، المياه التى تروى البشر والأرض، والطمى الذى يخصّب الأرض، ويهبها المزيد من الصحة والعافية وتواصل العطاء.

بديهى أن يحتفل الناس بوفاء النيل، وأن يشارك فى الاحتفالات كل فئات الشعب، بداية من الحاكم إلى بسطاء المواطنين، وكان أهم تلك الاحتفالات يقام فى "جبل السلسلة"، بين الأقصر وأسوان، بالإضافة إلى احتفالات أخرى فى كل المدن المصرية.

وبتوالى الأعوام، أصبح الاحتفال بوفاء النيل عادة مصرية، عيداً يضاف إلى الاحتفالات التى يحتفل بها المصريون فى أثناء العام، مثل عيد الربيع (شم النسيم) ذى الأصل الفرعونى، وعيدى الفطر والأضحى اللذين بدأ الاحتفال بهما فى بداية مصر الإسلامية، ويوم عاشوراء الذى يجد بدايته فى العهد الفاطمى، وعيدى الغطاس والفصح اللذين بدأ الاحتفال بهما فى مصر المسيحية.. إلخ.

يقول شوقى فى ألحان عبدالوهاب:

النيـــل نجاشـــى حليـــوه أســـمر

عجـــب للونـــه دهـــب ومرمـــر

أرغـــوله ف إيده يسبّح لســـــيده

حيـــاة بلدنـــا يـــارب زيـــده

ويقول محمود حسن إسماعيل عن النيل فى ألحان عبدالوهاب:

مســـافر زاده الخيـــال والسحر والعطر والظلال

ظمآن والكأس فى يديـــه والحب والفن والجمـــال

كـان لوفـاء النيل عند المصـريين - فى وصف المقـريزى - قـدر عظيم، ويبتهجون به ابتهاجاً زائداً، وذلك لأنه عمارة الديار، وبه التئام الخلق على فضل الله، فيحسن عند الخليفة موقعه، ويهتم بأمره اهتماماً عظيماً أكثر من كل المواسم "، يأتى الفيضان، فتتضاعف ضروب البركات، وتكثر موارد الأرزاق والأقوات.

وثمة رأى أن إلقاء عروس فى النيل أيام الفيضان، يعنى - والتعبير لنبيلة إبراهيم - أن "النيل الذى وصل فى نهاية العام إلى حالة الإنهاك، لابد أن يعود إلى كامل قواه وحيويته عن طريق الزواج الجديد" (الأقلام - مايو ١٩٧٦)

✯✯✯

عروس من بنات النيل، يجرى - كل عام، وفى موعد الفيضان، والاحتفال بوفاء النيل - يجرى إلقاؤها فى مياهه، بعد أن تزين بفاخر الحلى والثياب، ويحتضنها النيل فى عناق حميم، بينما مظاهر الفرح والابتهاج تتعالى بدقات الطبول والزغاريد والأغنيات.

الصورة التى يهبها شوقى فى قصيدته للعروس التى تحتضن النيل فى يوم وفائه العظيم، تنبض بالمعانى والدلالات، وتنبض بالصدق أيضاً.

وفاء النيل - فى تقدير بعض المفسرين - هو اليوم الذى وعد فيه فرعون موسى بالاجتماع فى قوله تعالى "قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى".

مع ذلك، فإن الثابت - تاريخياً - أن عروس النيل الموسمية لم تكن حقيقة فى يوم من الأيام.

يقول المقريزى: "ويحصل لأهل مصر بوفاء النيل ست عشرة ذراعاً، فرح عظيم، فإن ذلك كان قانون الرى فى القديم، واستمر ذلك إلى يومنا هذا، ويتخذ ذلك اليوم عيداً يركب فيه السلطان بعساكره، وينزل فى المراكب لتخليق المقياس" (خطط المقريزى - ١/١١١)

كانت تلك العروس التى تعانق مياه النيل - باختيارها - يوم الاحتفال بوفائه، تعبيراً عن قربان أسطورى، بداياته فى الأيام الأولى لتخلق الحياة على ضفتى النهر، أو أنه تعبير عن الخصوبة التى كانت تنشدها الأرض فى مياه النيل، وطميه؟

لست أدرى!.

الكتابات التاريخية التى تناولت النيل، إما أنها أغفلت واقعة عروس النيل، فلم تشر إليها، أو أنها نفت تلك الواقعة التى اخترعها ابن عبدالحكم - أول مؤرخى مصر الإسلامية - تماماً، لكن الفن فى قصيدة مغنّاة، بكلمات شوقى، ولحن السنباطى، وأداء أم كلثوم، يجاوز الإغفال والنفى، ليصبح "الصدق الفنى" هو المعنى الذى نطمئن إليه.

المهم أن النيل له دوره المهم فى المعتقدات الشعبية، وهو دور يشابه دور الأولياء، فمياهه - على سبيل المثال - تبرئ من العقم، وكثرة البكاء عند الأطفال، امتداد للمعتقد المصرى القديم، ولاشك أن تعدد معتقدات وممارسات المصريين المتصلة بالنيل مبعثها تعدد أبعاد خطورة النيل فى حياة المصريين:

لقد تعلم المصريون الكثير من النيل، كانت الزراعة - بالطبع - هى أول ما

تعلمـوه، أصبـحـوا ـ بفضله ـ أول مـجـتـمع زراعى فى تاريـخ الجنس البـشـرى، وتعلموا ـ من أجل الزراعة ـ الكتابة والحساب والهندسة والفلك وعلم قياس الأرض، علمـهم فيـضـان النيل أن السنة تتكون مـن ٣٦٥ يوماً وربع يوم، وأنـها تنقسم كذلك إلى فصول ذات خصائص ثابتة، يفيده فى اختيار مواعيد الغرس والإرواء والرعاية والحصاد، وإذا كان المصرى القديم قد وجد صورة الإله فى تدبير الملك، وفى الإخصاب الحيوانى (العجل أبيس) فإنه وجد صورة الإله أيضاً فى قوة الإخصاب النباتى التى تصدر عن النيل، يقول ابن ظهيرة "إن نيل مصر، وحلاوته، ومنافعه، وما يزرع عليه، ويوفر من الأموال، لا يشبهه نهر فى الدنيا، كذلك فإن ماءه يزيد فى قوة الرجال، حكى عن الإمام الشافعى ـ رحمة الله عليه ـ أنه قال: دخلت مصر وأنا كالخصى، فرزقت بها الولد" (الفضائل الباهرة ـ ١٤٣)

ـ ومياه النيل ـ منذ تخلق الحياة على ضفتيه ـ تمثل المصدر الرئيس لهذه الحياة، معظم التربة الزراعية المصرية حملتها مياه النيل من فوق جبال الحبشة البركانية، تحولت إلى طمى تكونت به التربة الزراعية، تربة الدلتا بخاصة، إنها تكوين رسوبى من الطمى، بنيت فوقه أول وأعرق حضارة زراعية فى التاريخ.

ـ وفى المقابل، فإن فيضانه ـ فى حالتى الزيادة أو الشح ـ يمثل خطراً مؤكداً، تنتشر المجاعات، ويعم الغلاء، وتتفشى الأوبئة، النيل هو الذى علم المصريين الخوف من الفيضان، من حيث فيضانه الوافر، أو تحاريقه التى تهلك، لذلك كانوا يسترضونه بأغلى فتياتهم.

ـ والنيل وسيلة أساسية للمواصلات والتجارة بين المدن المصرية.

ـ والنيل كذلك مصدر حيوى لطعام المصريين، بما تشتمل عليه مياهه من أسماك.

ـ بل إن النيل ـ على امتداد العصور ـ كان المتنفس شبه الوحيد لأبناء المدن والقرى المتصلة على شاطئيه. تقول الأم لطفلها فى واحدة من أجمل البرديات التى خلفها المصريون القدامى: "يا ولدى، إن النهر هو نهر الحياة بشاطئيها، والرحلة بين الشاطئين هى رحلة الوجود، إنها رحلة طويلة، شاقة، وضربات السواعد تحتاج إلى مجهود مضن، ومستمر، للعيش وكسب الرزق،

لبلوغ نهايتها بسلام"، ومازلت أذكر - ضمن مئات الأغنيات التى يعد النيل فتاها المتفرد - تلك الأغنية الشعبية التى يقول مطلعها:

إسنا وكوبرى اسنا.. لفحنا الهوا نعسنا.. واللى شبكنا يخلصنا.. إلخ.

☆☆☆

هل نغالى لو قلنا إن النيل هو الذى فرض صورة الحياة الحالية، فى المجتمع المصرى؟

المركزية التى يدين بها المجتمع المصرى - منذ بدايات تكوينه - هى ضرورة أملاها جريان النيل بين الضفتين، وحاجة الناس لمياهه، وسيطرة الحاكم على توزيع المياه.

النيل هو الذى علم الناس أن يتكاتفوا للإفادة من مياهه، وفى درء ما قد يفيض به من الخطر، فالسعى إلى الفائدة المشتركة هو الذى حتم على أبناء الوادى - فى مناطقه المختلفة - أن يوحدوا جهودهم للإفادة من مياه النيل، بحيث لا تغرق الزراعة أيام الفيضان، ولا تتلف أيام التحاريق، وتصبح من حق الجميع، شقوا الترع، واخترعوا الشادوف والساقية والنورج، ونظموا اندفاع المياه لتصل إلى الحقول البعيدة، أما التكاتف فى مواجهة الخطر، فقد كان يحدث عندما يأتى الفيضان عالياً، فيغرق المزروعات، ويهدد الناس والحيوان والطير والأشياء، يتعاون الكل لدرء الخطر، بتقوية الجسور، وحراستها، وإنشاء القرية بعامة فى موضع مرتفع ينأى بها عن هذا الخطر.

وكان النيل - بخواصه المميزة - فى مقدمة العوامل - بل لعله العامل الأهم - التى فرضت على المصريين القدامى، والأجيال التالية من بعد، أن يلتزموا بالطاعة للرئيس، سواءٌ كان ملكاً أو حاكماً أو زعيم قبيلة أو رب أسرة، لذلك كانت "الحكومة" ضرورة لازمة للحياة المصرية فى فجرها الأول، تلازمت مع انبثاق فجر الحياة الزراعية - بما تعنيه من استقرار - على ضفتى الوادى.

والحق أنى فكرت طويلاً فى القول إن النيل قد علم المصريين أن يعبدوا الطغيان، لماذا لا يكون العكس هو الصحيح؟، ولقد كان ذلك كذلك بالفعل، يصح القول الغريب لو أن المصريين واجهوا ثورات النيل باستكانة، ولم يحاولوا السيطرة على مياهه، لكنهم حاولوا منذ عرفوا الزراعة على ضفتى

النهـر، وأفلحـوا فى ذلك بتـوالى الأيام، ومن إعـجـابنـا بالوصف الـرائع الذى صـور به شوقـى عناق "العـروس" للنيل فـى عـرس الفيضـان، فإن الدلائل المادية لم تؤكد إذا كانت تلك العروس من البـشر، كان مـهرجاناً شـعبيـاً، يستمـد معناه من الاسم الذى أطلق عليه، فهو وفـاء النيل وليس وفـاء المصـريين، وفـاء النيل بالفيضـان الذى أتـى فى مـوعده، فاحتفـالات المصـريين إذن كـانت بالنيل الذى ظل على وفائه، فجاء بالفيضان.

مـصـر هبـة النيل، مـقولة هـيرودوت التـى توارثهـا المؤرخـون، لكن مـحـمـد شفيق غـربال يرى أن النيل هبة المصريين، فهم الذين استـزرعوا ضفـتيه، وهم الذين شـقـوا المجرى فـى مناطق كثيـرة، وهـم الذين واجـهـوا التـحدى، فـأنشـأوا أول مجتمع زراعى فى التاريخ.

***

فى تقدير نعـمات أحمد فـؤاد أن قصيدة النيل كلها تعـزز مـزية أم كلثـوم فـى النطق والأداء، هذه القصيـدة العصية بمقاماتها على النطق القارئ، فما بالك بالغناء؟.. ولكن أم كلثوم طوّعتهـا، ثم رقـرقتهـا فـى المطلع، ثم تهـدَّرت بهـا فـى خفـة الفـرح بالمهرجان، فتدفقت كـالفيضـان الذى يحتفـل به صـوتهـا المزغـرد فـى البيت:

فى مهرجان هزت الدنيــا به   أعطافها واختال فيه المشرق

ويعتـرف السنبـاطى بأن لحن قـصيدة النيل نعـمة أنعم الله بهـا علىّ، ولكن أين كان مكانها لو لم يقيّض الله لها صوت أم كلثوم يؤديها؟

مؤلفات محمد جبريل

١- تلك اللحظة (مجموعة قصصية) ١٩٧٠ ـ نفد

٢- الأسوار (رواية) ١٩٧٢ هيئة الكتاب ـ الطبعة الثانية، ١٩٩٩ ـ مكتبة مصر.

٣- مصر فى قصص كُتَّابها المعاصرين (دراسة) الكتاب الحائز على جائزة الدولة ـ ١٩٧٣، هيئة الكتاب.

٤- انعكاسات الأيام العصيبة (مجموعة قصصية) ١٩٨١، مكتبة مصر ـ ترجمت بعض قصصها إلى الفرنسية.

٥- إمام آخر الزمان (رواية) الطبعة الأولى، ١٩٨٤، مكتبة مصر ـ الطبعة الثانية، ١٩٩٩، دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية.

٦- مصر.. من يريدها بسوء (مقالات) ١٩٨٦، دار الحرية.

٧- هل (مجموعة قصصية) ١٩٨٧، هيئة الكتاب ـ ترجمت بعض قصصها إلى الإنجليزية والماليزية.

٨- من أوراق أبى الطيب المتنبى (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٨، هيئة الكتاب ـ الطبعة الثانية، ١٩٩٥، مكتبة مصر.

٩- قاضى البهار ينزل البحر (رواية) ١٩٨٩، هيئة الكتاب.

١٠ الصهبة (رواية) ١٩٩٠، هيئة الكتاب.

١١- قلعة الجبل (رواية) ١٩٩١، روايات الهلال.

١٢- النظر إلى أسفل (رواية) ١٩٩٢ ـ هيئة الكتاب.

١٣- الخليج (رواية) ١٩٩٣ ـ هيئة الكتاب.

١٤- نجيب محفوظ.. صداقة جيلين (دراسة) ١٩٩٣، هيئة قصور الثقافة.. الطبعة الثانية ٢٠٠٦، مكتبة مصر.

١٥- اعترافات سيد القرية (رواية) ١٩٩٤، روايات الهلال.

١٦- السحار.. رحلة إلى السيرة النبوية (دراسة) ١٩٩٥، مكتبة مصر.

١٧- آباء الستينيات.. جيل لجنة النشر للجامعيين (دراسة) ١٩٩٥، مكتبة مصر.

١٨- قراءة فى شخصيات مصرية (مقالات) ١٩٩٥، هيئة قصور الثقافة.

١٩- زهرة الصباح (رواية) ١٩٩٥، هيئة الكتاب.

٢٠- الشاطئ الآخر (رواية) ١٩٩٦، مكتبة مصر ـ ترجمت إلى الإنجليزية ـ الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢ ـ هيئة الكتاب.

٢١- حكايات وهوامش من حياة المبتلى (مجموعة قصصية) ١٩٩٦، هيئة قصور الثقافة.
٢٢- سوق العيد (مجموعة قصصية) ١٩٩٧، هيئة الكتاب.
٢٣- انفراجة الباب (مجموعة قصصية) ١٩٩٧، هيئة الكتاب ـ ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية.
٢٤- أبوالعباس ـ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧، مكتبة مصر.
٢٥- ياقوت العرش ـ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧، مكتبة مصر.
٢٦- البوصيرى ـ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨، مكتبة مصر.
٢٧- على تمراز ـ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨، مكتبة مصر.
٢٨- بوح الأسرار (رواية) ١٩٩٩، روايات الهلال.
٢٩- مصر المكان (دراسة فى القصة والرواية) ١٩٩٨، هيئة قصور الثقافة ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٠ ـ المجلس الأعلى للثقافة.. الطبعة الثالثة ٢٠١١ دار الكتب والوثائق القومية.
٣٠- حكايات عن جزيرة فاروس (سيرة ذاتية) ١٩٩٨، دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية.
٣١- الحياة ثانية (رواية تسجيلية) ١٩٩٢ ـ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية.
٣٢- حارة اليهود (مختارات قصصية) ١٩٩٩ ـ هيئة قصور الثقافة.
٣٣- رسالة السهم الذى لا يخطئ (مجموعة قصصية) ٢٠٠٠ ـ مكتبة مصر.
٣٤- الميناء الشرقية (رواية) ٢٠٠٠ ـ مركز الحضارة العربية.
٣٥- مد الموج ـ تبقيعات نثرية (رواية) ٢٠٠٠ ـ مركز الحضارة العربية.
٣٦- البطل فى الوجدان الشعبى المصرى (دراسة) ٢٠٠٠ ـ هيئة قصور الثقافة.
٣٧- نجم وحيد فى الأفق (رواية) ٢٠٠١ ـ مكتبة مصر.
٣٨- زمان الوصل (رواية) ٢٠٠٢ ـ مكتبة مصر.
٣٩- موت قارع الأجراس (مجموعة قصصية) ٢٠٠٢ ـ هيئة قصور الثقافة.
٤٠- ما ذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله (رواية) ٢٠٠٣ ـ روايات الهلال.
٤١- حكايات الفصول الأربعة (رواية) ٢٠٠٤ ـ دار البستانى.
٤٢- زوينة (رواية) ٢٠٠٤ ـ الكتاب الفضى.
٤٣- صيد العصارى (رواية) ٢٠٠٤ ـ دار البستانى.

٤٤- غواية الإسكندر (رواية) ٢٠٠٥ ـ روايات الهلال.
٤٥- الجودرية (رواية) ٢٠٠٥ ـ المجلس الأعلى للثقافة.
٤٦- رجال الظل (رواية) ٢٠٠٥ ـ دار البستانى.
٤٧- ما لا نراه (مجموعة قصصية) ٢٠٠٦ ـ هيئة قصور الثقافة.
٤٨- مواسم للحنين (رواية) ٢٠٠٦ ـ دار البستانى.
٤٩- الصوت الهامس يعلو (دراسة نقدية سوسيولوجية) ٢٠٠٧ ـ رابطة الأدباء بالكويت.
٥٠- كوب شاى بالحليب (رواية) ٢٠٠٧ ـ دار البستانى.
٥١- سقوط دولة الرجل (دراسة فى القصة والرواية) ٢٠٠٧ ـ دار البستانى.
٥٢- أهل البحر (رواية) ٢٠٠٧ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.
٥٣- ملامح مصرية (مقالات) ٢٠٠٨ ـ كتاب الجمهورية.
٥٤- البحر أمامها (رواية) ٢٠٠٩ ـ روايات الهلال.
٥٥- للشمس سبعة ألوان (قراءة فى تجربة أدبية)، ٢٠٠٩ كتاب الجمهورية.
٥٦- أخبار الوقائع القديمة (مجموعة قصصية) ٢٠٠٩ ، هيئة قصور الثقافة.
٥٧- فى الليل تتعدد الظلال (مجموعة قصصية) ٢٠١٠ ، كتاب اليوم.
٥٨- صخرة فى الأنفوشى (رواية) ٢٠١١ ، روايات الهلال.
٥٩- الحنين إلى بحرى (سيرة مكان) ٢٠١١ ، كتاب الهلال.
٦٠- باب العزيزية (مجموعة قصصية) ٢٠١٢ - هيئة قصور الثقافة.

كتب عن المؤلف

١ ـ الفن القصصى عند محمد جبريل ـ مجموعة من الباحثين ـ مكتب منيرفا بالزقازيق.

٢ ـ دراسات فى أدب محمد جبريل ـ مجموعة من الباحثين ـ مكتب منيرفا بالزقازيق.

٣ ـ صورة البطل المطارد فى روايات محمد جبريل ـ د. حسين على محمد ـ دار الوفاء بالإسكندرية.

٤ ـ فسيفساء نقدية: تأملات فى العالم الروائى لمحمد جبريل ـ د. ماهر شفيق فريد ـ دار الوفاء بالإسكندرية.

٥ ـ محمد جبريل.. موال سكندرى ـ فريد معوض وآخرون ـ كتاب سمول.

٦ ـ استلهام التراث فى روايات محمد جبريل ـ سعيد الطواب (دكتور) ١٩٩٩ دار السندباد للنشر.

٧ ـ تجربة القصة القصيرة فى أدب محمد جبريل ـ حسين على محمد (دكتور) ٢٠٠١ كلية اللغة العربية بالمنصورة.

٨ ـ فلسفة الحياة والموت فى رواية الحياة ثانية ـ نعيمة فرطاس ـ ٢٠٠١ ـ أصوات معاصرة.

٩ ـ روائى من بحرى ـ حسنى سيد لبيب ـ ٢٠٠١ ـ هيئة قصور الثقافة.

١٠ ـ محمد جبريل ـ مصر التى فى خاطره ـ حسن حامد ـ ٢٠٠٢ ـ أصوات معاصرة.

١١ ـ سيميائية العقد فى النظر إلى أسفل ـ عبدالرحمن تبرماسين والعطرة بن دادة ـ ٢٠٠٤ ـ أصوات معاصرة.

١٢ ـ التراث والبناء الفنى فى أعمال محمد جبريل الروائية ـ سمية الشوابكة ـ ٢٠٠٥ ـ هيئة قصور الثقافة.

١٣ ـ المنظور الحكائى فى روايات محمد جبريل ـ د. محمد زيدان ـ ٢٠٠٥ ـ أصوات معاصرة.

١٤ ـ آمال منصور ـ بنية الخطاب الروائى فى أدب محمد جبريل، جدل الواقع والذات، النظر إلى أسفل نموذجاً ـ ٢٠٠٦ ـ أصوات معاصرة.

الفهرس

نعم، مصر هى بيت أبى ٧
العباءة.. بدلاً من نجمة داود ٢٣
ثقافتنا هى المعرفة، الثقافة شىء آخر ٣٩
والبهائم تعيش ٥٣
الحقيقة التاريخية.. هل هى مطلقة؟ ٦٣
الستينيات.. ذلك الجيل الأدبى ٧٣
جماعية الأداء ٩١
هل نخشى التقدم؟ ١٠١
يا صدمة المستقبل.. أهلاً! ١١٩
مستقبلنا فى العلم، أو لا مستقبل ١٢٩
العرب.. والعالم ١٣٩
الثقافة.. والسياسة ١٤٩
لكن الأرض تدور ١٥٥
احذروا تسونامى البشر ١٧٧
العمارة.. والعشوائية ١٨٣
أغنيات الغوازى ١٩٥
النيل فى قصيدة شوقى ولحن السنباطى وأداء أم كلثوم ٢٠٥
مؤلفات محمد جبريل ٢٢٣
كتب عن المؤلف ٢٢٦

رقم الإيداع : ٣٣٢٩ /٢٠١٢
الترقيم الدولى : I.S.B.N -977-236-804-8

طبع بمطابع دار الجمهورية للصحافة

هذا الكتاب

يخاطب الأجيال القادمة.

إنه يناقش هموماً مصرية، تشمل التاريخ ، والهوية القومية ، والوطنية ، والعمل الثقافى ، والعمارة ، والأغنية، ومدى إفادتنا من الثورات العلمية ، والتكنولوجية.

الطرح يتسم بالموضوعية والجرأة والصراحة .لا يكتفى بتحديد المشكلة ، لكنه يشير إلى الحلول ، ويستشرف أفقاً حقيقياً للمستقبل، اتساقاً مع الرصيد الإبداعى اللافت لمحمد جبريل، مابين قصة قصيرة ورواية، إضافة إلى دراساته التى جعلت من القضايا المصرية قواماً لها، متمثلة فى: «مصر فى قصص كتابها المعاصرين» و«مصر المكان »، و«مصر الأسماء والأمثال والتعبيرات»، و«مصر : من يريدها بسوء»، و«ملامح مصرية»،و«قراءة فى شخصيات مصرية»، وغيرها.

(كتاب الجمهورية)

الثمن ١٠ جنيهات

كتاب الجمهورية

نعم.. مصر هى بيت أبى

محمد جبريل